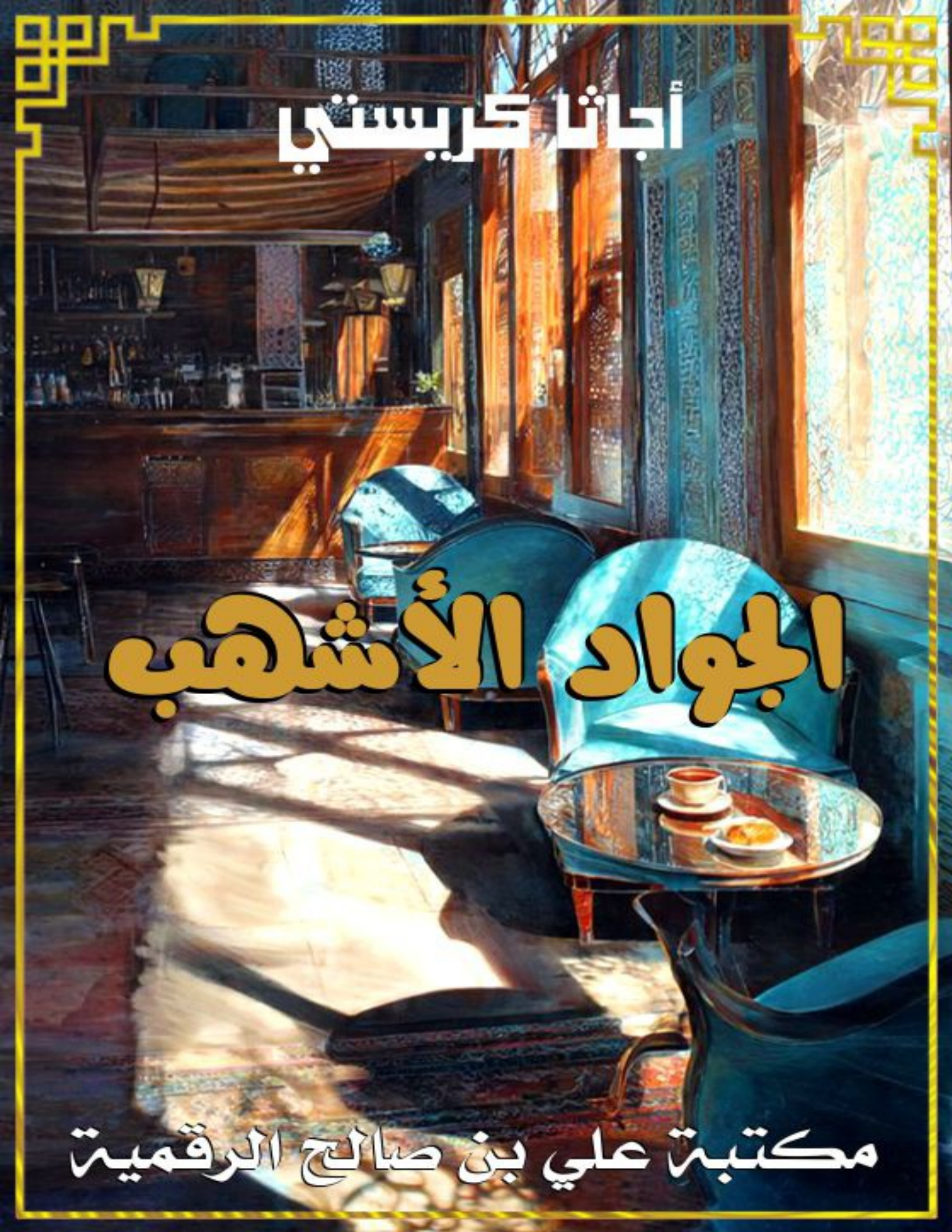
أجاثا كريستي
الجواد الأشهب
مكتبة علي بن صالح الرقمية

أجاثا كريستي

الجواد الأشهب

رواية بوليسية

1961

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إهداء

إلى جون وهيلين مايلدماى وايت،
مع جزيل الشكر لإتاحة الفرصة
لى لرؤية تنفيذ العدالة

مقدمة

بقلم مارك ايستربروك

يبدو أن هناك طريقتين لتناول هذه القضية الغريبة للجواد الأشهب. على الرغم من مقولة الملك الأبيض، من الصعب تحقيق البساطة هنا، أى لا يمكن للمرء أن يبدأ منذ البداية ثم يتجه صوب النهاية ثم يتوقف، فنحن لا نعرف أين البداية.

هذا صعب دومًا بالنسبة للمؤرخين؛ فهم لا يعرفون النقطة التى يبدأ عندها جزء محدد من التاريخ.

وفى هذه القضية، يمكننا البدء فى لحظة توجه السيد جورمان من صومعته لزيارة امرأة تحتضر. أو ربما نبدأ قبل ذلك فى ليلة محددة فى مدينة تشيلسى.

وبما أننى سأكتب الجزء الأكبر من هذه الرواية بنفسى سأبدأ من هذه النقطة.

الفصل الأول

رواية مارك ايستربروك

1

سرى فحيح آلة قهوة الإسبرسو خلف كتفى مثل الثعبان الغاضب، وبدا لى ضجيج هذه الآلة وكأنه نذير شر، ولعلى لا أبالغ إذا قلت إنه بدا لى كصوت شيطانى له إيحاء مخيف، تأملت قليلاً، ربما كان معظم الضجيج المعاصر فى الحياة الحديثة له نفس الإيحاء؛ تلك الصرخة المدوية المرعبة للطائرات النفاثة وهى تنطلق عبر السماء؛ الهدير البطئ المزعج للمترو وهو يجرى فى النفق؛ عربات النقل الثقيلة عبر الطرقات وهى تهز أساسات المبانى... حتى الضجيج البسيط المنزلى اليومى قد يكون له فائدة بطريقة أو أخرى لكنه يحمل نوعاً من الإنذار. آلة غسيل الأطباق، الثلاجة، موقد الطهى بالضغط، دوى المكنسة الكهربية ـ كل هذه الآلات تبدو وكأنها تقول:"احترس، أنا جنى مسخر لخدمتك، لكن إن أخفقت فى التحكم بى...".

إنه حقاً عالم خطير ـ عالم خطير حقاً.

قلبت بالملعقة كوب الإسبرسو ذا الرغوة وكانت رائحته مثيرة.

قالت المضيفة:"ما الذى ستتناوله أيضاً؟ شطيرة من اللحم والموز؟".

بدا لى ذلك مزيجاً غريباً يجمع بين عنصرين متناقضين. الموز مرتبط بذكرى فى طفولتى ـ كنت أتناوله أحياناً مطهياً بالسكر وعصير الأناناس، أما اللحم، فإنه يرتبط فى ذهنى بالبيض. لكن عندما تكون فى تشيلسى فلتتناول الطعام الذى يتناوله أهل هذه، لذا وافقت على شطيرة اللحم بالموز.

على الرغم من أننى أعيش فى تشيلسى ـ أعنى القول بأننى أعيش هنا فى شقة مفروشة منذ 3 شهور ـ لكنى كنت غريباً بمعنى الكلمة فى هذه البلدة. كنت أكتب كتاباً عن جوانب محددة للمعمار على الطراز المغولى، ولهذا الغرض كان يجب أن أمكث فى هامبستد أو بلومزبرى أو ستريتهام أو تشيلسى، ولم أكن أهتم بالتواجد فى مدينة بعينها من هذه المدن. كنت أغض الطرف عما حولى عدا أدوات مهنتى. والحى الذى أقطن به لم أكن أكثرت له، وكأننى فى ملكوت خاص بى.

لكن فى هذه الليلة المحددة عانيت من إحدى النوبات المفاجئة لنبذ الكتابة وترك الورق والقلم، وهى نوبات يعرفها كل الكتاب وتنتابهم من حين آخر.

المعمار المغولى، أباطرة المغول، أسلوب حياة المغول ـ وكل القضايا المثيرة الأخرى بدت لى فجأة مجرد هراء فارغ. ما أهمية كل هذا؟ لماذا أردت الكتابة عن كل ذلك؟

مررت ببصرى عبر عدة صفحات متنوعة، وأعدت قراءة ما دونته، وبدا لى كله سيئًا ـ مكتوبًا بشكل ردئ ويخلو من أى إثارة. ربما كان من قال إن التاريخ هراء محقًا تمامًا (من صاحب المقولة؟ هنرى فورد؟).

ألقيت ما دونته بيدى بكراهية ومقت شديدين، ونهضت ونظرت إلى ساعتى، لقد اقترب الوقت من الحادية عشرة مساء. حاولت أن أتذكر هل تناولت العشاء أم لا... شعرت بإحساس داخلى أننى لم أتناوله، بل تناولت الغداء فى مطعم"أثينيوم" منذ وقت طويل.

توجهت للثلاجة وفحصت ما بداخلها ووجدت بقايا لسان مقطع إلى شرائح، ونظرت لها باستياء، ثم توجهت لشارع الملك وفى النهاية اتجهت لمقهى يعد الإسبرسو اسمه"لويجى" وكان الاسم مكتوبًا بلمبات نيون حمراء أعلى النافذة، وكنت أفكر فى تناول شطيرة اللحم بالموز بينما أتأمل الإيحاءات الشريرة لضجيج آلات العصر الحديث وتأثيرها على الجو العام.

كل هذه الأنواع من الضجيج يجمعها شىء مشترك مع ذكرياتى الأولى عن البانتومايم أو التمثيل الصامت. حيث يصل الممثل"ديفر جونز"من الدولاب وتتبعه سحب الدخان! الأبواب والنوافذ تبعث دخانًا يوحى بقوى الشر الجهنمية التى تتحدى الجنية الماسية الطيبة، أو أيًا كان اسمها، وهى بدورها تلوح بعصى سحرية منظرها غير ملائم، وتتحدث بشكل يوحى بالأمل بعبارات تقليدية مبتذلة عن أن الخير ينتصر فى النهاية على الشر، وهكذا تمهد للحظة التى لا مفر منها وهى"أغنية اللحظة"والتى لا علاقة لها بتمثيل البانتومايم الذى تم قبلها.

وجال بخاطرى فجأة فى هذه اللحظة أن الشر ربما يجب أن يكون بالضرورة أكثر إبهارًا من الخير، فعلى الشر أن يقوم بالعرض المثير لإظهار ذاته! يجب على الشر أن يخيف ويتحدى البشر! إنه حالة عدم الاستقرار التى تهاجم الاستقرار والركود، وفى النهاية يفوز الاستقرار دومًا كما أظن. الاستقرار يستمر وينجو من المحنة على الرغم من العبارات المبتذلة للجنية الطيبة الماسية وصوتها الأجوف وأبيات الشعر المنمق الموزون المقفى التى تتغنى بها، وحتى العبارة الجوفاء التى ليس لها علاقة بالعرض:"هناك طريق متموج أسفل التل، وسأتوجه عبره للمدينة القديمة التى أحبها". كلها أسلحة عقيمة أمام الشر، لكنها حتمًا تسود وتفوز عليه. كان عرض البانتومايم

ينتهى بالطريقة المعتادة؛ السلم ونزول فرقة التمثيل منه بترتيب الأقدمية والسن، والجنية الطيبة تتظاهر بالتواضع كخصلة دينية ولا تسعى لأن تكون الأولى (أو الأخيرة، كما فى هذه الحالة أبداً) بل تصل فى منتصف الموكب بجوار غريمها فى المسرحية، والذى لا يبدو الآن المارد المخيف الذى ينفث النار والكبريت، بل مجرد رجل عادى يرتدى زياً أحمر ضيقاً ملتصقاً تماماً بجسده.

جاءنى صوت فحيح آلة الإسبرسو مرة أخرى وأشرت للمضيفة بأن تحضر لى كوباً آخر، ثم نظرت حولى. كانت إحدى أخوتى تتهمنى دائماً بعدم كونى جيد الملاحظة، ولا أكترث لما يحدث حولى. كانت تقول متهمة إياى:"أنت تعيش فى ملكوت بمفردك". الآن تعمدت أن ألاحظ كل ما يحدث حولى. من المستحيل قراءة أى شىء عن المقاهى فى تشيلسى وأصحابها فى الجرائد يومياً، وهذه فرصتى لتقييم الحياة العصرية بنفسى.

كان الجو مظلماً، ولا ترى أى شىء بوضوح. كان معظم الزبائن من الشباب. خمنت بشكل غامض أنهم من الجيل غريب الأطوار. وبدت الفتيات قذرات كما تبدو لى دوماً هذه الأيام، ويرتدين ملابس ثقيلة أكثر من اللازم، وقد لاحظت ذلك عندما تناولت العشاء مع أصدقائى منذ بضعة أسابيع فى أحد المطاعم. كانت الفتاة الجالسة بجوارى فى حوالى العشرين من العمر. كان الجو حاراً فى المطعم، لكنها كانت ترتدى بلوفر صوفاً أصفر وتنورة سوداء وجوارب صوف سوداء، والعرق يتصبب على وجهها طوال وقت الوجبة، وكانت رائحتها تفوح بالعرق المختلط بالصوف، ورائحة شعرها القوية تدل على أنها لم تغسله منذ فترة طويلة. قال أصدقائى إنها جذابة، لكن ليس لى! كان رد فعلى الوحيد لرؤيتها هو إلقاؤها فى بانيو ماء ساخن وإحضار قالب صابون وحثها على الاستحمام! أظهر لى ذلك كم أنا منفصل عن الزمن من حولى، ربما بسبب أننى قضيت جزءاً كبيراً من حياتى خارج البلاد. تذكرت باستمتاع النساء الهنديات بعقصة شعورهن الجميلة السوداء الفاحمة والزى الهندى الخاص بهن (السارى) بألوانه الزاهية المثنية على منحنيات أجسادهن الرشيقة، وتمايل أجسادهن بإيقاع جذاب أثناء السير.....

أفقت من هذه الذكريات الحلوة بسبب ضجيج عال مفاجئ، كان هناك فتاتان على المائدة بجوارى بدأتا فى الشجار وحاول الشابان اللذان كانا معهما فض الاشتباك دون جدوى.

فجأة صرختا فى بعضهما البعض، وصفعت إحداهما الأخرى، وجرّت الثانية الأولى من على المقعد وتبادلا الضربات كبائعات السمك فى السوق وصرخن بصوت عال هيستيرى. كانت إحداهما لها شعر أحمر مبعثر والأخرى شقراء شعرها مقصف وغير جذاب.

لم أفهم سبب الشجار عدا السباب المتبادل، وصاح باقى الشباب على الموائد الأخرى

فى مرح وتشجيع.

"هيا يا فتيات! اسحقيها يا"لو"!".

جاء صاحب المقهى"لويجى" الإيطالى النحيل ذو السوالف، لكى يتدخل بصوت به لكنة أهل لندن السوقية.

"هيا الآن ـ انفصلا ـ انفصلا ـ سيجتمع كل من فى الشارع هنا فى أى لحظة، سيأتى رجل الشرطة. توقفا كما أقول".

لكن الشقراء النحيلة جذبت ذات الشعر الأحمر من شعرها بكل قوة وغضب وهى تصيح:

"لست سوى عاهرة تخطفين الرجال!".

"بل أنت العاهرة!".

قام لويجى والشابان اللذان كانا بصحبة الفتاتين المتشاجرتين بفض الاشتباك بين الفتاتين وإبعادهما عن بعضهما البعض، وكان فى يد الشقراء خصلات كبيرة من الشعر الأحمر، فحملتها بتشفٍ لأعلى ثم ألقتها على الأرض.

انفتح الباب المطل على الشارع فجأة ودخل رجال الشرطة بزيهم الأزرق ووقفوا على عتبة الباب ونطقوا بكل روعة وغرور الجملة البوليسية المعتادة:

"ماذا يجرى هنا؟".

فى الحال اتحد الجميع فى جبهة مشتركة أمام العدو.

قال أحد الشباب:"كنا فقط نستمتع بوقتنا قليلاً".

قال لويجى:"مجرد مزاح بين الشباب من الأصدقاء".

ركل لويجى خصلات الشعر بمهارة وخفة ليدسها تحت أقرب مائدة، وابتسمت الفتاتان المتشاجرتان لبعضهما البعض فى هدنة وعفو مزيف ومصطنع.

نظر رجال الشرطة للجميع فى شك وريبة.

قالت الشقراء برقة:"كنا على وشك الرحيل الآن، هيا يا دوج".

بمحض الصدفة غادر عدد كبير من الناس فى نفس اللحظة، وراقبهم رجال الشرطة بكآبة وفى عيونهم نظرة تدل على أنهم سيتغاضون عن الأمر هذه المرة لكنهم سيراقبونهم من الآن فصاعداً، وانسحب رجال الشرطة ببطء.

دفع مرافق الفتاة ذات الشعر الأحمر الفاتورة.

قال لويجى للفتاة التى كانت تعدل من وضع غطاء الرأس:"هل أنت بخير؟"لو"ضربتك بشدة وجذبت شعرك من جذوره".

قالت الفتاة بهدوء وعدم اكتراث:"لم يؤلمنى ذلك"ثم ابتسمت له قائلة:"آسفة على الشجار يا لويجى".

غادر الجميع المقهى وسارت خالية تمامًا الآن وبحثت فى جيبى عن بعض النقود لأسدد حسابى.

قال لويجى وهو يشاهد الباب يغلق دونها:"إنها فتاة متسامحة ولها روح رياضية حقًا". ثم أخذ مقشة وكنس خصلات الشعر الأحمر خلف المائدة المستطيلة.

قلت له:"ربما كان العراك بسبب ضغينة بينهما".

قال لويجى:"لو كنت مكانها لصرخت بأعلى صوتى، لكنها تتمتع بروح رياضية، لأن تومى متسامحة".

"هل تعرفها جيدًا؟".

"أوه، نعم فهى تأتى للمقهى كل ليلة تقريبًا. اسمها بالكامل"توماسينا تاكرتون" لكن اسم الشهرة" تومى تاكر" وهى ثرية ثراء فاحشًا وترك لها والدها ثروة طائلة، إن أردت معرفة القصة كلها، لكن ما الذى تفعله الفتاة؟ تأتى إلى تشيلسى وتعيش فى حجرة فى حى عشوائى فقير فى طريق كوبرى واندورث وتتسكع مع مجموعة شباب يفعلون نفس الأشياء دائمًا. لا أفهم سر ذلك، لكن نصف الحضور هنا من الأثرياء، ويمكنهم شراء كل ما تشتهيه أنفسهم مهمًا كان، ويمكنهم الجلوس فى مطعم وفندق ريتز الشهير إن أرادوا ذلك، لكنهم يحصلون على الإثارة المطلوبة فى حياتهم بأن يعيشوا كما يريدون. إنه لأمر محير حقًا".

"ألن يكون ذلك اختيارك أيضًا؟".

"كلا بالطبع، مازلت أحتفظ بعقلى! إن اغتنيت سأحيا حياة الأثرياء".

نهضت لأنصرف وسألته عن سبب الشجار.

"أوه، تومى استحوذت على صديق الفتاة الأخرى، لكنه لا يستحق العراك من أجله، صدقنى!".

قلت له:"لكن الفتاة الأخرى تظنه يستحق".

قال لويجى بشكل متسامح:"لو فتاة رومانسية".

لم تكن تلك فكرتى عن الرومانسية لكن لم أقل له ذلك.

2

مر أسبوع تقريباً ثم وجدت بالصدفة اسماً فى صفحة الوفيات جذب انتباهى فى جريدة التايمز.

تاكرتون. فى الثانى من أكتوبر توماسينا تاكرتون بمستشفى فالوفيلد فى آمبرلى، وهى الابنة الوحيدة لتوماس تاكرتون الراحل والبالغة من العمر 20 عاماً، وعزبته هى كاريجتون بارك فى آمبرلى فى مقاطعة "سارى"، والجنازة خاصة ولا داعى لإرسال الزهور.

3

لا زهور لتومى تاكر المسكينة، ولا مزيد من الإثارة من الحياة فى تشيلسى. شعرت بشفقة مؤقتة سرعان مازالت نحوها ونحو مثيلاتها من الفتيات فى عالم اليوم، فعلى أية حال لا أعلم هل رأيى صحيح أم لا؟ من أنا لأقول إن حياتهم مهدرة بلا طائل؟ ربما كانت حياتى أنا مهدرة وضائعة. حياتى الدراسية الهادئة وانغماسى فى الكتب وانعزالى عن العالم الخارجى، هى الحياة البائسة الضائعة حقاً. إنها حياة بدون ممارسة فأنا أكتفى بالمشاهدة من الخارج فقط. لأكن صريحاً الآن، هل أستمتع بحياتى؟ يا لها من فكرة غير مألوفة! لم أفكر من قبل فى الاستمتاع بالحياة لكن ربما يجب أن أفكر فى ذلك؟ شعرت بالوحشة وعدم الرغبة فى التفكير فى ذلك الآن.

طردت تومى تاكر من تفكيرى واتجهت لمراسلاتى وقراءة البريد الوافد والرد عليه.

كان أهم خطاب من ابنة عمى "رودا ديسبارد" تطلب منى خدمة. شعرت أنه بما أن ليس لدى رغبة فى العمل اليوم سيكون هذا الأمر عذراً رائعاً لتأجيل العمل.

خرجت لشارع الملك وأشرت لسيارة أجرة أقلتنى لمنزل إحدى صديقاتى، السيدة "أريانى أوليفر".

كانت السيدة أوليفر كاتبة روايات بوليسية شهيرة، وخادمتها ميلى كانت بمثابة التنين المرعب الذى يراعى عمله جيداً فى حراسة مولاته من هجمات العالم الخارجى.

رفعت حاجبى فى تساؤل بلا أى صوت، وأومأت لـ "ميلى" بكل قوة وقالت:

"يجدر بك أن تصعد إليها يا سيد مارك، إنها فى حالة مزاجية سيئة منذ الصباح، وقد تخرجها من هذه الحالة".

صعدت السلم سريعاً ثم طرقت الباب بخفة ودخلت دون انتظار الإذن بالدخول. كانت حجرة مكتب السيدة أوليفر كبيرة وفسيحة، وورق الحائط مرسوم عليه طيور نادرة

وحولها نباتات مدارية وأعشاش. كانت السيدة أوليفر نفسها فى حالة تقترب من حافة الجنون بشكل ظاهر، وكانت تسير جيئة وذهاباً عبر أرضية الحجرة وتتمتم لنفسها. نظرت نحوى نظرة عابرة بلا اكتراث وواصلت سيرها، وكانت عيناها غير مركزتين وتمسح الحوائط ببصرها ثم تطل من النافذة، وأحياناً تنتابها نوبة ألم نفسى فتنكمش على نفسها.

صاحت فجأة:"لكن لماذا! لماذا لم يقل هذا الأحمق على الفور إنه رأى بغبغاء الكوكاتو؛ لماذا لم يقل ذلك؟ لم يكن بوسعه عدم رؤيته! لكنه إن ذكر ذلك سيدمر كل شىء... يجب أن يكون هناك حل...".

ثم صاحت فى ضجر ومررت أصابعها عبر خصلات شعرها القصير الرمادى وجذبت شعرها بيد محمومة من الغضب، ثم نظرت نحوى فجأة بعينين مركزتين وقالت:"أهلاً يا مارك، أنا على وشك الجنون"ثم واصلت بث شكواها:

"وهناك مونيكا، كلما حاولت أن أجعلها لطيفة تصبح أكثر إزعاجاً... يالها من فتاة غبية... تظن نفسها ذكية وواثقة من نفسها أيضاً! مونيكا... مونيكا؟ الاسم قد لا يكون مناسباً. ماذا لو أسميتها نانسى؟ هل هذا سيكون أفضل؟ جوان؟ إنه اسم معتاد وشائع، وكذلك آن، سوزان، سوزان كتبته فى رواية سابقة، لوتشيا؟ لوتشيا؟ نعم اسم مناسب، وسيكون شعرها أحمر، وترتدى بلوفر له عنق طويل... ورداء أسود ضيقاً؟ وجوارب سوداء أيضاً...".

هذا البريق المؤقت لمشكلة تأليف تم حلها سرعان ما خفت بسبب تذكرها لمشكلة بغباء الكوكاتو فواصلت السيدة أوليفر سيرها المحموم البائس وكانت تلتقط الأشياء من المائدة وهى شاردة الذهن وتتركها فى مكان آخر، ووضعت نظارتها بحرص فى علبة مصقولة تحتوى بالفعل على مروحة صينية، ثم تنهدت بعمق وقالت:

"سررت برؤيتك".

"هذا لطف منك"

"خشيت أن يزورنى شخص آخر غير مرغوب فيه، مثل سيدة سخيفة تريد أن أفتتح متجراً يخصها أو الرجل المزعج الذى يريد لخادمتى ميلى أن تحصل على بطاقة تأمين بينما هى ترفض فى إصرار ـ أو السباك (ولكن حضور ذلك الشخص بالذات أمر بالغ السوء، أليس كذلك؟) أو صحفى يريد إجراء حوار معى ـ ويوجه لى الأسئلة المحرجة المتكررة دوماً فى كل مرة. ما الذى جعلك تتجهين للكتابة؟ كم كتاباً قمت بتأليفه؟ ما كم المال الذى تربحينه؟ إلخ إلخ إلخ. إننى لا أعرف الإجابة عن أى سؤال منها مما يجلعنى أبدو حمقاء، وكل ذلك لا يهم الآن لأننى على حافة الجنون بسبب مسألة ببغاء الكوكاتو".

قلت لها بتعاطف:"المسألة تزداد غموضاً ولا تتضح؟ ربما يجدر بى الرحيل الآن".

"كلا لا ترحل، فعلى أية حال أنت وسيلة لإلهائى عن الجنون".

قبلت تلك المجاملة المشكوك فى صدقها ونوايا قائلتها.

قالت السيدة أوليفر بكرم ضيافة مصطنع:"هل تريد سيجاراً، لدى بعض السجائر فى مكان ما، ابحث تحت غطاء الآلة الكاتبة".

"لدى سجائرى، شكراً لك، تناولى واحدة منى، ياه نسيت أنك لا تدخنى".

قالت:"ولا أشرب المثلجات. كنت أتمنى لو أدمن أيا منهما، مثل المخبرين والمحققين الأمريكيين ممن يدمنون المثلجات ولديهم كميات ضخمة منها فى منازلهم، وكأنها طريقة مثالية لحل كل المشاكل الخاصة بهم. هل تعلم يا مارك، لا أعلم كيف يرتكب أحد جريمة قتل كاملة ويهرب من العقاب فى الحياة الواقعية. يبدو لى أنه كلما ارتكب شخص ما جريمة قتل يبدو الأمر واضحاً جلياً".

"هراء، لقد كتبت روايات كثيرة بها جرائم معقدة وغامضة".

قالت السيدة أوليفر:"كتبت حوالى خمس وخمسين رواية على الأقل، وكان الجزء الخاص بارتكاب الجريمة فيها سهلاً وبسيطاً لكن إضفاء الغموض على الجريمة هو الصعب، أعنى لماذا ينبغى اتهام الجميع عدا الراوى مع أنه واضح وبارز جداً؟".

قلت لها:"ليس فى مقالة منتهية".

قالت بكآبة:"نعم لكن ذلك ما يضايقنى، قل ما تريد لكن ليس من الطبيعى أن يتواجد خمسة أو ستة أشخاص فى موقع ارتكاب الجريمة وقت حدوثها وكلهم لديهم دوافع لقتل الضحية ـ إلا إذا كان القتيل بشعاً للغاية ولن يكترث أحد لقتله، ولا بمعرفة قاتله".

قلت لها:"أتفهم مشكلتك، لكن إن تعاملت مع تلك المشكلة جيداً فى خمس وخمسين رواية سابقة، فسوف تتمكنين من التغلب عليها هذه المرة أيضاً".

قالت لى:"هذا ما قلته لنفسى مراراً وتكراراً، لكنى فى كل مرة لا أصدق ولذلك أنا أعانى من ألم نفسى كبير".

شدت شعرها بعنف مرة أخرى.

صحت بها:"لا تفعلى ذلك! ستقتلعينه من جذوره".

قالت لى:"هراء، إن شعرى قوى، على الرغم من إصابتى بالحصبة فى سن الرابعة عشرة وارتفاع درجة حرارتى وتساقط شعرى من حول الجبهة. كان أمراً مخزياً

ومحرجًا. ولم ينم بالكامل إلا بعد مرور 6 شهور. شىء مروع لأى فتاة ـ كل الفتيات لا تحب تساقط الشعر. فكرت فى ذلك بالأمس عندما زرت مارى دى لافونتين فى المستشفى، وكان شعرها يتساقط مثلما حدث معى، وقالت إنها ستضطر إلى ارتداء باروكة عندما تتحسن صحتها، فربما لا ينمو الشعر بعد الستين".

قلت لها:"رأيت فتاة شدت شعر فتاة أخرى من جذوره ليلة البارحة". شعرت فى صوتها بنبرة فخر كمن رأى الحياة وخرج من عزلته.

قالت لى:"أى الأماكن الغريبة التى تتردد عليها لترى هذا؟".

"مقهى فى تشيلسى".

صاحت:"أوه تشيلسى! كل شىء يحدث هناك، وهناك جيل غريب الأطوار منقسم لجماعات وكل جماعة لها اسم، وأنا لا أكتب عنهم لأننى أخشى استخدام الأسماء بشكل خاطئ، ويفضل أن تتمسك بما تعرفه".

"مثل ماذا؟".

"الناس فى رحلات بحرية ونهرية، وفى الفنادق والمستشفيات وما يحدث بها واجتماعات العمل فى الشركات ـ والاحتفالات والمهرجانات الموسيقية، والبائعات فى المتاجر واللجان والنساء فى الحياة اليومية، والشباب والفتيات ممن يطوفون حول العالم لاهتمامات علمية، والبائعون فى المتاجر و...".

ثم توقفت لتلتقط أنفاسها.

قلت لها:"إنه لأمر ضخم وشامل هذا الذى تتعاملين معه".

قالت بحزن:"على أية حال، يجب أن تصحبنى فى يوم ما لهذا المقهى فى تشيلسى لتوسعة أفق

تجاربى".

"فى أى وقت تريدينه. ماذا عن الليلة؟".

"كلا، ليس الليلة، أنا مشغولة إما بالكتابة أو بالقلق لعدم قدرتى على الكتابة. هذا أكثر شىء متعب ومزعج فى عالم الكتابة ـ لكن كل شىء فيه متعب طبعًا عدا اللحظة التى تجد فيها فكرة رائعة ثم تنتظر على أحر من الجمر لتكتبها. أخبرنى يا مارك، هل تظن أنه من الممكن قتل شخص ما بجهاز التحكم عن بُعد؟".

"ماذا تقصدين بجهاز التحكم عن بُعد؟ أضغط على الزر فتنطلق أشعة ذرية قاتلة بالإشعاع؟".

"كلا ليس خيالاً علمياً"ثم توقفت وقالت بشك:

"أعنى السحر الأسود".

قلت لها:"تماثيل شمعية صغيرة توخز بالإبر؟".

قالت لى باحتقار:"لقد صارت حيلة قديمة الآن، لكن هناك أشياء غريبة جداً تحدث ـ فى أفريقيا وجبال الإنديز الغربية. هناك من يقولون ذلك وأن هناك أهالى ينكمشون على أنفسهم ويموتون فجأة بدون سبب ظاهر ـ باستخدام السحر مثل الفودو ـ أو الجوجو.... على أية حال لابد أنك فهمت مقصدى".

قلت لها إن ذلك يعزى فى هذه الأيام لقوة الإيحاء، حيث تنتقل الأخبار للضحية بأن موته قد حدده الطبيب مثلاً ـ وعقله الباطن يتولى الباقى".

زفرت السيدة أوليفر فى ضيق ثم قالت:

"إن لمح لى أحدهم بأننى سأسقط ميتة فجأة، سأستمتع بمخالفة توقعاته!".

ضحكت على تلك العبارة.

قلت لها:"لديك شك غربى يسرى فى دمك منذ قرون لا يتزحزح أبداً".

"أتظن إذن أن ذلك يمكن أن يحدث؟".

"لا أستطيع التأكيد أو النفى لأننى لا أعرف الكثير عنه بما يكفى، وما الذى أدخل هذه الفكرة فى رأسك؟ هل تحفتك الروائية التالية عن القتل بالإيحاء؟".

"كلا بالطبع، يكفينى الموضة القديمة للقتل مثل استخدام سم الفئران أو الزرنيخ، أو آلة ضخمة غير حادة. لكن بدون أسلحة نارية، فهى خادعة. لكنك لم تأت لى لتتحدث عن رواياتى".

"بصراحة كلا، الحقيقة أن ابنة عمى روداد يسبارد لديها احتفال خيرى و...".

صاحت السيدة أوليفر:"مستحيل مرة أخرى! أتعلم ما حدث لى آخر مرة؟ رتبت فى الاحتفال مسابقة تعقب القاتل وأول شىء حدث هو اكتشاف جثة حقيقية، ولم أتعاف من هذه الصدمة حتى الآن!".

"الأمر ليس هكذا، بل كل ما ستفعلينه هو الجلوس فى خيمة وتقومين بإمضاء اسمك على كتبك المباعة ـ وكل توقيع مقابل 5 شلنات".

قالت بشك:"حسناً، قد تكون تلك فكرة جيدة، لكنى لن أفتتح الحفل الخيرى، ولن ألقى خطاباً، ولن أرتدى قبعة".

أكدت لها أنه لن يحدث شىء من هذا القبيل ولن يطلب منها.

قلت لها محاولاً استمالتها:"وهذا الأمر سيستمر ساعة أو ساعتين، وبعد ذلك ستكون هناك مباراة كريكيت ـ كلا، ليس فى هذا الوقت من العام، ربما يرقص الأطفال أو تحدث مسابقة أغرب زى فى حفل تنكرى أو...".

قاطعتنى بصرخة عالية.

ثم صاحت:"هذا هو الحل! كرة الكريكيت!

بالطبع! يراها من النافذة ترتفع لأعلى... وهذا يشتت انتباهه ـ ولا يتذكر أمر طائر الكوكاتو! أنا سعيدة لأنك حضرت الآن يا مارك كنت رائعًا".

"لا أفهم...".

"ربما، لكنى أفهم، الأمر معقد ولا أريد إهدار الوقت فى الشرح، كان من دواعى سرورى أن أراك اليوم، لكنى أريدك أن تغادر منزلى الآن، حالاً".

بالتأكيد وماذا عن الاحتفال الخيرى...؟".

"سأفكر بالأمر، لا تزعجنى الآن. والآن أين وضعت نظارتى يا ترى؟ شىء غريب جداً أن تختفى الأشياء هكذا...".

الفصل الثانى

1

فتحت السيدة جيراتى باب دار العبادة بأسلوبها المعتاد الحاد وكأنها تفتحه ليس كاستجابة للجرس الذى يدق، بل بأسلوب مناورة ماهرة منتصرة وكأنها تقول: "أمسكت بك أيها الباب هذه المرة!".

صاحت بشراسة: "حسنًا ماذا تريد الآن؟".

كان أمامها على عتبة الباب فتى صغير ضئيل الحجم ـ لا تميزه العين للوهلة الأولى ولا يعلق بالذاكرة بسهولة ـ فتى ككثير من الفتيان الآخرين. كان يتنفس بصوت ظاهر لأنه مصاب بنوبة برد، وقال:

"هل هذا مقر السيد ـــــــــ؟".

"هل تريد السيد جورمان؟".

"بل هو المطلوب".

"من يطلبه، وأين، ولماذا؟".

"رقم 23 شارع بنثول، تقول إحدى السيدات إنها تحتضر وأرسلتنى السيدة كوبنز لإحضاره".

وأخبرته السيدة جيراتى أن ينتظر ودلفت إلى الداخل، وبعد ثلاث دقائق تقريباً جاء رجل طويل القامة وهو يحمل حقيبة جلدية صغيرة فى يده.

قال: "أنا جورمان. شارع بنثول؟ سنمر عبر ساحة السكة الحديد، أليس كذلك؟".

قال الفتى: "هذا صحيح، المكان قريب جداً، أليس كذلك؟".

سارا معاً وكان جورمان يسير بخطوات كبيرة وواسعة.

"هل الاسم الذى ذكرته هو السيدة كوبنز؟".

"نعم هى صاحبة الفندق وتؤجر حجراته، وإحدى النزيلات تحتاج إليك واسمها السيدة ديفيز على ما أظن".

"ديفيز، أتساءل لو.... لا أذكر...".

"إنها تعرفك ولقد طلبتك بالاسم".

أومأ له جورمان ووصلا للشارع المطلوب بعد وقت قصير جداً وأشار الفتى إلى مبنى عالٍ قذر فى صف مبان عالية قذرة بجواره.

"هذا هو المكان".

"ألن تدخل معى؟".

"لا أعمل هنا، بل أعطتنى السيدة كوبنز شلناً لأنقل لك هذه الرسالة".

"فهمت، ما اسمك؟".

"مايك بوتر".

"شكراً يا مايك".

"العفو "، ثم انطلق الفتى وهو يصفر.

كان احتضار شخص ما شيئاً لا يؤثر فيه.

فتح باب العقار رقم 23 ووقفت على عتبة الباب السيدة كوبنز، وهى سيدة بدينة ذات وجه أحمر وألقت التحية على الزائر بكل حماس.

"تفضل بالدخول، حالتها سيئة جداً فى رأيى، ويجب نقلها للمستشفى. اتصلت بالإسعاف ولا نعرف متى سيأتى هذه الأيام، فعندما كسر ساق زوج أختى جاءت الإسعاف بعد ست ساعات. إنه لأمر مشين فى رأيى. يالها من خدمة صحية حقاً! إنهم يأخذون الأموال، لكن حينما تحتاجهم لا تجدهم.

كانت تسبق السيد جورمان على السلم الضيق وهى تتحدث وهو يتبعها مباشرة.

قال: "ما خطبها؟".

"ألمت بها نزلة برد قوية، وبدا عليها التحسن، ربما استعجلت الخروج ولذلك أصيبت بانتكاسة. على أية حال لقد عادت ليلة أمس شاحبة كالموتى، ولازمت فراشها، ولم تتناول أى شىء ولم ترغب فى إحضار الطبيب، ثم وجدتها هذا الصباح وقد أصابتها الحمى القوية وتسللت إلى رئتيها".

"التهاب رئوى؟".

شهقت السيدة كوبنز من فرط المجهود البدنى وصدرت من فمها وأنفها أصوات كالمحرك البخارى توضح أنها توافقه الرأى، ثم فتحت الباب بسرعة وتنحت جانباً

ليدخل السيد جورمان، وقالت وهى تقف خلفه: "إليك يا سيدتى السيد المبجل، والآن ستكونين على ما يرام!". قالت ذلك بشكل مرح مصطنع ثم تركت الحجرة.

تقدم السيد جورمان، وكانت الحجرة مفروشة بأثاث فيكتورى قديم الطراز، وكانت نظيفة ومرتبة، وكانت السيدة ديفيز مستلقية على الفراش بجوار النافذة وأدارت رأسها بضعف. كانت مريضة جداً كما اتضح للسيد جورمان من الوهلة الأولى.

قالت وهى تشهق من حين لآخر: "لقد حضرت.. لم يبق لى وقت طويل ـ يا للإثم... يا للشر الفظيع... يجب... يجب... لا يمكن أن أموت هكذا ـ... أريد أن أعترف... أعترف بخطيئتى ـ... خطيئتى الكبرى البشعة.... "ثم زاغت عيناها وأغلقتها نصف إغلاقة.

جاءت الكلمات من فمها كالهدير على نغمة واحدة.

اقترب السيد جورمان من الفراش وتحدث بنفس العبارات المعتادة التى كررها فى مثل هذه المواقف كثيراً ـ مراراً وتكراراً. كلمات رجال الدين التى تبث الطمأنينة فى القلوب... ثم حلت السكينة فى الحجرة... وذهب الألم من العينين المعذبتين.

بعد أن انتهى الرجل من كلامه، قالت المرأة المحتضرة:

"يجب... يجب أن يتوقف... ستفعل ذلك....".

قال لها بصورة مطمئنة:

"سأفعل ما يلزم، ثقى بى...".

حضر الطبيب والإسعاف معاً فى نفس الوقت بعد ذلك بقليل، واستقبلتهم السيدة كوبنز بكآبة وشماتة:

"فات الأوان كما هو معتاد! لقد ماتت...".

2

سار السيد جورمان فى طريق عودته فى ضوء الشفق الذى ظهر عند المغيب. كانت هذه الليلة تنذر بتجمع الضباب، وكانت كثافته تزداد بسرعة. توقف هنيهة وهو عابس. يا لها من قصة عجيبة جداً... بالتأكيد معظمها من نتاج الهذيان والحمى. بالطبع كان بعضها صحيحاً ـ لكن إلى أى مدى؟ على أية حال كان من المهم أن يقوم بتدوين بعض الأسماء بعينها وهى مازالت حاضرة فى ذاكرته. اتجه فجأة نحو مقهى صغير، وطلب كوباً من القهوة وجلس، وتحسس جيب عباءته السوداء. ياه، لقد طلب من السيدة جيراتى أن تحيك بطانة العباءة، وكالمعتاد لم تفعل! لقد دخل دفتره وقلمه وبعض

العملات التى يحملها معه فى داخل البطانة، فأخرج عملتين والقلم لكن كان من الصعب استخراج الدفتر الصغير. جاءت القهوة وطلب أيضاً ورقة.

"أتفى تلك بالغرض؟".

كانت ورقة ممزقة من كيس ورقى، فأومأ السيد جورمان بالموافقة وأخذها وبدأ يكتب ـ الأسماء ـ وكان من المهم ألا ينساها، وخاصة أن أكثر شىء ينساه هو الأسماء.....

فتح باب المقهى ودخل ثلاثة شبان يرتدون أزياء على الطراز الإدواردى وجلسوا يتحدثون بصخب.

انتهى السيد جورمان من كتابة مذكرته وطوى الورقة وهم بوضعها فى جيبه لكنه تذكر الثقب فى جيبه، فما كان منه إلا أن فعل ما اعتاد عليه من قبل ووضع الورقة المطوية فى حذائه.

جاء رجل إلى المقهى فى هدوء وجلس فى الركن البعيد الهادئ. احتسى السيد جورمان رشفة أو رشفتين من القهوة الخفيفة من باب الأدب، واستدعى النادل ليدفع الحساب ثم نهض وخرج.

بدا على الرجل الذى دخل للتو أنه غير رأيه ونظر إلى ساعته وكأنه أخطأ التوقيت ونهض وخرج مسرعاً.

كان الضباب يتكون سريعاً وأسرع السيد جورمان فى خطواته، وكان يعرف الحى جيداً ويعرف طريقه وسط الضباب، وسلك طريقاً مختصراً فى شارع ضيق جانبى بالقرب من السكة الحديد، ربما شعر بالخطوات الحثيثة من خلفه لكنه لم يكترث لها، فلماذا يكترث لها؟

باغتته ضربه الهراوة على حين غرة وانحنى للأمام وسقط ...

3

سار د. كوريجان وهو يصفر لحناً قديماً مألوفاً نحو حجرة مكتب المحقق والمفتش لوجون وهو ينوى الثرثرة معه.

قال له: "لقد فحصت جثة السيد جورمان".

"والنتيجة؟".

سأوفر عليك الألفاظ والمصطلحات التقنية، دعها لتقرير الطبيب الشرعى. لقد مات الرجل من ضربات الهراوة الشديدة، ربما قتلته أول ضربة، لكن القاتل تأكد من موته

بتوجيه عدة ضربات أخرى، يا له من عمل قذر للغاية".

قال لوجون: "نعم".

كان رجلاً قوى البنية وشعره أسود وعيناه رماديتان، ولديه سلوك هادئ وحركة هادئة خادعة، لكن كانت إيماءاته وحركاته أحيانًا سريعة ومعبرة جدًا بشكل يثير الدهشة مما يفصح عن أصوله الفرنسية لأنه من مدينة "هوجنو".

قال وهو يفكر:

"قذرة لدرجة أكثر من اللازم للسرقة؟".

قال الطبيب: "هل كانت عملية سرقة؟".

"هذا مجرد افتراض، لقد كانت جيوبه مفرغة للخارج ورداءه ممزقًا وخاصة من ناحية البطانة".

قال كوريجان: "لم يكن القاتل ليتوقع سرقة الكثير من رجل دين، فمعظمهم يعيشون فى تقشف وفقر مدقع".

قال لوجون: "لكن اللص حطم رأسه بعدة ضربات ليتأكد من موته ـ وأتساءل عن السبب".

قال كوريجان: "هناك احتمالان. أن تكون الجريمة بفعل شاب شرير وعنيف يحب العنف كهدف فى حد ذاته ـ فهناك الكثيرون من هذا النوع هذه الأيام للأسف".

"والاحتمال الآخر؟".

هز الطبيب كتفيه بلا اكتراث، مضيفًا:

"أراد أحدهم الانتقام لسبب ما من السيد جورمان لأنه ناقم منه. هل هذا محتمل؟".

هز لوجون رأسه وقال:

"غالبًا هذا هو الاحتمال الأقرب إلى الخطأ، لقد كان رجلاً يحظى بشعبية كبيرة ويحبه أهل الحى، ولم يكن له أعداء، وفقًا لما سمعناه من الناس، وغالبًا احتمال السرقة غير وارد، إلا إذا ـــــــــ".

قال كوريجان: "إلا إذا ماذا؟ هناك دليل لدى الشرطة! هل أنا محق؟".

بل كان معه شىء لم يسرق، كان فى حذائه، فى الواقع".

صفر كوريجان فى دهشة وقال:

"تبدو كقصة جاسوس".

ابتسم لوجون وقال:

"الأمر أبسط من ذلك بكثير، كان هناك ثقب فى جيبه، وتحدث المفتش باين إلى مديرة المنزل وبدت أنها مهملة قليلاً ولم ترتق ملابسه المثقوبة كما يجب، واعترفت بأن ذلك حدث عدة مرات؛ أى أن السيد جورمان كان يضع الأوراق أو الخطابات فى حذائه ـ حتى لا تدخل فى بطانة الرداء".

"والقاتل لم يعرف ذلك؟".

"لم يخطر ذلك بباله أبدًا! ونحن نفترض أنه كان يريد هذه الورقة التى وجدناها فى الحذاء ـ وليس مبلغًا صغير من النقود".

"ما محتويات هذه الورقة؟".

فتح لوجون درج مكتبه وتناول قطعة الورق الرفيعة المكرمشة وقال:

"إنها مجرد قائمة أسماء".

نظر إليها كوريجان بفضول:

ارميرود

ساندفورد

باركينسون

هيسكيث ـ دوبوا

شو

هارموندزورث

تاكرتون

كوريجان؟

دولافونتين؟

ارتفع حاجبا كوريجان وقال:

"ماذا؟ اسمى فى القائمة!".

قال المحقق: "هل تعرف باقى الأسماء".

"لا أعرف أيا منهم".

"ولم تعرف السيد جورمان من قبل؟".

"أبداً".

"إذن لن تتمكن من مساعدتنا كثيراً".

"هل لديك أى فكرة عن معنى القائمة ـ إن كان لها معنى؟".

لم يجب لوجون مباشرة:

"استدعى غلام صغير السيد جورمان فى حوالى الساعة السابعة مساءً، وقال إن هناك امرأة تحتضر وأرادت رجل دين وذهب السيد جورمان إليها.

"أين؟ إن كنت تعرف".

"نعرف تماماً، ولم تستغرق معرفة ذلك وقتًا. 23 شارع بنثول وهو فندق صغير تملكه سيدة تدعى كوبنز، والمرأة التى كانت تحتضر هى السيدة ديفيز، وتوجه إليها جورمان فى الساعة السابعة والربع مساءً ومكث معها حوالى نصف ساعة وماتت قبل وصول الإسعاف لنقلها للمستشفى".

"فهمت".

"ثم سمعنا أن السيد جورمان ذهب لمقهى صغير يدعى مقهى "تونى "، وهو مقهى محترم لا يأوى إليه المجرمون، ويقدم مشروبات رديئة وزبائنه قليلون. طلب السيد جورمان كوباً من القهوة، ثم تحسس جيوبه ولم يجد ما يريد وطلب من تونى صاحب المقهى ورقة، هذه هى الورقة "، وأشار إليها بأصبعه.

"وبعد ذلك؟".

ثم أحضر تونى القهوة وكان جورمان يكتب على الورقة وغادر المقهى بعد قليل وترك القهوة دون أن يشربها (لا ألومه على ذلك) وانتهى من كتابة القائمة ووضعها فى حذائه".

"هل كان هناك زبائن فى المقهى غيره؟".

"ثلاثة شباب من الجيل الجديد من جماعة ما، دخلوا وجلسوا على مائدة أخرى ورجل كبير السن دخل وجلس على مائدة أخرى وخرج دون أن يطلب شيئاً".

"هل اتبع رجل الدين؟".

"ربما. لم يلاحظ تونى خروجه، ولم يهتم بشكله، ووصفه بأنه رجل يبدو محترماً وغير ملفت للأنظار وعادى مثل أى رجل فى الشارع، ومتوسط الطول ويرتدى معطفاً أزرق داكناً ـ أو بنى اللون. كانت ملامح الرجل تدل على أنه ليس أبيض ولا أسمر جداً. لا دليل على أنه تتبع رجل الدين وقتله؛ لسنا متأكدين. لم يقل تونى شيئاً يؤكد

هذا التخمين، وطلبنا من أى شخص رأى السيد جورمان بين الساعة 7:45 و 8:15 أن يخبرنا. لم يستجب سوى شخصين حتى الآن: سيدة وصيدلى له صيدلية قريبة. سأتوجه إليهما لاستجوابهما بعد قليل. وجدت الجثة الساعة 8:15 بواسطة ولدين صغيرين فى شارع "ويست "ـ هل تعرفه؟ ربما حارة صغيرة، على جانبها السكة الحديد ـ وأنت تعلم باقى وقائع الجريمة".

أومأ له كوريجان ونقر على الورقة بأصبعه وقال:

"ما رأيك فى هذه الورقة الغريبة؟".

قال لوجون: "أعتقد أنها مهمة".

قال كوريجان: "باحت له المرأة التى كانت تحتضر بشىء ما، ولذلك ربما دون هذه الأسماء على ورقة بمجرد أن خرج حتى لا ينساها ـ يبقى شىء واحد، هل كان سيفعل ذلك إن كان قد سمع ما سمعه كاعتراف من مذنبة خاطئة لرجل دين؟".

قال لوجون: "لا أظن أنها أطلعته على شىء ليحتفظ به سراً، بل مثلاً لنفترض أن الأسماء كانت متعلقة بعملية ابتزاز".

"هل هذه فكرتك؟".

"لم أكون أفكارى بعد، بل هذا مجرد افتراض. هؤلاء الناس مثلاً تعرضوا للابتزاز، وربما المرأة المحتضرة كانت من يبتزهم، أو تعلم شيئًا ما عن عملية الابتزاز، وربما أرادت التوبة والتفكير بالاعتراف بالخطايا أو ربما حاولت إصلاح ما أفسدته قدر المستطاع، وتولى السيد جورمان مسئولية ذلك".

"وبعد ذلك؟".

قال لوجون: "كل شىء آخر مجرد افتراضات. ربما كان المبتز يأخذ أموالاً كثيرة ممن يبتزهم ولم يرغب فى إنهاء تدفق المال عليه وعلم أن السيدة ديفيز تحتضر وأرسلت فى طلب حضور رجل دين، ثم حدث ما حدث".

قال كوريجان وهو يفحص الورقة: "أتساءل الآن، ما سبب وجود علامتى استفهام بعد آخر اسمين؟".

"ربما لم يكن الأب جورمان متأكداً من تذكر هذين الاسمين بشكل صحيح".

قال الطبيب مبتسماً فى موافقة: "ربما كان الاسم موليجان وليس كوريجان، وهذا محتمل جداً، لكن اسم مثل دولافونتين إما أن تتذكره أو لا، فلا يوجد اسم مشابه له كما تعرف. من الغريب أنه لا يوجد أى عنوان... "قرأ القائمة مرة أخرى.

"باركينسون، هناك الكثيرون يحملون هذا الاسم، ساندفورد، اسم غير شائع ـ

هيسكيث ـ دوبوا اسم طويل ومُركّب، وغير شائع بالمرة".

فجأة مال للأمام نحو دليل الهاتف وتناوله من

المكتب.

من حرف (E) إلى (L)، لنرى، هيسكيث،

السيدة... شركة جون وشركاه للسباكة... السير

ايزيدور. أه! ها هو! السيدة "هيسكيث ـ دوبوا "العنوان 49 ميدان اليزمير فى الجنوب الغربى، هلا اتصلنا بها؟".

"ما الذى سنقوله لها؟".

قال دكتور كوريجان بمرح وحماس: "سيأتيك الوحى والإلهام حينها".

قال لوجون: "إذن اتصل بها أنت".

حدق إليه كوريجان: "ماذا؟".

قال لوجون بحماس وبهجة: "قلت اتصل بها

أنت، لا تندهش أو تجفل هكذا". ثم التقط السماعة وقال للسكرتيرة: "أوصلينى بالخط الخارجى "ثم نظر إلى كوريجان وقال: "أعطنى الرقم".

"مقاطعة جروسفنور 64578".

كرر لوجون ما سمعه، ثم أعطى السماعة لكوريجان بعد أن طلب الرقم وقال له:

"تول هذا الأمر وتمتع به".

شعر كوريجان بالحيرة ونظر إلى لوجون أثناء انتظاره. استمر الرنين لفترة حتى رفع الطرف الآخر السماعة ثم قالت سيدة وكلامها تتخلله شهقات التنفس:

"جروسفنور 64578".

"هل السيدة هيسكيث ـ دوبوا موجودة بالمنزل؟".

"حسنًا ـ أعنى، نعم".

تجاهل د. كوريجان ترددها وشكها وقال:

"هل يمكننى التحدث إليها من فضلك؟".

"كلا، لا يمكنك! لقد ماتت فى أبريل

الماضى!".

صاح د. كوريجان فى دهشة "أوه! "وتجاهل أن يسألها من المتحدث ووضع السماعة.

نظر كوريجان إلى المفتش لوجون ببرود وقال:

"إذن هذا هو السبب وراء جعلى أنا أتصل بها".

ابتسم لوجون بخبث وقال:

"نحن لا نتجاهل ما هو واضح حقًا".

قال كوريجان وهو يفكر: "أبريل الماضى أى منذ خمسة شهور، أى خمسة شهور منذ الابتزاز أو مهما كان ما يقلقها. لا أظنها انتحرت أو شيئًا من هذا القبيل؟".

"كلا، ماتت بسبب ورم فى المخ".

قال كوريجان وهو ينظر إلى القائمة: "إذن هيا نبدأ من جديد".

تنهد لوجون وقال:

"لا نعلم علاقة القائمة بكل هذا، ربما كان حادث عنف بالهراوة فى ليلة ملبدة بالضباب ـ وهناك

أمل ضعيف فى معرفة الجانى إلا إذا أصابتنا ضربة حظ...".

قال د. كوريجان:

"هل تمانع فى أن أستمر فى التركيز فى هذه القائمة؟!".

"لا بأس، حظًا سعيدًا، أتمنى لك موفور الحظ".

"قد لا أصل لأى شىء طالما أنك لم تصل لشىء

بنفسك! لا تكن متأكدًا هكذا إلى هذه الدرجة، سأركز على اسم كوريجان. هل هو اسم رجل أم سيدة أم آنسة ـ وأريد معرفة سبب وجود علامة الاستفهام بجواره".

الفصل الثالث

1

"حسنًا يا سيد لوجون، لا أعرف أكثر مما أخبرتك به! وأخبرت به مساعدك من قبل فأنا لا أعرف من كانت السيدة ديفيز، ولا من أين أتت، لقد نزلت فندقى منذ حوالى ستة شهور، وكانت تدفع الإيجار بانتظام وبدت كشخصية محترمة ولطيفة وهادئة، لا أعلم ما الذى تتوقع منى قوله أكثر من ذلك".

توقفت السيدة كوبنز لتلتقط أنفاسها ونظرت إلى لوجون بشىء من الضيق. ابتسم لها بابتسامته اللطيفة المليئة بالشجن الذى يعرف تأثيره الذى لا يخيب وفقًا لخبرته.

قالت مستدركة: "هذا لا يعنى أننى لن أقدم المساعدة إن استطعت".

"شكرًا لك، هذا ما نحتاجه منك ـ المساعدة ـ فالنساء يعرفن ـ بالفطرة ـ أكثر مما يعرف الرجال".

كان رهانًا جيدًا، وقد حقق الغرض.

قالت السيدة كوبنز: "أتمنى لو سمعك زوجى تقول ذلك، فهو مغرور ولا يكترث لأى شىء كما هى عادته، دائمًا ما يقول إننى أدعى معرفة الأمور مع أننى لا أعلم شيئًا، وفى تسع مرات من كل عشر مرات أكون على صواب فيما أقول".

"لهذا أحب سماع آرائك عن السيدة ديفيز. هل كانت فى رأيك ـ غير سعيدة؟".

"ليس لهذه الدرجة ـ لن أقول ذلك، بل هى تبدو عملية جدًا ومنظمة فى حياتها، وأظن أنها كانت موظفة فى شركة أبحاث استهلاكية، حيث تسأل الناس عن أنواع المنتجات التى يبتاعونها وكيف ينفقون ميزانية المنزل الأسبوعية، وشعرت أن هذا فضول وتطفل ـ لماذا تريد الحكومة معرفة ذلك؟ إنه لأمر محير لى! ثم تقول ما يقوله الجميع ويعرفونه جيدًا ـ هناك رغبة جماعية لاقتناء أو شراء منتج ما هذه الأيام. يجدر بى أن قول لك إنها كانت تؤدى عملها بشكل لطيف بدون تطفل بل بشكل عملى واعتيادى".

"ولا تعرفين اسم الشركة التى كانت تعمل بها؟".

"أخشى أننى لا أعرف".

"هل ذكرت لك أن لها أقارب ـــــــــ؟".

"كلا، فهمت أنها أرملة مات زوجها منذ سنوات طويلة، وكان مقعداً ولم تتحدث عنه كثيراً".

"هل ذكرت لك مسقط رأسها؟".

"لا أظنها من أهل لندن، بل من شمال إنجلترا على ما أظن".

"ولم تشعرى بأن هناك شيئًا غامضًا نحوها؟".

شعر لوجون بالشك وهو يتكلم، لا يعلم هل هذه السيدة من السهل التأثير عليها أم لا ـ لكن السيدة كوبنز لم تستغل الفرصة المتاحة لها.

"حسنًا، لا أعلم هل كان بها شىء غامض أم لا، لا يمكن معرفة ذلك مما كانت تقوله لى، لكن ما كان يحيرنى هو حقيبتها، فهى من نوع جيد لكنها لم تكن جديدة، وكان هناك الحروف الأولى مطرزة عليها (J.D.) ـ "جيسى ديفيز "لكن كان الحرف فى الأصل (J) و (H) أو (A) على ما أظن. لكن هذا ليس شيئًا مريبًا كما ظننت وقتها لأن المرء قد يبتاع حقيبة مستعملة بحالة جيدة بسعر رخيص ثم يغير الحروف الأولى. لم يكن لديها متاع أو أمتعة كثيرة ـ فقط هذه الحقيبة".

كان لوجون يعرف ذلك، كانت ممتلكات الراحلة قليلة، ولم يكن معها أى صور أو رسائل ولا بطاقة تأمين ولا دفتر شيكات، وكانت ملابسها من النوع المعتاد ونوعيته جيدة ويكاد يكون جديداً.

قال لوجون: "هل بدت سعيدة حقًا؟".

"أظن ذلك".

لاحظ نبرة الشك فى كلامها وصوتها، فانتهز الفرصة، قائلاً:

"تقولين إنك تظنين ذلك؟".

"السعادة أمر نسبى، أليس كذلك؟ فى رأيى أنها كانت سعيدة بأموالها وعملها ولذلك كانت راضية عن حياتها، ولم تشك أو تتذمر إلا عندما سقطت مريضة...".

قال لها محفزًا: "ومتى سقطت مريضة؟".

"كانت منزعجة من البداية واضطرت لتأجيل وإلغاء كل مواعيدها، ولازمت الفراش وكانت تعد الشاى لنفسها على موقد الغاز الصغير وتتناول الأسبرين، واقترحت عليها استدعاء الطبيب لكنها قالت لا داعى لذلك، وأن علاج البرد يكون بملازمة الفراش والدفء وألا أقترب منها حتى لا تصيبنى العدوى. كنت أطهو لها الطعام؛ حساء ساخن،

وخبز، وأرز باللبن كل فترة. كان البرد قد أعياها تمامًا، وبعد ذهاب الحمى حل الاكتئاب ـ مثلما يحدث للجميع، وكانت تجلس لكى تستدفىء بنار الموقد وأذكر أنها قالت لى: "أتمنى لو لم يتح لى كل هذا الوقت للتفكير، التفكير لا يعجبنى ويحبطنى ويصيبنى بالاكتئاب".

استمر لوجون فى النظر بعمق وبكامل انتباهه نحو السيدة كوبنز وهى تبدأ الحوار فى الموضوع المهم بالنسبة له.

"أعرتها بعض المجلات لكنها كانت مشغولة الذهن جداً لدرجة أعاقتها عن مواصلة القراءة، وأذكر أنها قالت لى: "لو كانت الأحوال على غير ما يرام فلا داعى لمعرفتها، ألا توافقينى الرأى؟". وقلت لها: "معك الحق يا عزيزتى "وقالت لى: "لا أعرف ـ لم أكن متأكدة أبداً "وافقتها الرأى ثم قالت: "كل ما فعلته كان على الملأ بكل وضوح، وليس لدى ما أؤنب وألوم نفسى عليه". قلت لها: "بكل تأكيد يا عزيزتى"، لكنى تساءلت ما إذا كانت الشركة التى تعمل لديها قد حدث بها اختلاس فى الحسابات وعرفت بالأمر ـ ربما شعرت أن الأمر ليس من شأنها".

قال لوجون: "ربما".

"على أية حال، تحسنت صحتها ـ إلى حد كبير وعادت للعمل، لكنى قلت لها إنها تسرعت بالنهوض من الفراش ويجب أن تخلد للراحة ليومين تاليين، ولكم كنت محقة! لقد عادت فى الليلة التالية وهى مصابة بحمى خطيرة، وبالكاد تمكنت من الصعود عبر السلم ونصحتها باستدعاء الطبيب لكنها رفضت وساءت حالتها طوال هذا اليوم وصارت عيناها ذابلتين وخدودها حمراء وساخنة وتنفسها يزداد سوءاً، وفى اليوم التالى تحدثت لى بالكاد وطلبت "رجل دين بسرعة وإلا سيفوت الأوان "كما فهمت منها لكنها لم ترد رجل دين عادياً، بل طلبت السيد جورمان بالاسم....".

ظل لوجون ينصت لها دون أن يعلق على كلامها.

قالت: "رأيت الفتى مايك فى الشارع وأرسلته إلى السيد جورمان واتصلت بالطبيب فى المستشفى على نفقتى ولم أبلغها بذلك".

"هل اصطحبت جورمان لحجرتها عندما جاء؟".

"نعم، ثم تركتهما معًا".

"هل قال أحدهما أى شىء؟".

"لا أتذكر تمامًا، لقد قلت لها ها هو السيد جورمان وأنها ستكون بخير وحاولت التخفيف عنها ثم انصرفت وأغلقت الباب خلفى؛ ولكنى سمعتها تقول كلمة "شر "ـ وشىء عن الجواد ـ ربما سباق الخيول. أنا نفسى أحب سباق الخيول ـ لكن سباق الخيل

يحدث به خداع ونصب واحتيال كما يقولون".

قال لوجون: "شر". وحيرته هذه الكلمة وأصابته بالدهشة.

"أعلم أن البعض يحبون الاعتراف بخطاياهم قبل الوفاة، ربما فعلت ذلك بهذه الطريقة".

لم يشك لوجون فى صحة هذا الكلام لكن خياله تحرك نحو الكلمة التى استخدمتها السيدة ديفيز: الشر....

كان يفكر أن الشر كلمة لها مدلول خاص، وخاصة أن الرجل الذى عرف ماهية هذا الشر قد لقى حتفه على يد قاتل اتبعه وضربه حتى الموت....

2

لم يعرف لوجون أى معلومات مفيدة من ثلاثة نزلاء آخرين فى الفندق، وهم كانوا رجلاً موظفًا فى بنك والآخر كان رجلاً عجوزًا يعمل فى متجر أحذية وظلا من نزلاء هذا الفندق لسنوات. كان النزيل الثالث فتاة فى الثانية والعشرين من العمر وجاءت مؤخراً وتعمل فى متجر قريب، وبالكاد يعرفون جميعًا شكل السيدة ديفيز.

المرأة التى شاهدت السيد جورمان فى الشارع لم يكن لديها معلومات مفيدة، لقد كانت دائمة التردد على دار العبادة التى يعمل بها السيد جورمان، ورأته يتجه من شارع بنثول إلى مقهى تونى فى حوالى الساعة 7:50، وهذا كل ما تعرفه.

السيد أوزبورن صاحب الصيدلية فى ركن شارع بارتون كان لديه الكثير من المعلومات التى أضافت للتحقيق.

كان رجلاً ضئيل الحجم فى متوسط العمر ورأسه أصلع ووجهه مستدير يبدو عليه البراءة والسذاجة ويرتدى نظارة.

قال: "مساء الخير يا سيدى المفتش، هلا دخلت؟". ثم رفع لوحًا خشبيًا قديمًا ومر لوجون منه ووجد نفسه فى صيدلية قديمة ووجد الرجل يرتدى معطفًا أبيض ويحضر الأدوية بسرعة الساحر المحترف، وكان هناك ممر يؤدى إلى حجرة ضيقة بها مقعدان صغيران ومائدة ومكتب. أغلق السيد أوزبورن الستار دونهما بشكل يوحى بالسرية وجلس على أحد المقعدين وأشار إلى لوجون ليجلس على الآخر، ومال نحوه وفى عينيه لهفة ولمعة تدل على الإثارة.

قد أكون قادرًا على مساعدتك. لم تكن ليلة وقوع الجريمة مزدحمة بالناس ـ لم أجد ما أفعله ولم يكن الجو مناسبًا، وهناك مساعدة شابة تعمل معى، ونحن نفتح

الصيدلية حتى الساعة الثامنة فى أيام الخميس دومًا. ذهبت نحو الباب لأتفقد الجو وشعرت بتكون الضباب كما قالت النشرة الجوية فى المذياع. وقفت قليلاً وكان كل ما بداخل الصيدلية أشياء يمكن أن تبيعها المساعدة الشابة ـ كريم للوجه وحمام ملح وما شابه. رأيت السيد جورمان يمر عبر الشارع من هذا الجانب الآخر وأنا أعرف شكله بالطبع، وكانت جريمة القتل هذه صادمة للغاية لأنه رجل معروف بنزاهته وسمعته الطيبة. قلت لنفسى: "ها هو السيد جورمان "وكان يتجه نحو شارع ويست، وفى الشارع الجانبى على اليسار كان هناك السكة الحديد كما تعلم. لم يجل بخاطرى أى شىء مريب ـ لكن فجأة توقف الرجل الثانى أمام باب الصيدلية. تساءلت لماذا توقف، ثم لاحظت أن السيد جورمان كان يبطىء من سيره، لكنه لم يتوقف تمامًا، وكأنه يفكر بعمق لدرجة جعلته ينسى أنه يسير. ثم بدأ يواصل السير بسرعة أكبر مرة أخرى وواصل الرجل الآخر المسير أيضًا ـ بسرعة، كما أظن ـ ظننت أنه شخص يعرفه وأراد التحدث معه".

"لكن ببساطة كان يتبعه؟".

"أنا متأكد من ذلك الآن ـ وليس فى حينها، وخاصة أننى لم أستطع رؤية أى منهما فى الضباب الكثيف بعد ذلك".

"هل يمكنك أن تصف لى هذا الرجل؟".

لم يكن صوت لوجون يوحى بالثقة، بل كان مستعدًا لوصف غير حقيقى وعام كالمعتاد، لكن كان السيد أوزبورن من معدن رجال مختلف عن معدن تونى صاحب المقهى.

قال بكل ثقة: "نعم، أظن ذلك، كان رجلاً

طويلاً....".

"كم يبلغ طوله؟".

"من 5.11 إلى ست أقدام على الأقل، ربما بدا أكثر طولاً لأنه كان نحيلاً جدًا، وكانت كتفاه محنيتين وفى عنقه تفاحة آدم محددة الملامح وشعره يبدو طويلاً تحت قبعته، وأنفه معقوفة ولافتة للنظر جدًا. بالطبع لم أر لون عينيه بل رأيته من منظر جانبى، ويبدو أنه فى الخمسينات من العمر، وعرفت ذلك من مشيته، لأن الشباب يسيرون بشكل مختلف تمامًا".

فكر لوجون فى المسافة من الباب للجهة المقابلة من الشارع، وتساءل واندهش من وصف السيد أوزبورن الدقيق، اندهش كثيرًا....

إن وصف الصيدلى له أحد معنيين لا ثالث لهما: إما أنه كان نابعًا من نسج خياله ـ

لقد قابل لوجون الكثير من هؤلاء الناس ذوى الخيال الخصب، وخاصة النساء، فقد ينسجن قصة ووصفًا خياليًا عار يا تمامًا من الصحة وتفاصيله مضللة وخاطئة ـ مثل العيون المتحركة والجبهة المتجعدة والفك الذى يشبه فك القرود والشراسة الواضحة لوحش يكشر عن أنيابه، لكن بدا وصف السيد أوزبورن واقعيًا، ربما كان شاهدًا حقيقيًا أفضل من المئات غيره ـ رجل شهد ولاحظ القاتل بالتفصيل ـ وقد يكون جانبه الصواب إلى حد كبير فيما رآه.

مرة أخرى فكر لوجون فى المسافة وعرض الشارع ونظر إلى الصيدلى وهو يفكر مليًا وقال:

"هل تظن أنك ستتمكن من التعرف على الرجل إن رأيته مرة أخرى؟".

قال بكل ثقة: "نعم بكل تأكيد، فأنا لا أنسى الوجوه، فهى إحدى هواياتى. كنت أقول دومًا إنه بإمكانى أن أصف فى المحكمة ملامح قاتل قتل زوجته بشراء سم الزرنيخ من صيدليتى. كنت أتمنى دائمًا أن يحدث شىء كهذا يومًا ما".

"لكنه لم يحدث بعد حتى الآن؟".

أعترف بأسى أن ذلك لم يحدث قط.

قال بحزن وشجن: "وغالبًا لن يحدث لأننى سأبيع الصيدلية بسعر جيد جدًا وأتقاعد وسأعيش فى بورن ماورث".

"لكن الصيدلية تبدو ممتازة وفى موقع متميز".

قال السيد أوزبورن بفخر: "سمعتها طيبة. إن عمر هذه الصيدلية حوالى مائة عام ورثتها عن آبائى

وأجدادى، فهى إرث عائلى، لكنى لم أع لها أهمية فى شبابى بل كنت أظنها شيئًا عتيقًا وكنت ككثير من الشبان يستهوينى التمثيل على المسرح، ولم يمنعنى والدى وقال لى: "جرب التمثيل يا بنى، وستجد أنك لا تصلح له ولن تكون ممثلاً عظيمًا "ولكم كان محقًا! كان والدى حكيمًا. مكثت 18 شهرًا مع فرقة مسرحية وتدربت ثم عدت لمهنة الصيدلى، وصرت فخورًا بها. كنا نبيع دائمًا أدوية ممتازة، قديمة لكنها من نوعية ممتازة، لكن فى هذه الأيام ـ هز رأسه فى حزن ـ الأمور محبطة للصيدلى، فكل الناس لا تريد سوى أدوات التجميل المزعجة ونصف أرباحى منها، فلا يمكننى التوقف عن بيعها رغم تفاهتها: مساحيق التجميل وأحمر الشفاه وكريم الوجه. أنا لا أبيعها بنفسى بل تتولى أمرها الآنسة الشابة التى تعمل معى. لم تعد الأيام سعيدة مثل الأمس، لم تعد مهنة الصيدلى تروق لى ولكن لدى ثروة صغيرة وسأبيع الصيدلية بسعر ممتاز ودفعت عربون لكوخ صغير لطيف فى "بورن ماورث".

ثم أضاف قائلاً:

"شعارى هو: "تقاعد وأنت لاتزال قادراً على الاستمتاع بالحياة"، ولدى الكثير من الهوايات مثل جمع الفراشات ومراقبة الطيور كل فترة والبستنة ـ ولدى كتب كثيرة جيدة عن زراعة البساتين. كما أهوى السفر، وقد أركب باخرة وأطوف حول العالم لأرى أماكن جديدة مدهشة قبل فوات الأوان".

نهض لوجون من مقعده وقال:

"أتمنى لك حظًا سعيداً، وقبل مغادرتك للمكان، إن رأيت هذا الرجل ـــــــ".

"بالطبع سأبلغك على الفور يا سيد لوجون، يمكنك أن تعتمد علىّ، سيسرنى ذلك، فكما قلت لك، لدى ذاكرة جيدة للوجوه وسأظل متيقظًا ومتأهبًا كما يقولون، يمكنك الاعتماد علىّ، وهذا من دواعى سرورى".

الفصل الرابع

1

خرجنا من مسرح "أولدفيك "أنا وصديقتى هرميا ريدكليف، وشاهدنا مسرحية ماكبث لشكسبير، وكان المطر يهطل بغزارة وركضنا عبر الشارع لنصل إلى موقع سيارتى، وقالت هرميا إن الأمطار تهطل دائمًا عندما نذهب للمسرح وإن هذا ليس عدلاً.

"إنه لأمر غريب حقًا".

لم أوافقها على هذا الرأى، وقلت لها إنها لا تتذكر سوى الأوقات العصيبة.

قالت هرميا ونحن فى السيارة وأتأهب للانطلاق:

"لكن ماذا عن جليندبورن، كنا محظوظين دائمًا برؤية هذا الاحتفال الموسيقى الممتع والزهور فى المكان وخاصة الزهور البيضاء".

تحدثنا عن مطعم جليندبورن والموسيقى لفترة ثم علقت هرميا قائلة:

"ألن نفطر فى دوفر؟".

"دوفر؟ يا لها من فكرة غريبة، أردت الذهاب لمطعم الفانتازيا، فالمرء بحاجة لطعام وشراب جيد بعد مسرحية كئيبة مليئة بسفك الدماء مثل ماكبث، مسرحيات شكسبير تجعلنى دائمًا أتضور جوعًا".

"فعلاً، وكذلك موسيقى فاجنر، ولا يسد جوعك كل ساندويتشات السلمون المدخن فى "كوفنت جاردن "، ولقد اقترحت دوفر لأننا فى الطريق إليه".

قلت لها: "بإمكانى الاستدارة والعودة بالسيارة".

"لقد تجاوزت الملف بالفعل. إننا نسير فى تجاه طريق كنت القديم (أم الجديد؟)".

فحصت الطريق من حولى واكتشفت أن هرميا على حق تمامًا ، كالعادة.

قلت لها معتذرًا: "دائمًا ما يتوه المرء هنا".

قالت هرميا: "المكان هنا محير فعلاً، نحن ندور حول محطة ووترلو".

بعد اجتياز كوبرى ويستمنستر بنجاح استكملنا حوارنا عن مسرحية ماكبث التى شاهدناها للتو. كانت صديقتى الجميلة هرميا ريدكليف فى الثامنة والعشرين من عمرها وتبدو كبطلة شابة وجميلة ورشيقة، وكان شعرها ملفوفًا فى جديلة فى مؤخرة رأسها ولونه كستنائى غامق، ووجهها أغريقى كانت أختى تقول عنها دائمًا "صديقة مارك "بنبرة لا تروق لى أبدًا.

سررنا بدخول مطعم الفانتازيا، وجلسنا فى ترحاب على مائدة صغيرة بجوار حائط مخملى لونه أحمر وردى. كان المطعم شهيرًا وذائع الصيت والموائد متقاربة، وألقى جيراننا فى المائدة المجاورة التحية علينا بحرارة؛ إنه ديفيد أردينجلى الأستاذ فى قسم التاريخ فى جامعة أكسفورد والذى قدم لنا صديقته، فتاة جميلة جدًا لها تسريحة شعر على أحدث صيحة، ومصفف بعناية من كل ركن كالتاج على رأسها، وبدا ملائمًا لها جدًا، وكانت عيناها واسعتين وزرقاوين وفمها نصف مفتوح طوال الوقت، وكانت ككل صديقات ديفيد السابقات ـ سخيفة جدًا، وكان هو شابًا ذكيًا ومتميزًا لكنه لا يجد راحته إلا مع الفتيات الجاهلات الحمقاوات.

قال لنا: "هذه فتاتى اللطيفة "بولى "، هؤلاء هم مارك وهرميا، وهما جادان جدًا وضليعان فى الثقافة، وحاولى مجاراتهما فى الحديث. لقد حضرنا مسرحية هزلية رائعة! أنا متأكد من أنكما عدتما للتو من إحدى مسرحيات شكسبير أو إبسن".

قالت هرميا: "شاهدنا ماكبث فى مسرح أولدفيك".

"وما رأيكم فى هذه العرض من إخراج باترسون؟".

قالت هرميا: "كان رائعًا وأعجبنى كثيرًا وخاصة الإضاءة المثيرة، لم أر من قبل مشهد الوليمة بهذه الروعة".

"ماذا عن الساحرات؟".

"مشهد بشع! كالعادة".

وافقها ديفيد الرأى وقال:

"لابد وأنهم جعلوه مثل التمثيل الصامت، وجعلوا الساحرات يقفزن على المسرح كملك الجن، وقد لا تقاوم أن تتوقع وجود جنية طيبة ترتدى زيًا أبيض مرصعًا بالحلى الصغيرة المتلألئة لتقول بصوت هادئ:

لن ينتصر الشر فى النهاية.

وسيرضخ ماكبث لنيران الغواية.

ضحكنا جميعًا، لكن ديفيد السريع البديهة والقوى الملاحظة نظر لى بحدة وقال:

"ماذا دهاك؟".

"لا شيء، كنت أفكر في أنني خطر بذهني مشهد التمثيل الصامت عن الشر وملك الجن والجنية الطيبة أيضاً".

"بخصوص أي شيء".

"أوه، في مقهى في تشيلسي".

"كم أنت ذكي وعصري يا مارك، كل هذا في إطار تشيلسي، حيث تتزوج الوريثات الجميلات ذوات الملابس الضيقة غلماناً لم يبلغوا مبلغ الشباب بعد، هذا مكان يليق بـ "بوبي". أليس كذلك يا صغيرتي؟".

فتحت عينيها باتساع أكثر وقالت معترضة: "أنا أكره تشيلسي وأحب مطعم الفانتازيا أكثر! يا له من طعام شهي".

"إنه مناسب لك يا بوبي، وعلى أية حال لست ثرية بما يكفي للذهاب إلى تشيلسي. أطلعنا بالمزيد عن ماكبث يا مارك، والساحرات البشعات. أعرف كيف سأظهر الساحرات لو كنت أنا المخرج".

كان ديفيد عضواً بارزاً في جمعية الروحانيين في الماضي.

"إذن كيف؟".

"سأجعلهن عاديات، مجرد نسوة عجائز خبيثات كالساحرات في الريف".

قالت بوبي وهي تحدق نحوه: "لكن لم يعد هناك ساحرات الآن".

"أنت تقولين هذا لأنك تعيشين في لندن، لكن هناك ساحرة في كل قرية في ريف إنجلترا. هناك السيدة بلاك في الكوخ الثالث أعلى التل، والأمهات يخبرن أطفالهن بألا يزعجوها ويعطوها هدايا من الكعك المخبوز في المنزل والبيض اتقاءً لشرها". وأشار بأصبعه محذراً: "لأنك إن أغضبتها لن تعطي أبقارك لبناً، ومحصول البطاطس سوف يفسد، وطفلك سيلتوي كاحله. يجب الابتعاد عن الساحرة العجوز السيدة بلاك. لا أحد يقول ذلك صراحة ـ لكن الجميع يعملون به!".

قالت بوبي وهي تزم شفتيها: "أنت تمزح!".

"كلا، أنا لا أمزح، أنا محق، أليس كذلك يا مارك؟".

قالت هرميا: "بالتأكيد، لقد اختفت تلك الخرافات مع انتشار التعليم "وكانت متشككة.

قال لها: "لكن ليس في بؤر الريف، ما رأيك يا مارك؟".

قلت له ببطء: "ربما كنت محقًا، لكنى لا أعرف فى الحقيقة فلم أذهب للريف كثيرًا".

قالت هرميا عائدة لتعليقه الأول: "مازلت لا أرى كيف ستجعل الساحرات نساء عجائز عاديات، يجب إضفاء جو غرائبى عليهن بكل تأكيد".

قال ديفيد: "فكرى بالأمر، يبدو هذا ضربًا من الجنون، لكن إذا رأيت من يهذى ويترنح وهو أشعث شعره ويبدو مجنونًا فلن تخافى منه! أذكر أننى بعثت برسالة لمصحة عقلية، وطلب منى الانتظار فى حجرة وكان هناك سيدة عجوز لطيفة تحتسى كوبًا من اللبن وذكرت ملحوظة معتادة عن الجو، وفجأة مالت إلى الأمام وسألت بصوت خفيض:

"هل طفلك المسكين مدفون خلف المدفأة؟ "ثم أومأت برأسها وقالت: "الساعة 10:12 تمامًا، دائمًا فى نفس الوقت يوميًا، والأفضل أن ندعى عدم ملاحظتنا للدماء".

"قالت ذلك بشكل معتاد لكنه مرعب للغاية".

قالت بوبى: "وهل كان هناك حقًا شخص مدفون خلف المدفأة؟".

تجاهلها ديفيد وقال:

"ثم ماذا عن الوسيط الروحانى؟ تدخل فى نوبة فى حجرة مغلقة وتصدر أصواتًا وحركات ثم تعود للمنزل لتأكل وجبتها المعتادة من السمك والبطاطس كأى امرأة عادية".

قلت له: "أى أن فكرتك عن الساحرات أنهن عجائز من أسكتلندا نظرهن ضعيف يمارسن السحر سرًا ويتلين التعويذات حول القدر الممتلئ بسوائل مغلية ويستحضرن الأرواح، لكنهن يظللن نسوة عاديات من حيث الشكل ـــ نعم، هذا مثير حقًا".

قالت هرميا بجفاء: "هذا إن استطعت إقناع أى ممثل بلعب الدور هكذا كما تريد".

"لكن أى ممثل يسعى جاهدًا لتمثيل نص به لمحة من الجنون! ونفس الأمر ينطبق على مشاهد الموت المفاجئ، حيث لن ينهار الممثل فجأة ويسقط ميتًا، بل يتحشرج صوته ويترنح ويحرك عينيه ويشهق ويمسك قلبه ورأسه بشكل مبالغ فيه فى الأداء. بمناسبة الأداء، ما رأيكم فى أداء فيلدنج لشخصية ماكبث؟ هناك انقسام كبير فى الآراء حول أدائه لدى النقاد".

قالت هرميا: "كان رائعًا، وخاصة مشهده مع الطبيب، بعد مشهد سير السيدة ماكبث وهى نائمة:

"ألا يمكنك مداواة العقل المريض؟ "لقد نقل المعنى بشكل لم أفكر فيه من قبل ـ

كان ماكبث يأمر الطبيب بقتلها، لكنه كان يحبها وأظهر الصراع بين الخوف والحب، وعبارة "يا ليتك مت بعد ما حدث "كانت مؤثرة جداً بشكل لم أعده من قبل".

قلت بجفاء: "قد يندهش شكسبير نفسه لو رأى أداء ممثلى مسرحياته اليوم".

قال ديفيد: "قامت شركة بيربيج وشركاه للإنتاج المسرحى بإزالة روح شكسبير الأصلية من مسرحيته التى أنتجوا عروضها".

همست هرميا:

"المفاجأة الأزلية للمؤلف أن يرى ما فعله به المنتج".

قالت بوبى: "ألم يكتب شخص يدعى بيكون مسرحيات شكسبير؟".

قال ديفيد بلطف مخفيًا دهشته من جهلها: "إنها نظرية تم دحضها حالياً يا عزيزتى، ماذا تعرفين عن بيكون؟".

قالت بلهجة المنتصر: "اخترع البارود".

قال ديفيد: "أرأيتم لماذا أحب هذه الفتاة؟ إنها تعرف مالا نتوقعه دائماً، لقد كان فرانسيس وليس روجر يا حبيبتى".

قالت هرميا: "من المثير أن فيلدنج لعب دوراً فى مسرحية القاتل الثالث، هل لديه خبرة سابقة فى التمثيل؟".

قال ديفيد: "نعم، أظن ذلك، كم كان من المريح الاعتماد على الشخصيات النمطية، كلما أردت قاتلاً تلجأ لنفس الممثل. كم من المثير وجود قاتل أجير تحت الطلب ليؤدى لك الغرض هذه الأيام للتخلص من أعدائك".

قالت هرميا: "لكن ذلك يحدث، هناك قتلة بالأجر من العصابات والجماعات كما يحدث فى شيكاغو كما نسمع".

قال ديفيد: "لم أكن أعنى العصابات والقراصنة وعتاة الجريمة، بل شخصاً عادياً للتخلص من شخص عادى، مثل غريم فى العمل أو عجوزة ثرية طويلة العمر ليرثها، أو زوج متعب، لكم من المريح أن نطلب خدمة توصيل الطلبات للمنازل: أريد قاتلاً أجيراً من فضلك".

ضحكنا جميعاً.

قالت بوبى: "لكن من الممكن أن يفعل ذلك أحدهم هذه الأيام أليس كذلك؟".

توجهنا برءوسنا نحوها.

قال ديفيد: "كيف ذلك، يا صغيرتى؟".

"أعنى قد يرتب أحد لجريمة قتل دون أن يشترك فيها إن أراد ذلك... أناس عاديون كما ذكرت، لكن الأمر مكلف جداً".

كانت عيناها واسعتين وتبدو عليهما البلاهة والصراحة وشفتاها منفرجتين.

قال ديفيد بفضول: "ماذا تقصدين؟".

بدا الارتباك عليها وقالت:

"ربما اختلط علىّ الأمر، كنت أقصد الجواد

الأشهب، هذا النوع من الأمور الغامضة".

"حصان أشهب؟ أى نوع؟".

احمر وجه بوبى خجلاً ونظرت لأسفل وقالت:

"لقد ذكرت أموراً حمقاء، سمعت عن ذلك المكان

و.... لابد وأننى فهمت الموضوع خطأ".

قال ديفيد بلطف: "لتتناولى مزيداً من الشراب اللذيذ يا عزيزتى".

2

من أغرب الأمور فى الحياة كما نعلم هو أن تسمع عن شىء، ثم تسمع عنه مرة أخرى فى أقل من 24 ساعة. حدث لى ذلك فى صباح اليوم التالى.

رن جرس الهاتف وأجبت عليه ـــــ

"فلاكسمان 1 4 8 3 7".

سمعت شهقة عبر الهاتف ثم صوتاً يقول بتحدٍ وهو يشهق:

"فكرت فى الأمر، وسأحضر!".

فكرت ذهنياً جيداً لأفهم معنى هذا الكلام.

قلت: "رائع، و... ماذا؟".

قال الصوت: "لقد قلت ما لدى ولن أكرره".

"هل تتحدث للرقم المناسب؟".

"نعم، أنت مارك إيستربروك، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد! علمت من أنت! السيدة أوليفر!".

قالت بدهشة: "أوه، ألم تعرفنى؟ لم يجل ذلك بخاطرى، أنا أتحدث عن الحفل الخيرى لرود،

قريبتك، سأحضر وأوقع على كتبى إن أرادت".

"هذا لطف كبير منك، سيدرجونك فى برنامجهم الخيرى بالطبع".

قالت بتوجس: "لن يكون هناك تجمع كبير، أليس كذلك؟".

ثم أضافت: "أنت تعرف هذا النوع من الحفلات، يأتى الناس نحوى ويسألوننى عما أكتبه حاليًا ـ مع أنهم يرون أننى أحتسى الشاى أو عصير الطماطم. ويقولون لى إنهم يحبون رواياتى وهو الشىء الذى يسعدنى، لكنى لا أعرف بماذا أجيب فأنا لا أحب العبارات الرسمية المصطنعة، بالطبع قد يرغبون أن أشرب أى شىء فى الجواد الوردى و...؟".

"الجواد الوردى؟".

"لقد أخطأت، أقصد الجواد الأشهب، إنه مقهى، وأنا لا أجيد الظهور بمظهر لائق فى المقاهى، فأنا أشرب العصائر ببطء وقد أغرغر بصوت مضحك مما يصيبنى بالحرج".

"ماذا تقصدين بالجواد الأشهب؟".

إنه مقهى قريب من مكان الحفل، أليس كذلك؟ ربما كان اسمه الجواد الوردى؛ أو أى اسم آخر من نتاج خيالى، فأنا شاردة الذهن وأتخيل أشياء كثيرة".

سألتها: "ماذا عن أمر طائر الكوكاتو؟".

بدت فى حيرة ولم تفهمنى: "كوكاتو؟".

"وكرة الكريكيت؟".

قالت بحدة: "أظنك مجنونًا أو تعانى من آثار ما بعد تناول المسكرات أو ما شابه، ما موضوع الكوكاتو والجواد الوردى وكرة الكريكيت؟".

ثم أغلقت السماعة.

أخذت أفكر فى الجواد الأشهب للمرة الثانية حتى دق جرس الهاتف مرة أخرى.

هذه المرة كان السيد سومز وايت المحامى الشهير يذكرنى بأنه بموجب وصية أمى بالكفالة السيدة هيسكيث دوبوا يجب أن أختار ثلاث صور من لوحاتها.

قال المحامى بصوت به نبرة شجن: "بالطبع اللوحات ليست ذات قيمة كبيرة جدًا،

لكنك عبرت ذات مرة عن إعجابك بلوحات الراحلة".

قلت له: "كان اختيارها لألوان لوحاتها عن الحياة فى الهند مدهشًا وجميلاً وساحرًا، ولقد ذكرت لى ذلك فى خطاب أيها المحامى، لكنى أخشى أننى نسيت الأمر".

"فهمت، لكن تم التأكد من صحة الوصية. والمحامون المنفذون وأنا منهم سنرتب لبيع محتويات منزل لندن وأرجو منك الحضور إلى ميدان "إليزيمير "فى القريب العاجل....".

"سأذهب الآن".

لم يبد هذا الصباح أن اليوم مناسب للعمل.

3

حملت اللوحات الثلاث التى اخترتها تحت ذراعى وخرجت من المنزل رقم 49 فى ميدان إليزيمير وارتطمت بشخص كان يحاول الصعود لسلم الباب الأمامى. اعتذرت له واعتذر لى، وهممت بأن أوقف سيارة أجرة، لكنى استدرت فجأة لمن ارتطمت به عندما عرفته وصحت بحدة:

"أهلاً ـ هل أنت كوريجان؟".

"نعم... و... أنت مارك إيستربروك!".

كنا أصدقاء أنا وجيم كوريجان منذ أيام دراستنا فى أكسفورد، ولم أقابله منذ خمسة عشر عامًا.

قال كوريجان: "لقد تعرفت على وجهك لكن اختلط علىّ الأمر لبرهة، لقد قرأت مقالاتك كثيراً ـ واستمتعت بها".

"وماذا عنك؟ هل تقدمت فى البحث الذى كنت تريده؟".

تنهد كويجان وقال:

"بالكاد، إنه عمل مكلف ـ إن بدأت فيه وحدك على نفقتك، إلا إذا وجدت مليونيراً يمكن إقناعه بتمويلك أو صندوق نقد".

"كان بحثك عن أمراض الكبد، أليس كذلك؟".

"يا لها من ذاكرة جبارة! كلا، لقد تركت هذا الموضوع واتجهت لدراسة خواص إفرازات غدد ماندريان، هذا ما أهتم به حاليًا. بالتأكيد لم تسمع عن هذه الغدد! إنها مرتبطة بالطحال، وبلا سبب أو منفعة للجسم!".

كان يتحدث بحماس العلماء.

"إذن ما أهمية الأمر؟".

بدا أقل حماسًا وعلى وشك الشرح: "لدى نظرية بأن هذه الغدد تؤثر على السلوك، ولتوضيح الأمر، فإنها تعمل كسائل مكابح السيارة ـ إذ إن نقص إفراز هذه الغدد قد يحول الإنسان لمجرم ـ لأنه يلغى المحرمات السلوكية لديه ـ وأكرر هذا مجرد احتمال".

صفرت بصوت مسموع.

"وماذا عن الخطيئة الأولى؟".

"بالطبع لن يحب الكثيرون نظريتى، فى الواقع فشلت فى أن أجعل أى شخص يهتم بها للأسف، وأنا الآن طبيب شرعى فى قسم الشمال الغربى، وهو عمل مثير، وأرى من خلاله كل أنواع المجرمين والجرائم، لكنى لن أضايقك بالتفاصيل ـ إلا إذا قبلت دعوتى على الغداء".

"يسرنى ذلك، لكنك كنت على وشك الدخول لهذا المنزل". وأشرت للمنزل الواقع خلفه.

"كلا، فأنا كنت سأدخل بدون دعوة".

"لا يوجد أحد بالداخل سوى راعى المنزل".

"هكذا تخيلت لكنى أردت معرفة أى شىء عن الراحلة السيدة هيسكيث ـ دوبوا إن أمكن".

"يمكننى مساعدتك أكثر من راعى المنزل، فلقد كانت أمى بالتبنى".

"أحقًا؟ يا له من حظ وافر، هيا نذهب للغداء فى مطعم فى ميدان لوندز ـ ليس مطعمًا فخمًا لكنهم يقدمون به أفضل حساء فواكه البحر تذوقته فى حياتى".

جلسنا فى المطعم الصغير، وأمامنا قدر به الحساء الساخن قدمه لنا نادل شاب شاحب الوجه يرتدى زى البحارة الفرنسيين.

تذوقت الحساء وقلت له: "حساء لذيذ فعلاً، والآن ماذا تريد أن تعرف عنها؟ ولماذا؟".

"إنها قصة طويلة سأذكرها لك لاحقًا، أولاً أخبرنى أى نوع من النساء كانت؟".

فكرت لبرهة ثم قلت:

"كانت من المتمسكين بالعادات القديمة البالية من العصر الفيكتورى، وكانت أرملة حاكم سابق لجزيرة مجهولة، وكانت ثرية وتحب الراحة التى يوفرها المال وتذهب

خارج البلاد فى الشتاء لأماكن بعيدة مثل إستوريل وغيرها. منزلها بشع ملىء بالأثاث الفيكتورى والأسوأ هو الفضيات الفيكتورية. لم يكن لديها أطفال، بل كلبان مهذبان كانت تحبهما جداً وكانت متعصبة ومخلصة لحزب المحافظين، وكانت طيبة، لكنها مستبدة فى الرأى ومتعسفة وحازمة فى أمورها، ماذا تريد أن تعرف أيضاً؟".

"لست متأكداً، لكن هل تعرضت من قبل للابتزاز؟".

قلت بدهشة شديدة: "ابتزاز؟ لا يمكن تخيل حدوث ذلك. ما الأمر؟".

ثم سمعت قصة قتل السيد جورمان.

تركت ملعقتى على المائدة وسألته:

"هل لديك قائمة الأسماء الآن؟".

"معى نسخة وليس الأصل، تفحصها".

أخذت الورقة التى أخرجها من جيبه وفحصتها جيداً.

"باركنسون؟ أعرف اثنين بهذا الاسم، آرثر باركنسون فى البحرية، وهنرى باركنسون الذى يعمل فى إحدى الوزارات. أورمرود ـ هناك ميجور فى الجيش بهذا الاسم ـ ساندفورد ـ كان رجل دين فى بلدتنا وأنا صغير. هارموندزورث؟ لا أعرفه ـ تاكرتون".

ثم توقفت. ثم قلت: "لا أظنها توماسينا تاكرتون".

نظر لى كوريجان بفضول وقال:

"ربما، حسب معلوماتى، قرأت نعيها فى الجرائد منذ أسبوع".

"إذن لن يفيدنا ذلك".

واصلت قراءة الورقة: "شو ـ أعرف طبيب أسنان بهذا الاسم، وجيروك شو... دولافونتين ـ سمعت هذا الاسم مؤخراً لكنى لا أذكر متى وأين. كوريجان؟ هل هذا يشير إليك من قريب أو من بعيد؟".

"آمل ألا أكون أنا المقصود، أشعر أنه من النحس أن يتواجد اسمى فى هذه القائمة".

"ربما، لكن ما صلة الابتزاز بالقضية؟".

"كان اقتراح المحقق لوجون على ما أذكر، وبدا أكثر الاحتمالات الممكنة ـ لكن هناك احتمالات كثيرة أخرى. ربما كانت تلك قائمة مهربى مخدرات أو مدمنى مخدرات أو عملاء سريين ـ أو أى شىء سوى ذلك. إننا نعرف شيئاً واحداً على وجه اليقين وهو أن الورقة كانت مهمة لدرجة ارتكاب جريمة قتل للاستحواذ عليها".

سألته بحرص: "هل تهتم بالجانب الخاص بالشرطة فى عملك كطبيب شرعى؟".

هز رأسه بالنفى وقال:

"ليس بالضبط، أنا مهتم بالشخصيات الإجرامية وخلفياتها ونشأتها وصحة غدد المجرمين ـ كل هذا!".

"إذن ما سر الاهتمام بقائمة الأسماء؟".

قال ببطء: "لا أعرف، ربما لأن اسمى ظهر فيها، ربما كان أحد أفراد عائلتى ويجب أن أساعده وأنقذه".

"تنقذه؟ إذن هل تراها قائمة ضحايا لا قائمة أشرار، ربما تكون هكذا أو ذاك".

"أنت محق تمامًا، ومن الغريب أن يكون لدى هذا اليقين بأنهم ضحايا، ربما هذا مجرد إحساس أو بسبب مقتل السيد جورمان. لم أقابله كثيرًا من قبل، لكن كان رجلاً محترمًا ومحبوبًا من جميع الناس، وكان حازمًا فى أموره، ولا أعلم لماذا أعتبر القائمة مسألة حياة أو موت....".

"ألم تتوصل الشرطة لأى دليل؟".

"نعم، لكنها قصة طويلة، التحقيقات فى كل مكان، وخاصة عن السيدة التى استدعته ليلة وقوع الجريمة".

"من كانت؟".

"ليست امرأة غامضة، مجرد أرملة على ما يبدو وعلمنا أن زوجها كان متورطًا فى سباق الخيول، لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك، وكانت تعمل فى شركة تجارية فى مجال أبحاث الاستهلاك، ولا شىء يثير الشبهات هنا، فهى شركة محترمة، ولا يعلم صاحبها الكثير عن هذه السيدة، عدا أنها انحدرت من شمال إنجلترا ـ لانكشاير. الشىء الوحيد المثير للريبة هو أنها كان تملك أقل القليل من الممتلكات الشخصية".

هززت كتفى بلا اكتراث وقلت: "هذا يصدق على الكثير من الناس أكثر مما نتخيل، إنه عالم ملىء بالعزلة والوحدة".

"نعم، أنت محق تمامًا".

"على أية حال، قررت أنك ستساعد الشرطة؟".

"مجرد جس نبض، خاصة أن اسم هيسكيث دوبوا ليس منتشرا أو شائعًا. ولقد كنت أعتقد أننى لو عرفت المزيد عن هذه السيدة... "لم يكمل عبارته وقال: "لكن مما ذكرته لى لا أجد خيوطًا لجريمة".

قلت له: "لم تكن مدمنة أو مهربة مخدرات، وبالتأكيد ليست جاسوسة. كانت حياتها مستقرة ولم تتعرض للابتزاز. لا يمكننى تخيل نوع القائمة التى يتواجد بها اسمها. فقد كانت تضع المجوهرات فى البنك حتى لا تكون هدفًا للسرقة".

"هل تعلم بوجود من يحملون هذا الاسم؟ هل كان لها أى أطفال أو أقارب؟".

"لم يكن لديها أطفال بل ابن وابنة أخ لكن ليس بنفس اسم الزوج؛ لأن زوجها كان وحيدًا بلا أشقاء".

قال لى كوريجان بمرارة إننى ساعدته كثيرًا بهذه المعلومات ونظر لساعته وقال إنه يجب أن يلتقى بشخص ما، وبذلك افترقنا.

عدت لمنزلى وأنا مستغرق فى التفكير، ووجدت أنه من المستحيل أن أركز فى عملى، وفى النهاية قررت أن أتبع حدسى وأتصل بديفيد أردينجلى.

"ديفيد! أنا مارك، أين أجد فتاتك بوبى وما اسمها بالكامل؟".

قال بمرح: "هل تريد الاستحواذ عليها منى؟".

قلت له: "لديك الكثير من الصديقات وبالتأكيد يمكنك تركها لى".

"لديك صديقة من العيار الثقيل، وظننتك ستظل معها دائمًا".

لا أعرف لماذا ضايقتنى فكرة البقاء معها دائمًا، لكنه وصف علاقتى بهرميا جيدًا، فلماذا أكتئب؟ شعرت أننى سأتزوجها يومًا ما... فأنا أحبها أكثر من أى شخص أعرفه، ولدينا صفات مشتركة كثيرة.....

شعرت لسبب غامض برغبتى العارمة فى التثاؤب.... علاقتنا امتدت أمامى ـ سنذهب للمسرحيات المهمة ـ ونتناقش فى الفن والموسيقى ـ لا شك فى أنها زوجة مثالية لى.

لكن الشيطان اللعين بداخلى وسوس لى باستخفاف:

لكن صحبتها ليست ممتعة، وصدمت من صوت عقلى الباطن.

قال ديفيد: "هل نمت أم ماذا؟!".

"كلا، لكن سأخبرك بالحقيقة، إن فتاتك مبهرة وممتعة حقًا".

"نعم، ستمتعك إذا تناولتها على جرعات صغيرة، اسمها بالكامل باميلا ستيرلينج وتعمل فى محل زهور فى ماى فير، تلف الأزهار والأعواد الخضراء فى باقات لقاء ثمن زهيد".

ثم أعطانى العنوان.

قال لى بشكل أبوى وكأنه يكبرنى سنًا: "هيا اصطحبها وتمتع بوقتك معها، ستجد أنها مريحة، فهى جاهلة وبلهاء تمامًا ـ وفارغة العقل، وستصدق كل ما تقوله لها، كما أنها شريفة وعفيفة فلا تحاول أن تتمنى أكثر من مجرد لمسات بريئة وصحبة ممتعة".

ثم وضع السماعة.

4

دخلت من باب محل الزهور وأنا مضطرب ومتردد، وداهمتنى رائحة النباتات وتراجعت للخلف ووجدت عددًا من الفتيات يرتدين أثوابًا خضراء باهتة كلهن يشبهن بوبى مما زاد من حيرتى ثم تعرفت عليها أخيرًا، وكانت تكتب خطابًا بصعوبة، وتتوقف كثيرًا لتسأل عن تهجئة بعض الكلمات، بمجرد أن فرغت من مهمتها وإحضار باقى خمسة جنيهات جذبت انتباهها لى.

قلت لها مذكرًا: "لقد تقابلنا بالأمس ـ مع ديفيد أردينجلى".

قالت بدفء: "ياه، نعمّ "ومرت ببصرها فى اتجاه رأسى بشكل غامض ومبهم.

"أردت معرفة شىء ما والاستفسار منك عنه". شعرت بوخز الضمير فقلت لها: "من الأفضل أن أشترى بعض الزهور أولاً".

بدت وكأنها تحولت فجأة لإنسان آلى وضغطت أنا على زر التشغيل، فقالت:

"لدينا زهور جميلة مقطوفة اليوم فقط ".

كانت الزهور فى كل مكان: "أريد زهورًا صفراء، ما سعرها؟".

قالت بصوت مقنع وبه دلال: "رخيص جدًا، كل زهرة ثمنها 5 شلنات". ازدردت لعابى وقلت لها إننى سآخذ ست زهرات.

قالت: "وهذه الأوراق الخضراء الخاصة ستزينهم "

وجدت أن هذه الأوراق بدأت فى التحلل والتعفن منذ فترة، فاخترت نبات السرخس الأخضر والإسباراجس بدلاً منها، لكنها تضايقت ولم ترض عن اختيارى وذوقى غير أنها فعلت ما أردت.

قلت لها مرة أخرى وهى تعد الباقى بشكل أخرق:

"أريد أن أسألك عن شىء ما، لقد ذكرت البارحة شيئًا عن الجواد الأشهب".

فزعت بوبى بعنف ووقعت الزهور ونباتات السرخس من يدها على الأرض.

"هلا أخبرتنى بالمزيد عنه؟".

بعد أن انحنت لتلتقط الباقة وتعدل من هندام ملابسها قالت: "ماذا قلت؟".

"سألتك عن الجواد الأشهب".

"ماذا تقصد بالجواد الأشهب؟".

"ذكرته بالأمس".

"إطلاقًا لم يحدث هذا أبدًا! لم أسمع عن ذلك الشىء أبدًا".

"من أخبرك به إذن؟".

سحبت نفسًا عميقًا وقالت بسرعة:

"لا أفهم ما تعنيه مطلقًا! من الممنوع علينا إجراء حوار مع الزبائن "ثم قامت بلف الباقة بورق مناسب وقالت: "الحساب 35 شلنًا من فضلك".

أعطيتها جنيهين وأعطتنى 6 شلنات واتجهت بسرعة لزبون آخر.

لاحظت أن يديها ترتعشان قليلاً.

خرجت ببطء وسرت لمسافة قصيرة، ثم أدركت أنها أخطأت فى حساب الباقى وأعطتنى أكثر مما أستحق (كان السرخس بـ 7 شلنات) ربما كان ذلك لدواعى الارتباك وليس مجرد خطأ حسابى.

كان وجهها الجميل وعيناها الزرقاوان تخفى

شيئًا..... ما هو؟

قلت لنفسى: "إنها خائفة.... بل مرعوبة.... لكن لماذا؟ لماذا؟".

الفصل الخامس

رواية مارك ايستربروك

1

قالت السيدة أوليفر: "كم من المريح أن يفكر المرء فى أن الحفل قد انتهى بدون حدوث شىء فظيع!".

كانت لحظة استرخاء، فقد مر احتفال رودا كأى احتفال خيرى عادى، حيث لم يكن هناك ما يدعو للقلق سوى تقلبات الطقس فى الصباح الباكر، إلى الجدال حول ما إذا كان من الأنسب نصب الأكشاك والخيم فى العراء أم داخل خيمة كبيرة أم فى الجرن، علاوة على الجدال العقيم حول تنظيم حفلة الشاى وأكشاك بيع الخضروات وإلخ إلخ. رتبت رودا كل شىء بلباقة، وقد هربت كلابها اللطيفة غير المهذبة عدة مرات على الرغم من أنه من المفترض أنها محبوسة فى المنزل بسبب الشك فى أن سلوكها سيفسد جو الاحتفال. لقد كانت هذه الشكوك لها مبرراتها حقًا، وجاءت النجمة الشابة المغمورة لكنها لطيفة وهى تحيط جسمها بالفراء باهت اللون، لتفتتح الاحتفال الخيرى بشكل ساحر مع إضافة خطبتها عن الأحوال الفاجعة للاجئين مما حير الجميع، لأن سبب الاحتفال الخيرى هو تجديد معمار برج دار العبادة. حقق كشك المرطبات أعلى المبيعات، وظلت المشكلة المعتادة هى مشكلة الفكة، وساد الهرج والمرج وقت تناول الشاى وأراد كل رجل خير احتلال موقع الخيمة وتناول ما فى حجرة الطعام فى نفس الوقت، فى النهاية مع حلول المساء شاهدنا فى سعادة رقصات شعبية فى الجرن وانطلاق الألعاب النارية، لكن أهل المنزل المتعبين عادوا للمنزل طلبا للراحة، وتناولوا وجبة باردة فى حجرة الطعام وانخرطوا فى حوار ممل حيث ذكر كل منهم انطباعه عن اليوم ولا يكترث لما يقوله الآخرون. كان الكل فى حالة استرخاء ودعة وخمول وحتى الكلاب أطلقوا سراحها والتهمت العظام فى سعادة تحت المائدة.

قالت رودا فى سعادة: "حصيلة الأموال لهذا الاحتفال الخيرى أكبر من احتفال "إنقاذ الأطفال "فى العام الماضى".

قالت جليسة الأطفال الأسكتلندية الآنسة ماكاليستر: "من الغريب جدًا أن مايكل برينت وجد الكنز فى لعبة الكنز الخفى للعام الثالث على التوالى، ربما يحصل على معلومات سلفًا عن مكانه".

قالت رودا: "ربحت السيدة بروكبانك هدية خروف فى الياناصيب، وبدا عليها الإحراج لأنها لم تكن تريده".

كانت المجموعة على العشاء تتكون من ابنة عمى رودا وزوجها الكولونيل ديسبارد والآنسة ماكاليستر وامرأة شابة ذات شعر أحمر تدعى "جنجر "واسمها كان يناسب لون شعرها والسيدة أوليفر والسيد كاليب دين كالثروب وزوجته، وكان هذا الرجل عجوزاً مثقفاً وضليعاً فى اللغات اللاتينية اليونانية، ومتعته الكبرى اختيار تعليق مناسب من الكلاسيكيات اللاتينية مطابق للحوار الدائر، وعلى الرغم من أن ذلك يسبب إحراجاً لكنه كان يغلق باب المناقشات، مما جعله أمراً لائقاً لا محرجاً، ولم يكن الرجل بحاجة إلى تعقيب على الجمل اللاتينية المملة الرتيبة، وكانت متعته فى ذكرها فقط دون انتظار تعليق.

كان يقول وهو ينظر إلى الحضور على المائدة فى سعادة:

"كما قال حورس....".

فننصت له، ثم نواصل الحوار:

"أعتقد أن السيدة هورسنول غشت فى سحب يا نصيب زجاجة العصير، لأن ابن أخيها ربحها".

كانت زوجة دين كالثروب امرأة لا تكترث لما يجرى حولها، وعيناها لماحتان، وظلت تتفرس فى وجه السيدة أوليفر وقالت لها فجأة:

"ما الذى كنت تتوقعين حدوثه فى هذا الاحتفال؟".

"توقعت جريمة قتل أو ما شابه".

بدا الاهتمام على وجه زوجة دين كالثروب وقالت:

"ولماذا قد تحدث؟".

"بلا سبب، لكن هذا الأمر قد حدث فى آخر حفل خيرى حضرته".

"فهمت، وهل أزعجك ذلك؟".

"جداً".

تحول السيد كالثروب فى كلامه من اللاتينية إلى اليونانية.

بعد برهة من الصمت، تشككت المربية ماكاليستر فى نزاهة سحب اليانصيب على البط الحى.

قال ديسبارد: "كان لطفاً من "لاج "العجوز من مقهى "كينجز آرمز "أن يرسل لنا

12 دستة من عبوات العصير لكشك الحفل الخيرى".

قلت بحدة: "مقهى كينجز آرمز؟".

قالت رودا: "إنه مقهى قريب من هنا يا عزيزى".

قلت لهم: أليس هناك مقهى آخر أخرى قريب من هنا؟". ثم توجهت إلى السيدة أوليفر وقلت لها: "ألم تقولى إن اسمه الجواد الأشهب؟".

لم يكن رد الفعل هو ما أتوقعه. فقد توجهت وجوههم نحوى بشكل مبهم ينم عن عدم الاكتراث.

قالت رودا: "الجواد الأشهب ليس مقهى حاليًا على ما أظن".

قال ديسبارد: "كان فندقًا منذ القرن السادس عشر على ما أعتقد، لكنه منزل عادى الآن وربما تغير اسمه".

قالت جنجر: "من الغباء أن اسمه صار "ويساید "أو "فيرفيو"، لأن اسم الجواد الأشهب أفضل بكثير واللافتة طريفة وقديمة، لكنهم علقوها الآن فى إطار داخل القاعة".

سألتها "من هم؟".

قالت رودا: "تملك المنزل الآن ثيرزا جراى. لا أعلم هل رأيتها فى حفل اليوم أم لا، إنها امرأة طويلة لها شعر رمادى قصير".

قال ديسبارد: "إنها امرأة غريبة الأطوار وتؤمن بالروحانيات وتحضير الأرواح والسحر، لكنها لا تمارس السحر الأسود، بل أشياء أقل ضررًا".

ضحكت جنجر بصوت عال فجأة.

ثم قالت معتذرة: "أنا آسفة، كنت أفكر فى الآنسة جراى، وكأنها الساحرة مدام دى مونتسبان فى مذبح مخملى أسود كما فى روايات الرعب!".

صاحت رودا: "جنجر! لا تقولى مثل هذه التفاهات أمام السيد كالثروب".

"آسفة يا سيد كالثروب".

قال وهو يبتسم: "لا بأس كما قال قدماء اليونان... "ثم ظل يتحدث باليونانية القديمة لبرهة من الوقت.

بعد أن صمتنا فى تقدير مصطنع لبلاغته وفصاحته، واصلت هجومى قائلاً: "مازلت أريد معرفة من "هم "ـ الآنسة جراى ومن معها؟".

هناك صديقة لها تعيش معها "سيبل ستامفورديس "وتعمل كوسيطة روحانية على

ما أظن، لابد وأنك رأيتها، كانت ترتدى الكثير من الخرز والجعارين كحلى حول ملابسها، وأحيانًا ترتدى زى السارى الهندى ـ لا أعرف لماذا ـ مع إنها لم تزر الهند قط من قبل".

قالت زوجة السيد كالثروب: "ثم هناك "بيلا "الطاهية، وهى أيضًا ساحرة شريرة وتنحدر من قرية "ليتل دانينج"، وسمعتها كساحرة معروفة هناك، وعائلتها كلها كانت من السحرة وكانت أمها ساحرة أيضًا".

كانت تتحدث بشكل تلقائى وهادئ.

قلت لها: "يبدو أنك تؤمنين بالسحر يا سيدة دين كالثروب".

"بالطبع! لا يوجد شىء سرى وغامض فى هذا، الأمر كله عادى، وهو تراث عائلى متوارث، فالأطفال تخبرهم أمهاتهم ألا يضايقوا قطة الساحرة، ويعطيها الناس من وقت لآخر جبنًا ومربى مصنوعة فى المنزل اتقاء لشرها".

نظرت إليها فى شك وبدت جادة جداً فى كلامها.

قالت رودا: "ساندتنا سيبل اليوم فى الحفل الخيرى بقراءة الطالع، وكانت فى الخيمة الخضراء، وكانت ماهرة جداً فى رأيى".

قالت جنجر: "لقد قرأت لى الطالع بشكل

ظريف: سأحظى بالمال، وسيدخل حياتى رجل وسيم من خارج البلاد، وسأتزوج مرتين وأنجب ستة أطفال، يا لها من قارئة طالع كريمة".

قالت رودا: "رأيت ابنة كورتس تخرج من الخيمة وهى تضحك وتعاملت مع صديقها بعدم اكتراث وقالت له إنه لن يكون الرجل الوحيد المتاح لها كما قالت قارئة الطالع".

قال زوجها: "يا لـ "توم "المسكين وهل عاد لقارئة الطالع".

نعم وقال لصديقته: "لن أخبرك بما قالته لى لأنه لن يروق لك!".

"حسنًا فعل توم".

قالت جنجر ضاحكة: "لقد انزعجت السيدة باركر وقالت "لا تصدقوا ما تقوله، لأنها حماقات "بيد أن السيدة كريبس صفرت لها وسخرت منها وقالت:

"تعلمين يا ليزى كما أعلم أن الآنسة ستامفورديس ترى ما لا يراه الآخرون، والآنسة جراى تعرف متى ستحدث حالة وفاة، ولم تخطئ أبداً! ودومًا تخيفنى. وقالت السيدة باركر: "الموت ـ شىء مختلف، إنه قدر". وقالت السيدة كريبس: "على أية

حال لن أهين أى واحدة من الثلاثة!".

قالت السيدة أوليفر فى أسى: "هذا يبدو مثيراً، أود مقابلتهم".

قال الكولونيل ديسبارد: "سنصطحبك إلى هناك

غداً، المكان القديم يستحق المشاهدة، وقد كانوا

ماهرين، وجعلوه مريحاً دون إفساد طبيعته الأثرية".

قالت رودا: "سأتصل بثيرزا صباح غد".

أعترف أننى ذهبت لفراشى وأنا أشعر بالراحة والهدوء.

الجواد الأشهب الذى بدا فى ذهنى رمزاً للشر المجهول اتضح أنه ليس مكاناً سيئاً ولا علاقة له بأى شر أو سحر.

إلا إذا كان بالطبع يوجد مقهى يسمى الجواد الأشهب فى مكان ما.

فكرت فى هذا الاحتمال حتى نمت.

2

شعرت بالاسترخاء فى اليوم التالى وكان يوم الأحد، إنه شعور الهدوء الذى يعم الأماكن بعد الحفلات، وعلى أرض الحديقة اهتزت الخيام والخيمة الكبرى ببطء مع النسيم المشبع بالرطوبة فى انتظار عمال النقل فى فجر اليوم التالى لحملها. وفى يوم الاثنين سنستعد لإحصاء أى خسائر وننظم الحديقة، واليوم قررت رودا بحكمتها أن نخرج لأطول وقت ممكن.

ذهبنا جميعاً إلى دار العبادة واستمعنا لخطبة السيد كالثروب التى تناولت نصاً يدور حول التاريخ الفارسى ولا علاقة له بالدين.

قالت رودا: "سنتناول الغداء عند السيد فينابلز، وستحبه يا مارك، فهو رجل مثير جداً، وذهب إلى كل مكان وفعل كل شىء ويعلم كل الأمور الباطنية الغريبة، واشترى منزل "برايرز كورت "منذ ثلاث سنوات، وجدده بشكل مبهر كلفه ثروة طائلة، وكان قد أصيب بشلل الأطفال مما جعله من المعاقين، فهو مشلول ويتحرك بكرسى ذى عجلات، لابد أن ذلك جعله حزيناً لكنه عوض ذلك بالترحال حول العالم، وهو ثرى ثراء فاحشاً وجدد منزله كما قلت لك ببذخ ـ لقد كان المنزل عبارة عن أطلال آيلة للسقوط، والآن ملىء بالتحف، فهو على ما أظن لا يفوت أى صالة مزاد علنى".

كان منزل برايرز كورت على بعد بضعة أميال، وركبنا السيارات إليه، وجاء

مضيفنا ليرحب بنا فى الصالة بنفسه على كرسى متحرك.

قال بود بالغ: "من اللطيف أن تأتوا جميعاً إلى هنا، لابد وأنكم متعبون من حفل الأمس، لقد كان حفلاً ناجحاً يا رودا".

كان السيد فينابلز فى الخمسين من عمره، ووجهه نحيل مثل الصقر وأنفه معقوف وبارز بشكل يوحى بالغرور والصلف، وكان يرتدى زياً قديماً له ياقة مفتوحة.

قدمتنا رودا له فرداً تلو الآخر.

ابتسم فينابلز للسيدة أوليفر وقال:

"قابلت هذه السيدة بالأمس وهى توقع رواياتها وابتعت ست روايات بتوقيعها لأهديها إلى ستة أشخاص فى عيد رأس السنة. إن رواياتك رائعة يا سيدة أوليفر، واصلى وأعطنا المزيد منها فأنا لا أشبع من رواياتك"، ثم ابتسم إلى جنجر وقال: "كدت تجعلينني أفوز بالبط الحى أيتها الشابة الجميلة". ثم اتجه لى وقال:

"استمتعت بمقالك فى جريدة الرفيو فى الشهر الماضى".

قالت رودا: "كان لطفاً كبيراً منك أن تحضر حفلنا الخيرى يا سيد فينابلز، بعد إرسالك الشيك بمبلغ ضخم كتبرع لنا، لم أتوقع أن تأتى بنفسك".

"أوه، أنا أستمتع دائماً بالحفلات الخيرية، إنها جزء من حياة الريف الإنجليزى، أليس كذلك؟ عدت من الحفل بدمية ربحتها ونبوءة رائعة غير واقعية للمستقبل نطقتها لى سيبل وهى ترتدى عمامة معدنية وحوالى طن من الخرز والجعارين المصرية المزيفة على جسمها".

قال الكولونيل ديسبارد: "سيبل العجوز العزيزة. سنتناول الشاى الساعة الخامسة مع ثيرزا اليوم، أليس المكان هناك قديماً ومثيراً؟".

"الجواد الأشهب؟ نعم، لكنى كنت أفضل لو تركوه فندقاً كما كان، وكنت أشعر دائماً أن للمكان تاريخاً غامضاً وشريراً، ولكن الأمر لا يتعلق بالتهريب، فهو ليس قريباً من البحر، ربما لجأ إليه قطاع الطرق مثلاً أو مسافرون أثرياء قضوا ليلة فيه ولم يعودوا أبداً. الآن يبدو مكاناً هادئاً كمجرد مسكن لثلاث عوانس عجائز".

صاحت رودا: "أوه ـ لا أفكر فيهم هكذا! سيبل ستامفورديس ربما ـ مع السارى والجعارين، ودوما ترى هالات القداسة حول رؤوس الناس ـ تبدو سخيفة، لكن ثيرزا تبدو مرعبة حيث تبدو كأنها تقرأ أفكارنا، أليس كذلك؟ وهى لا تتحدث عن قدرتها العجيبة هذه ـ لكن الجميع يشعر بها".

قال ديسبارد: "وبيلا، ليست عانساً عجوزاً لقد تزوجت مرتين ومات كلا الزوجين

منذ سنوات".

قال فينابلز ضاحكًا: "إذن استسمح منها العذر والمغفرة!".

قال ديسبارد: "لكن الإشاعات لدى الجيران تقول إنها مسئولة عن موتهما، ويقال إنهما أغضباها فركزت بصرها عليهما فمرضا بسرعة وذبلا وماتا!".

"ياه، نسيت أنها ساحرة شريرة".

"هذا رأى السيدة كالثروب".

قال فينابلز: "السحر شىء مثير، وفى كل مكان فى العالم له تنويعات مثيرة. أذكر مرة عندما كنت فى شرق أفريقيا...".

كان يتحدث بسلاسة واستمتاع عن هذا الموضوع وأمتعنا بقصة ساحر فى أفريقيا من قبيلة غير شهيرة فى بورنو، ووعدنا بعد الغداء أن يرينا أقنعة كان يملكها سحرة فى أفريقيا.

قالت رودا وهى تضحك: "منزلك يحوى كل شىء".

قال لها وهو يهز كتفيه بلا اكتراث: "حسنًا إن لم يكن بإمكانك الخروج لرؤية العالم، فيجب أن يأتى إليك ما تريدينه".

فجأة شعرت بمرارة عبارته التى قالها وخاصة عندما نظر لرجليه المشلولتين.

قال لنا: "العالم ملىء بالأشياء العجيبة، وإعاقتى هذه هى التى تمنعنى من معرفة كل شىء أريد معرفته كما ترون! لكنى أشبعت رغبتى بشكل كبير، والحياة تعوضنى كثيرًا حتى اليوم".

سألته السيدة أوليفر فجأة: "لماذا اخترت هذا المكان بالذات؟".

بدا الانزعاج على الآخرين، كما يحدث دائمًا عندما تخيم الكآبة والمأساة فى الجو، وبدت السيدة أوليفر الوحيدة التى لم تتأثر، وسألته لأنها أرادت أن تعرف فعلاً، وقد أدى فضولها الصريح إلى استعادة الجو المرح اللطيف.

نظر لها فينابلز باستغراب ودهشة.

قالت له: "أعنى لماذا أتيت لتعيش فى هذا الحى؟ بعيدًا عما يحدث؟ هل لأن لديك أصدقاء هنا؟".

"كلا إن كنت مهتمة بمعرفة ذلك، فلقد سكنت هنا لأنه ليس لى أصدقاء هنا".

انفرجت شفتاه وابتسم لها ابتسامة خفيفة ساخرة.

تساءلت عن عمق تأثير إعاقته على حياته. هل أثر فقدان حرية الحركة وحرية استكشاف العالم على روحه؟ أم تمكن من أن يتكيف مع الظروف المغايرة بهدوء ورباطة جأش نسبية ـ بروح عظيمة حقاً؟

فقال وكأنه قرأ أفكارى: "فى مقالك تساءلت عن معنى "العظمة "ـ وقارنت بين عدة معانٍ لهذا المصطلح فى الغرب والشرق. لكن ماذا نعنى هنا فى إنجلترا بقولنا: "هذا رجل عظيم؟".

قلت له: "عظيم من الناحية الفكرية والعقلية، بكل تأكيد، علاوة على القوة المعنوية".

نظر نحوى وعيناه تلمعان وقال:

"لكن لا يمكن أن نصف رجلاً شريراً بأنه عظيم؟".

صاحت رودا: "بل يمكن بالطبع، مثل نابليون وهتلر، وغيرهما الكثير، فقد كانوا كلهم عظماء".

قال ديسبارد: "هذا بسبب تأثيرهم على من حولهم، لكن إن عرفناهم شخصياً ـ أتساءل هل سننبهر بهم أم لا".

مالت جنجر للأمام وعبثت بأصابعها فى شعرها الأحمر وقالت:

"إنها فكرة مثيرة، ربما كانوا شخصيات ضعيفة تدعو للازدراء، تعرج وتتلعثم وتشعر بالنقص وتسعى للشهرة حتى وإن دمروا العالم حولهم؟".

صاحت رودا بحماس: "ياه، كلا، لو كانوا كذلك لما حققوا نتائج تاريخية مبهرة".

قالت السيدة أوليفر: "لا أعرف، لكن على أية حال أغبى أطفال أى أسرة قد يشعل النار فى المنزل بسهولة".

قال فينابلز: "هيا، هيا، لا يمكننى مجاراتكم فى الحديث عن قوى الشر وكأنه شىء غير موجود، الشر موجود فى كل مكان، وهو عنصر قوى فى الحياة، أكثر قوة من الخير أحياناً وهو موجود ويجب إدراكه ومحاربته وإلا... "ثم فرد ذراعيه واستأنف حواره: "وإلا سنغرق فى بحر لجى من الظلمات".

قالت السيدة أوليفر: "بالطبع نشأت على الإيمان بوجود الشيطان، لكنه يبدو لى دائماً سخيفاً الآن وكأنه ممثل سخيف درجة ثالثة يقفز بزى مضحك له قرون وحوافر وذيل. بالطبع لدى مجرمون عتاة فى رواياتى ـ كمما يحب القراء ـ لكن كتابة هذا الأمر فى كل مرة يزداد صعوبة أكثر وأكثر. ودائماً لا نعرف ما هو الشيطان ويبدو

المجرم وكأنه تجسيد للشيطان والشر ـ لكن يبدو أن ذلك ليس كافياً إلى حد ما، بل الأمر مخيب للآمال، ومن الأسهل فى الروايات أن نكتب عن مدير بنك اختلس عهدته من الأموال، أو زوج يريد التخلص من زوجته ليتزوج مربية أطفاله، فهذا شىء طبيعى أكثر ـ إن فهمتهم قصدى".

ضحك الجميع وقالت السيدة أوليفر معتذرة:

"أعلم أننى لم أتحدث عن فكرتى كما يجب لكنكم تفهمون مقصدى، أليس كذلك؟".

قلنا إننا جميعاً نفهم مقصدها تماماً.

الفصل السادس

رواية مارك ايستربروك

غادرنا منزل برايرز كورت بعد الساعة الرابعة. وبعد غداء لذيذ وشهى للغاية اصطحبنا فينابلز فى جولة فى جميع أرجاء منزله، واستمتع حقًا بإظهار ممتلكاته لنا ـ المنزل ملىء بالكنوز بمعنى الكلمة.

بعد أن خرجنا قلت لهم: "لابد وأنه فاحش الثراء حقًا، فلديه عقيق وأحجار كريمة وأعمال نحت أفريقية ـ ومجموعة مقتنيات ثمينة من كل أنحاء العالم، أنتم محظوظون لأنه جاركم".

قالت رودا: "نعلم ذلك، فمعظم جيراننا لطفاء جدًا ـ لكنهم مملون مقارنة بالسيد فينابلز المثرثر دائمًا".

قالت السيدة أوليفر: "وما مصدر ثروته؟ التجارة أم الإرث؟".

علق ديسبارد باستمتاع غريب ممزوج بالألم أن الناس لم تعد اليوم تتفاخر بالإرث بفضل ضرائب التركات التى تلتهم أى ميراث.

ثم أضاف قائلاً: "قال لى أحدهم إنه بدأ حياته كعتال فى الموانىء، لكن هذا غير محتمل، وهو لا يتحدث أبدًا عن طفولته أو أسرته". ثم اتجه إلى السيدة أوليفر وقال لها: "ها هو الرجل الغامض لك لتكتبى عنه ـ".

قالت السيدة أوليفر إن الناس تعرض عليها دائمًا الأشياء التى لا تحتاج إليها ـ.

كان "الجواد الأشهب "مبنى نصفه مبنى بالخشب (بالفعل على الطراز القديم وليس مزيفًا) ويبتعد قليلاً للوراء عن شارع القرية، وكانت خلفه حديقة مسورة مما أعطاه مظهرًا لطيفًا كمبنى من العالم القديم الأثرى.

لقد أحبطنى المكان ولم يف بتوقعاتى وأخبرتهم بذلك.

قلت لهم: "لا يبدو شريرًا بما يكفى، ولا يوجد به جو غامض".

قالت جنجر:"انتظر حتى تدخل المكان".

خرجنا من السيارة وتوجهنا إلى الباب الذى كان مفتوحًا عندما اقتربنا.

كانت الآنسة ثيرزا جراى واقفة على عتبة الباب، وكانت طويلة وجسمها يبدو ذكورياً وترتدى معطفاً

وتنورة، وشعرها رمادى خشن نبت من جبهة عريضة ولديها عنق طويل كبير وعيناها الزرقاوان الباهتتان لهما نظرات حادة تخترق ما تنظر إليه.

قالت بصوت منخفض رقيق: "ها قد حضرتم أخيراً، ظننت أنكم ضللتم الطريق".

خلف كتفها المدثرة بالمعطف ذى اللياقة الكبيرة شعرت بوجهها كأنه يطل من ظلال حجرة مظلمة. كان يبدو كوجه غريب جداً وكأنه بلا ملامح، كوجه شكله ونحته طفل بالعجين وهو يلعب فى مرسم نحات. كان نوعاً من الوجوه الذى تراه فى لوحات إيطالية أو فنلندية بدائية.

قدمتنا رودا إليها وشرحت لها أننا تأخرنا لأننا كنا نتناول الغداء فى منزل السيد فينابلز.

قالت الآنسة جراى: "آه! هذا يفسر الأمر! مع الطعام الشهى والآنية الفخمة وطاهيه الإيطالى! ومنزله الذى يشبه متحف الكنوز، يا للمسكين ـ يحب رفقة الناس ليتسلى فى وحدته، لكن هيا تفضلوا بالدخول، نحن فخورات بمنزلنا الصغير الذى يعود إلى القرن الخامس عشر ـ وأجزاء منه إلى القرن الرابع عشر".

كانت قاعة الاستقبال منخفضة ومظلمة وبها سلم لولبى يؤدى لأعلى، وكان هناك مدفئة واسعة وفوقها صورة فى إطار كبير".

قالت الآنسة جراى وهى تلاحظ نظراتى للصورة:

"إنها اللافتة القديمة للفندق. كان اسمه الجواد

الأشهب، لكن الضوء لا يظهرها جيداً هنا".

قالت جنجر: "دعينى أنظفها لك وسأدهشك".

قالت ثيرزا جراى: "أشك فى ذلك "ثم قالت

بحدة: "قد تدمرينها".

قالت جنجر مستاءة: "بالطبع لن أدمرها! إنه عملى وأنا متمكنة منه".

وشرحت لها قائلة: "أعمل فى معرض لندن الفنى، وعملى رائع جداً".

قالت ثيرزا: "ترميم الصور يحتاج للتعود عليه، وكل مرة أتعجب عندما أذهب للمعرض الفنى الوطنى هذه الأيام، كل الصور تبدو كأنها غسلت بأحدث مسحوق غسيل".

قالت جنجر معترضة: "لكنك لن تحبى اللوحات وهى مظلمة ولونها فقد رونقه".وحدقت فى اللافتة

وقالت: "ربما سيظهر التنظيف تفاصيل اللوحة، والجواد قد يكون له فارس".

شاركتها التحديق فى الصورة، كانت لوحة قديمة بدائية تبدو بلا قيمة عدا القذارة التى حولها وعمرها القديم، وهناك رسم كاحل السواد لحصان يلمع فى خلفية سوداء مبهمة.

صاحت ثيرزا: "يا سيبل، الضيوف يسيئون للجواد، فلتلعنى وقاحتهم!".

جاءت الآنسة سيبل ستامفورديس من الباب لتنضم إلينا.

كانت امرأة طويلة نحيلة لها شعر أسود فاحم يبدو غير لامع ودهنى، وتعابير وجهها تكسوها ابتسامة متكلفة، وفمها كفم السمكة.

كانت ترتدى ساريا له لون زمردى براق لكنه لم يحسن مظهرها، وكان صوتها خافتًا ومرتعشًا.

قالت: "حصاننا العزيز، لقد وقعنا فى غرام لافتة الفندق القديم منذ أن وقعت أبصارنا عليها، ربما هى التى أثرت علينا لنشترى المنزل، أليس كذلك يا ثيرزا ؛ هيا تفضلوا بالدخول".

كانت الحجرة التى قادتنا إليها صغيرة ومربعة مفروشة بسجاد ثمين وكانت حجرة الجلوس لإحدى السيدات صاحبات المنزل، ومبنية على طراز ريفى وكان هناك أطباق منقوشة بزهرة الأقحوان.

ثم اصطحبتنا إلى الخارج لنرى الحديقة، وهى رائعة جدًا فى جو الصيف، ثم عدنا للمنزل لنجد أنه تم إعداد الشاى. كان هناك شطائر وكعك معد فى المنزل، وعندما جلسنا جاءت المرأة العجوز التى حدقت فى وجهها فى القاعة وهى تحمل إناء الشاى الفضى وكانت ترتدى معطفًا كبيرًا أخضر غامقًا بدون نقوش، ورأيتها عن قرب وتأكدت من فكرتى بأن وجهها كان كالصلصال شكله كطفل صغير بشكل عبثى، وكان وجهها بدائيًا وبلا ملامح، لكنى لا أعرف لماذا أشعرنى أنها شريرة.

فجأة غضبت من نفسى. كل هذا الهراء عن الفندق القديم الذى تحول لمنزل لثلاث نساء فى منتصف العمر!

قالت ثيرزا: "شكرًا يا بيلا".

"هل لديك كل ما تريدين؟".

جاء صوتها كهمس مسموع بالكاد.

"نعم، شكراً لك".

خرجت بيلا من الباب، ولم تنظر لأى شخص، لكن قبل أن تخرج تماماً رفعت رأسها ونظرت لى خلسة بنظرة سريعة، وقد أفزعتنى نظرتها تلك ـ لكنى لا أعرف لماذا. كانت نظرة كلها خبث وكأنها تعرفنى جيداً وبشكل غريب، وشعرت أنها قرأت أفكارى بسهولة بدون فضول أو تخمين.

لاحظت ثيرزا جراى رد فعلى وقالت برقة:

"بيلا لا تكترث لأحد يا سيد ايستربروك، لكنى لاحظت نظرتها لك". حاولت جاهداً أن يبدو اهتمامى مهذباً: "إنها من الريف على ما أظن أليس كذلك؟".

"نعم، قطعاً سمعت أنها ساحرة المنطقة".

حركت سيبل ستامفورديس الخرز الملون فى أثوابها وقالت:

"اعترف الآن يا سيد ـــــــ سيد ـــــــ".

"ايستربروك".

"... يا سيد ايستربروك إنك سمعت أننا ساحرات ولدينا سمعة شهيرة فى المنطقة، اعترف الآن".

قالت ثيرزا وكانت تبدو مستمتعة: "ربما كانت سمعة مستحقة، لأن سيبل لديها مواهب مدهشة".

تنهدت سيبل بلذة.

ثم همست، قائلة: "كان يجذبنى دائماً كل ما هو غريب، وحتى حينما أدركت قواى غير العادية، وتعلمت الكتابة تلقائياً بدون أن يعلمنى أحد، لم أكن أعلم ماذا كنت أفعل عندما أمسكت القلم! فجأة كان القلم فى يدى ووجدت نفسى أكتب. بالطبع كانت حساسيتى فائقة جداً، ذات مرة تعرضت للإغماء عندما تناولت الشاى فى منزل صديقتى، وشعرت أن شيئاً مريعاً قد حدث فى هذه الحجرة... كنت أعلم ذلك ؛ لاحقاً عرفنا تفسير ما حدث فقد وقعت فى هذه الحجرة جريمة قتل منذ خمسة وعشرين عاماً!".

أومأت برأسها ونظرت لنا جميعاً بنظرة رضا كبير. قال الكولونيل ديسبارد بشكل مهذب يدل على استيائه: "يا له من شىء غريب".

قالت سيبل بغموض: "حدثت فى هذا المنزل أمور شريرة، لكننا اتخذنا الإجراءات اللازمة وطردنا الأرواح الشريرة من المنزل".

قلت لها: "هل الأمر يشبه تنظيف المنزل من الأتربة لكنه روحانى؟".

نظرت لى بشك كبير وقالت لها رودا:

"يا له من سارٍ لطيف وجميل ذلك الذى ترتدينه!".

سعدت سيبل وانفرجت أسارير وجهها وقالت:

"نعم، ابتعته عندما كنت فى الهند، حظيت بوقت رائع هناك، واستكشفت عالم اليوجا والتأمل وكل ما إلى ذلك، لكنى لم أقاوم الشعور بأن كل هذه الأمور معقدة جداً ـ ليست قريبة من كل ما هو طبيعى وبدائى. يجب على المرء العودة للجذور الأصلية، وليس كما يطلق عليها هذه الأيام البدائية الأولية. أنا من النساء القليلات ممن زرن جزيرة "هايتى"، وهناك يلمس المرء فعلاً المنابع الأصلية لما هو غريب فى عالم السحر الغامض، لكن تعتريه كمية محددة من الفساد والتشويه، بيد أن جذور الغموض مازالت هناك.

رأيت الكثير هناك، وخاصة عندما علموا أن لى أختين توأم أكبر منى، لأن الطفل الذى يولد بعد التوأم له قوى خاصة كما أخبرونى، وإنه لأمر مثير، أليس كذلك؟ رقصات الموت هناك رائعة، وموكب الموت والجماجم ومسيرة الموتى والعظام المتشابكة، وأدوات حفارى القبور مثل الجاروف وغيره من الأدوات المستخدمة فى الحفر، وزى الحانوتى الأسود... وقبعته السوداء التى يرتديها".

والأستاذ الكبير العظيم فى هذا المجال هو البارون ساميدى".

"والآن إليكم هذا". ثم قامت وأحضرت شيئًا من رف النافذة. "هذا هو الآسون، عبارة عن ثمرة قرع مجففة عليها شبكة من الخرز الملون وهل ترون هذه الأجزاء؟ ـ إنها عمود فقرى مجفف لثعبان".

نظرنا من باب الأدب لكن بدون حماس.

حركت لعبتها البشعة بحب مبالغ فيه.

قال ديسبارد بأدب جم: "شىء مثير فعلاً".

"يمكننى إخباركم بالمزيد....".

سرحت بخيالى فى هذه اللحظة، وبدت كلمات سيبل لى خيالية وكأنها تأتى من على بعد كالأطياف، وظلت هى تخبرنا ببعض ما تعرفه عن السحر وخاصة سحر الفودو ـ والسحرة من عائلة الميتركارفور وعائلة جيديه وسحر الكوا...

استدرت برأسى ووجدت ثيرزا تنظر لى نظرة كلها حيرة وتساؤل.

همست لى: "أنت لا تصدق أى شىء مما تسمع أليس كذلك؟ لكنك مخطئ، فلا يمكنك تفسير أى شىء على أنه مجرد خرافات أو خزعبلات أو تعصب دينى، بل هى

حقائق وقوى حقيقية ملموسة، وكانت دائمًا كذلك وستظل كذلك إلى الأبد".

قلت لها: "لا يمكننى مناقشة ذلك الأمر وتفنيده".

"يا لك من رجل حكيم، تعال لترى مكتبتى".

تبعتها عبر الباب ذى الطراز الفرنسى المؤدى إلى الحديقة.

قالت لى: "لقد صممنا المكتبة فى مكان الإسطبلات القديمة".

كان الإسطبل والمبانى الخارجية قد تم إعادة تصميمها كقاعة واحدة كبرى، وكان هناك حائط طويل كبير كله ملىء برفوف الكتب، ونظرت عبر عناوينها وصحت فى دهشة:

"لديك كتب نادرة جدًا هنا يا آنسة جراى، يا إلهى لديك تحف وكنوز نادرة، هل هذه نسخة أصلية من "ماليوس ماليفيكودوم "باللغة اللاتينية؟".

"نعم لدى كنوز من الكتب، أليس كذلك؟".

"وهذا كتاي جريموار ـ نادر جدًا فعلاً". كنت أسحب كتابًا تلو الآخر من الرفوف وكانت ثيرزا تراقبنى ـ ولم أفهم سر رضاها الهادئ الآن.

وضعت كتابًا لاتينيًا آخر بعنوان "سادوكيسموس تريو مفاتوس "على الرف مرة أخرى وهى تقول لى: "من النادر أن أقابل أحدًا يقدر كنوزى، لأن معظم من يرى مكتبتى يتثاءب من الملل، أو يتحدث فى دهشة مصطنعة".

قلت لها: "لا يوجد أى كتاب عن السحر لا تعرفينه، لكن ما الذى جعلك تهتمين بالسحر فى المقام الأول؟".

"من الصعب معرفة ذلك الآن... كان ذلك منذ زمن طويل... قد ينظر المرء لشىء ما بلا اكتراث ـ ثم فجأة ـ يستحوذ عليه هذا الشىء! إنها دراسة مدهشة، الكتب تحوى كل ما يؤمن به الناس ـ والسخافات والحماقات التى يؤمنون بها!".

ضحكت على جملتها.

قلت لها: "هذا لطيف حقًا، يسعدنى أنك لم تصدقى كل ما قرأت".

قالت "لا تحكم علىّ مثل سيبل المسكينة، لاحظت أنك تنظر إليها بجفاء وكأنك أعلى منها شأنًا ومكانة! أنت مخطئ، فهى امرأة سخيفة وخرقاء من نواحٍ كثيرة فعلاً ـ فهى تمارس سحر الفودو وتسخير الشياطين والسحر الأسود وتمزج الثلاثة بشكل غريب لتكون المحصلة النهائية رهيبة ـ لكنها تملك قوى خاصة".

"قوى خاصة؟".

"لا أعرف تسمية أخرى .... هناك أناس يشبهون الجسر الحى بين هذا العالم وعالم القوى الغامضة الغريبة. وسيبل من هؤلاء الناس فهى وسيط روحانى من الدرجة الأولى، ولا تفعل ذلك من أجل المال، لكن موهبتها استثنائية، وعندنا هى وأنا وبيلا....".

"بيلا؟".

"نعم، بيلا لها قواها الخاصة، وكلنا لدينا قوى خاصة بدرجات متفاوتة، وكفريق واحد....".

ثم صمتت فجأة.

قلت لها بابتسامة: "شركة الساحرات المتحدة ذات مسئولية محدودة؟".

"يمكنك أن تقول ذلك".

نظرت للكتاب فى يدى وقلت لها.

"تنبوءات نوستراداموس وغيره".

"نعم".

قلت لها بهدوء: "هل تؤمنين بذلك حقًا؟".

"لا أؤمن بل أعرف".

كانت تتحدث بنبرة الانتصار ـ ونظرت إليها قائلاً:

"لكن كيف؟ كيف ذلك؟ ولماذا؟".

لوحت بيدها عبر أرفف الكتب وقالت:

"كل هذا! معظمه هراء! مجرد عبارات منمقة مبهرة لكنها جوفاء! لكن بعد استبعاد الخرافات وتحيزات كل عصر تجد أن الحقيقة فى لب الموضوع! وحولها قشور جوفاء لتبهر الناس ـ فالحقائق دائمًا مغلفة بالقشور".

"لست متأكدًا مما إذا كنت أفهمك أم لا".

"ألا تعلم يا سيدى العزيز لماذا يذهب الناس على مختلف العصور إلى السحرة؟ هناك سببان فقط حقًا. هناك شيئان فقط قد يجازف المرء بأن تقع عليه اللعنة ليستحوذ عليهما: الحب أو السم".

"آه".

"شىء بسيط، أليس كذلك؟ الناس تريد من الساحر الحب والموت ـ الحب لتحصل الفتاة على فتى الأحلام ـ وتحافظ على حبه لها، برشفة تؤخذ عند اكتمال القمر،

وتلاوة أسماء الشياطين للأرواح، ورسم الأشكال الشيطانية على الجدران والأرضية ـ كل هذا هراء، الحقيقة أن هذه الرشفة منشطة جنسيًا!".

سألتها: "والموت؟".

ضحكت بعصبية مما جعلنى أشعر بعدم الراحة

وقالت: "الموت؟ إذن أنت مهتم بالموت؟".

قلت لها بدون إظهار الاهتمام: "ومن منا لا يهتم بالموت؟".

نظرت لى بحدة وكأنها تفتش أعماق أفكارى مما أفزعنى وقالت: "أتساءل من فعلاً لا يهتم. الموت كان سبب تجارة السحر الرابحة أكثر من الحب، ومع ذلك ـ كم كان الأمر طفوليًا فى الماضى! كانت عائلة بورجيا لها سم شهير وسرى لا يترك أثرًا، هل تعرف ماذا كانوا يستخدمون حقًا؟ زرنيخ أبيض عادى! كأى شخص يدس سمًا لزوجته فى الحوارى والشوارع الخلفية. لكننا تقدمنا الآن عن الماضى، والعلم قام بتوسيع جبهتنا".

كان صوتى يملؤه الشك وقلت: "بسموم ليس لها أثر؟".

"سموم! هذه لعبة قديمة، حيل طفولية، هناك آفاق واسعة جديدة".

"مثل ماذا؟".

"العقل، معرفة تكوين العقل ـ ما يمكن أن يقوم به وكيف يمكن التأثير عليه ليفعل ما تريد!".

"من فضلك واصلى هذا الحوار. إنه ممتع".

"المبدأ معروف، استخدمه سحرة أفريقيا فى المجتمعات البدائية منذ قرون طويلة، أنت لن تحتاج لقتل الضحية بل كان ما تحتاج إليه هو ـ أن تخبره بأنه سيموت".

"إنها قوة الإيحاء لكن لن تفلح الحيلة إلا إذا صدقك الضحية".

صححت لى قائلة: "تعنى أنها لا تصلح مع الأوروبيين، بل تفلح أحيانًا، لكن ليست هذه النقطة المهمة، لقد تقدمنا على نقطة السحرة القدماء، ولكن هذا بفضل علماء النفس. الرغبة فى الموت! إنها متوفرة لدى كل الناس! فلتعمل على إحيائها! إحياء الرغبة فى الموت".

قلت لها: "إنها فكرة مثيرة". كنت أتحدث بشكل يوحى بالاهتمام العلمى: "أى أنك تؤثرين على الضحية لينتحر، أليس كذلك؟".

"أنت مازلت متأخرًا فى تفكيرك، هل سمعت عن الأمراض التى تحدث نتيجة

الصدمة؟".

"بالطبع".

"هناك من يمرضون بالفعل بسبب رغبة فى العقل الباطن لتجنب العودة للعمل مثلاً. ليس ادعاء المرض ـ بل هو مرض حقيقى له أعراضه وآلامه، وهذا يحير الأطباء حتى الآن، ومنذ وقت طويل".

قلت ببطء: "بدأت أفهم مقصدك".

"لتدمير الضحية يجب بذل القوى على العقل الباطن، يجب تحفيز الرغبة فى الموت، وهى رغبة دفينة لدينا جميعًا: قالت بحماس زائد: "ألا ترى؟ يمكن حدوث مرض حقيقى بسبب رغبة الموت الدفينة، قد تتمنى أن تمرض وتموت فيحدث ذلك بالفعل".

رفعت رأسها وهى ظافرة الآن، وشعرت أنا بالبرد والرعب فجأة، كل هذا هراء بالطبع، وهذه المرأة بها مس من الجنون..... ولكن.....".

ضحكت ثيرزا جراى فجأة وقالت:

"أنت لا تصدقنى، أليس كذلك؟".

"إنها نظرية مثيرة يا آنسة جراى ـ متماشية مع الفكر الحديث، أعترف لك بذلك، لكن كيف تحفزين رغبة الموت التى نملكها جميعًا؟".

"هذا هو سرى، الطريقة! الوسيلة! هناك تواصل بدون اتصال مباشر، كأنك تشبه الرادار أو اللاسلكى أو التلفاز. تجارب الإدراك الخارج عن نطاق الحواس لم تتقدم ؛ لأن الناس لم تدرك أو تفهم أول مبدأ بسيط. وقد يحدث ذلك أحيانًا بالصدفة ـ لكن عندما تعرف الطريقة يمكنك تكرارها كلما تريد.....".

"وأنت تعرفين الطريقة؟".

لم تجبنى على الفور ـ ثم قالت وهى تبتعد عنى:

"لا تسألنى يا سيد ايستربروك، لا تطلب منى البوح بكل أسرارى".

تبعت خطواتها نحو باب الحديقة.

قلت لها: "لماذا أخبرتنى بكل ذلك؟".

"أنت تفهم كتبى، وأحيانًا يحتاج المرء للتحدث مع أحد كما أنه....".

"ماذا؟".

"خطر ببالى ـ أنا وبيلا ـ أنك قد تحتاج إلينا".

"أحتاج إليكم".

"بيلا نادراً ما تخطئ ـ قالت إنك جئت إلينا ـ لتجدنا".

"لماذا أريد أن "أجدكم "وفقًا لتعبيرك؟".

قالت برقة: "هذا ما لم أعرفه ـ حتى الآن".

الفصل السابع

رواية مارك ايستربروك

1

قالت رودا: "ها أنتم! تساءلنا أين كنتما". دخلت رودا من الباب المفتوح، وتبعها الآخرون من خلفها ونظرت حولها وقالت: "هل هذا مكان جلسات تحضير الأرواح ؟".

ضحكت ثيرزا بمرح وقالت: "أنت تعلمين كل شيء، فالناس فى الريف يعلمون كل شيء عن شئونك أكثر منك، ولدينا سمعة رائعة كشريرات كما سمعت، ومنذ 100 عام كان المصير الغرق أو العوم أو الحرق. عمتى الكبرى من أسلافى ـ أو أسلاف أسلافى ـ حرقت حية كعقاب لها لكونها ساحرة، على ما أظن فى أيرلندا. كم كانت أيام رائعة!".

"لطالما ظننت أنك أسكتلندية ؟".

"أبى ينحدر من أصل أسكتلندى ـ وبالتالى لدى رؤية ثاقبة، ووالدتى من أصل أيرلندى. لكن سيبل تنحدر من أصول يونانية أما بيلا فتمثل الأصول الإنجليزية القديمة".

قال كولونيل ديسبارد: "يا له من خليط إنسانى مروع!".

"على رسلك".

قالت جنجر: "وممتع!".

نظرت إليها ثيرزا بسرعة وقالت:

"نعم، إنه ممتع إلى حد ما"، ثم اتجهت إلى السيدة أوليفر وقالت: "يمكنك كتابة رواية عن جريمة قتل بالسحر الأسود، ويمكننى إطلاعك على تفاصيل كثيرة مثيرة فى هذا الصدد".

لمعت عينا السيدة أوليفر وبدت محرجة وقالت بلهجة اعتذار:

"لا أكتب سوى عن جرائم القتل العادية".

كانت نبرة صوتها وكأنها تقول: "أنا أطهو طهواً عادياً فقط". ثم أضافت: "كتب فقط عن أناس يريدون التخلص من أناس آخرين بشكل ذكى".

قال ديسبارد: "جرائمك ترتكب بطرق فائقة الذكاء بالنسبة لى لدرجة أننى لا أستطيع فهمها"، ثم نظر إلى ساعته وقال: "رودا، يجدر بنا الذهاب.....".

"ياه، نعم، يجدر بنا الرحيل، الوقت تأخر أكثر مما ظننت". تبادلنا التحيات والوداع والشكر، ولم نعد إلى البيت للخروج من حيث جئنا، بل توجهنا للبوابة الجانبية.

وقال ديسبارد: "لديكم الكثير من الدواجن "ونظر إلى الحظيرة المحاطة بالأسلاك.

قالت جنجر: "أنا أكره الدجاج، فهى تصدر صوتًا بشكل مزعج للغاية".

قالت بيلا فجأة: "معظمها من الديوك".

كانت قد جاءت من الباب الخلفى.

قلت لها: "ديوك بيضاء".

قال ديسبارد: "طيور المائدة ؟".

قالت بيلا: "إنها مفيدة لنا".

اتسع فمها بانحناءة طويلة عبر وجهها عديم الملامح المنفوخ وكانت عيناها بهما نظرة خبث.

قالت ثيرزا بعدم اكتراث: "إنها تخص بيلا".

تبادلنا عبارات الوداع، ثم ظهرت سيبل ستامفورديس من الباب الأمامى المفتوح لتشترك فى توديع الضيوف.

بعد أن انطلقنا بالسيارة قالت السيدة أوليفر: "أنا لا أحب هذه المرأة أبدًا!".

قال ديسبارد بشكل مقنع: "لا تأخذى كلام ثيرزا العجوز على محمل الجد، فهى تستمتع باستعراض كل ما تعرفه لترى تأثيره على الناس".

"لم أكن أعنيها، فهى امرأة عديمة الأخلاق فقط، ولها عينان حادتان تنتهز الفرصة كلما حانت، لكنها ليست خطيرة مثل المرأة التى أقصدها".

"بيلا ؟ إنها غريبة الأطوار بعض الشىء، أعترف بذلك".

"لم أعنها هى الأخرى، بل أعنى سيبل، فهى تبدو مجرد امرأة سخيفة، بكل الخرز والقماش الملفوف حول جسمها وسحر الفودو وتناسخ الأرواح الذى أخبرتنا به (لماذا لا تحل روح خادمة مطبخ أو فلاحة عجوز قبيحة فى جسد شخص آخر ؟ دائماً ما تحل

روح أميرات مصر الفرعونية أو الإماء البابلين الحسان. شيء غريب ومثير للريبة) لكن على أية حال، على الرغم من غبائها أعتقد أنه بإمكانها القيام بأشياء رهيبة حقًا ـ وتجعل حدوث أمور غريبة ممكنًا. دائمًا أعبر عما بداخلى بشكل سيئ ـ لكن أعنى أنه قد يستغلها أحد ـ أو شيء ـ بتلك الطريقة لأنها شخصية سخيفة جدًا: ولا أظن أن أحدًا منكم يفهم قصدى". قالت تلك العبارة الأخيرة بطريقة تدل على التعاطف معنا.

قالت جنجر: "أنا أفهمك، ولن أتساءل هل أنت محقة أم لا".

قالت رودا بأسى: "يجب أن تحضرى إحدى جلساتها لتحضير الأرواح، إنه أمر ممتع جدًا".

قال ديسبارد: "كلا، لا تفعلى ذلك، لا تورطى نفسك فى شيء من هذا النوع".

ظلوا يتمازحون ويتناقشون بمرح، أما أنا فلم أنتبه إليهم إلا عندما سألت السيدة أوليفر عن مواعيد قطارات الصباح لليوم التالى.

قلت لها: "لماذا لا تعودين معى فى السيارة ؟".

نظرت إلى بشك وقالت:

"أفضل أن أستقل القطار و....".

"هيا، لقد قدت بها السيارة من قبل، فأنا سائق يعتمد عليه".

"لا أقصد عكس ذلك يا مارك، لكن يجب أن أذهب للعزاء غدًا، ولا يجب أن أتأخر فى عودتى للمدينة"، ثم تنهدت قائلة: "أنا أكره الذهاب إلى الجنازات".

"وهل يجب عليك الذهاب ؟".

"نعم، أظن أنه يجب الحضور هذه المرة، كانت مارى دولافونتين صديقة عزيزة لى منذ زمن طويل ـ وكانت من الأشخاص الذين يحرصون على الرسميات، وكانت تريد حضور جنازتها عندما تموت".

صحت بها: "نعم، بالطبع، دولافونتين!".

حدق لى الجميع فى دهشة:

"أنا آسف، كنت.... فقط ـ أتساءل متى سمعت اسم دولافونتين مؤخرًا، هل ذكرته لى ذات مرة ؟". نظرت إلى السيدة أوليفر وقلت: "قلت لى إنك ستزورينها فى المستشفى ؟".

"أحقًا ؟ ـ غالبًا هذا هو ما حدث".

"ما سبب وفاتها ؟".

تعمقت تجاعيد وجهها وقالت:

"التهاب متعدد فى الأعصاب أدى إلى التسمم".

نظرت جنجر نحوى بفضول وبنظرة حادة.

وبينما نخرج من السيارة قلت فجأة:

"أعتقد أننى سأذهب للسير قليلاً، فبعد كميات الطعام الكثيرة التى تناولتها، والشاى والكعك الرائع، فإن ذلك، يستدعى السير قليلاً للهضم".

سرت بسرعة قبل أن يعرض أحدهم اصطحابى. كنت بحاجة ماسة إلى أن أكون بمفردى لأرتب أفكارى.

ما الخطب ؟ ما الأمر ؟ يجب أن أستوضح الأمر لنفسى على الأقل، بدأ الأمر بتعليق عابر مفزع من بوبى عندما قالت: "إن أردت التخلص من أحد يجب أن تذهب إلى الجواد الأشهب".

بعد ذلك قابلت جيم كوريجان، ورأيت قائمة الأسماء معه ـ وكلها متعلقة بموت رجل دين يدعى السيد

جورمان، وكان فى القائمة اسم هيسكيت ـ دوبوا وتاكرتون، مما جعلنى أتذكر ليلتى فى مقهى تونى، وها هو الآن اسم دولافونتين يبدو لى مألوفًا على نحو مريب. كانت السيدة أوليفر هى من ذكرته وهو متعلق باسم صديقتها التى كانت مريضة، وهى الآن ميتة.

على أية حال، لسبب غامض توجهت إلى بوبى فى متجر الزهور لمعرفة المزيد منها وأواجهها لكنها أنكرت بكل غرابة أى معرفة بمكان يدعى الجواد الأشهب، والأغرب أنها كانت خائفة من شىء ما.

لكن بالتأكيد كان الجواد الأشهب وساكنوه شيئًا، وقائمة الأسماء شيئًا آخر منفصلاً تمامًا ولا رابط بينهما. فلماذا أجمع بينهما فى ذهنى إذن ؟

لماذا أتخيل ولو للحظة أن ثمة صلة بينهما ؟ من المفترض أن السيدة دولافونتين كانت تعيش فى لندن، وتوماسينا تاكرتون فى "سرى "ولا أحد فى القائمة مرتبط بقرية "ماتش ديبنج "الصغيرة ـ إلا إذا...".

كنت مارًا بالصدفة بمقهى "كينجر آرمز "وهو مقهى له مظهر حديث وجذاب، وعلى خارج البوابة إعلان مرسوم حديثًا عن أسعار الوجبات والشاى.

دفعت الباب لأفتحه ودخلت، كان المقهى لم يفتح أبوابه بعد، وكان على يسارى جانب مغلق وعلى يمينى أريكة صغيرة رائحتها دخان مكتوم للسجائر، وعلى السلم

كانت هناك لافتة: "مكتب خاص "وكان عبارة عن نافذة زجاجية مغلقة بإحكام، وعليها بطاقة مطبوعة تقول: "اضغط على الجرس"، كل المكان كان مهجوراً فى هذا الوقت من اليوم وكأنه هكذا دائماً. على رف بجوار نافذة المكتب كان هناك سجل أسماء الزائرين ممزق ومهترئ، فتحته وقلبت بين صفحاته، لم يكن الزبائن كثيرين ممن يتوافدون على المكان مجرد 5 ـ 6 أسماء فى الأسبوع وليلاً فقط، وقلبت الصفحات مرة أخرى لأدرسها.

سرعان ما أغلقت السجل، ولم يدخل أحد إلى المقهى، ولم تكن هناك أسئلة أحتاج لطرحها فى تلك المرحلة، فخرجت للجو الرطب فى فترة ما بعد الظهيرة.

هل كان من قبيل المصادفة أن يجىء إلى هذا المكان فى العام الماضى من يدعى ساندفورد وآخر يدعى باركنسون ؟ كان كلا الاسمين فى قائمة كوريجان، لكنها أسماء شائعة جداً. بيد أنى لاحظت اسم آخر هو مارتين ديجبى، كان رجلاً أعرفه، كان ابن أخ أمى بالكفالة ـ السيدة هيسكث ـ دوبوا.

سرت بخطوات واسعة ولا أعرف إلى أين ستقودنى قدماى. انتابتنى رغبة عارمة فى أن أتحدث مع شخص ما. جيم كوريجان أو ديفيد أردينجلى أو هرميا بهدوئها ورزانة عقلها. ظللت وحدى فى بحر لجى من الأفكار المشوشة ولم أرغب أن أكون وحدى الآن. كل ما أريده بكل صراحة شخص يجادلنى ليخرجنى مما أفكر فيه.

بعد حوالى نصف ساعة من التسكع فى الشوارع المليئة بالطين اتجهت لبوابة دار العبادة، وسرت عبر ممر السيارات التى كانت حالته متدهورة وجذبت جرساً يعلوه الصدأ بجوار الباب.

2

ظهرت السيدة كالثروب فجأة من الباب كالجنى بشكل غير متوقع وقالت:"الجرس معطل ولا يرن".

كنت قد فطنت إلى ذلك.

قالت لى: "أرسلت فى طلب من يصلحه مرتين، لكنه يتعطل مرة أخرى بعد إصلاحه، وبالتالى أظل متيقظة، فى حالة قد يزورنا أحد لأمر مهم. لديك أمر مهم، أليس كذلك ؟".

"حسنًا، نعم ـ أمر مهم ـ أعنى بالنسبة لى".

"هذا كان مقصدى أيضًا... "نظرت لى بتفكير عميق وأضافت: "نعم أرى ذلك بوضوح، إنه حدث جلل ـ من تريد ؟ كالثروب؟".

"أنا... لست متأكداً...."

كنت أريد زوجها كالثروب ـ لكن الآن شعرت فجأة بالشك، لا أعلم لماذا بالضبط، لكنها قالت لى على الفور:

"إن زوجى طيب جداً، بجانب عمله كرجل دين، الذى يعقد الأمور أحياناً، لأن الطيبين كما يقال لا يفهمون الشر حقاً". ثم صمتت لبرهة وقالت بكفاءة وبسرعة: "ربما من الأفضل أن تتحدث معى".

انفرجت شفتى عن ابتسامة باهتة خفيفة وقلت لها: "هل الشر تخصصك ؟".

"بكل تأكيد، من المهم أن تعرف زوجة رجل الدين كل شىء عن الخطايا المختلفة المتنوعة التى تقع".

"لكن أليست الخطايا تخصص زوجك ؟ عمله الرسمى كما أظن ؟".

صححت لى قائلة: "غفران الخطايا، يمكنه أن يعطيك طريقة لغفران الذنوب وتطهيرك منها، ولا يمكننى ذلك"، ثم أضافت بمرح كبير: "غير أننى أرتب له الخطايا وأصنفها، ومن يعرف الأمر يمكنه منع إلحاق الأذى بالآخرين، لكنى لا أساعد الناس أنفسهم بل الله يساعدهم، والكل يتوجه له من أجل التوبة، لكن كما تعلم ـ وربما لا تعلم ـ أن الناس لا يتوجهون كثيراً لربهم الآن".

قلت لها: "لن أنافسك فى الجدال أمام خبرتك وعلمك، لكن أتمنى منع إلحاق الأذى والضرر للغير".

نظرت لى بسرعة وقالت:

"الأمر هكذا، أليس كذلك ؟ ادخل وسترتاح حالاً".

كانت حجرة الجلوس فى تلك الدار كبيرة ورثة ومتهالكة، وحولها شجيرات ضخمة فيكتورية الطراز، ولم يكترث أحد بتهذيبها لكن الضوء الخافت لم يكن كئيباً اليوم، بل على العكس كان يعطى الإحساس بالراحة، والمقاعد المهترئة تعطى الانطباع بأن عدداً كبيراً من الناس جاءت هنا عبر السنوات لتعترف بخطاياها. كانت هناك ساعة حائط ضخمة تحت المدخنة، ولها دقات منتظمة عالية الصوت ومريحة إلى حد ما. هناك انطباع عام أنه مكان مناسب، وبه وقت كاف دائماً لتتحدث وتبوح بمكنون قلبك، وتسترخى من الهموم التى جلبتها لك الأيام المضنية خارج هذا المكان.

شعرت أنه قد جاءت إلى هذا المكان فتيات باكيات يعترفن باقترافهن الخطايا، وأباحت كل واحدة منهن بسرها ومتاعبها للسيدة كالثروب وتلقين نصائح سديدة، حتى وإن لم تكن دينية دائماً، كما قد جاء إلى هذا المكان أقارب غاضبون وأباحوا مستاءين من أصهارهم، وشرحت الأمهات أن طفلهن ليس سيئاً بل مرحاً وصاخباً أكثر من اللازم،

وإرساله لمدرسة بعيدة ذات صيت فكرة سخيفة. ربما جاء أيضًا إلى هنا أزواج وزوجات يشكون من متاعب الحياة الزوجية، وأباحوا بكل أسرارهم الشخصية.

وهأنذا، مارك ايستربروك العالم، المؤلف، الخبير فى شئون الحياة، أقف فى مواجهة امرأة شعرها رمادى ووجهها ملىء بالتجاعيد وعيناها لمحاتان، ومستعد للبوح لها بكل مكنون صدرى مما يقلقنى ويتعبنى. لماذا ؟ لا أدرى. لكنى شعرت بشكل قاطع وغريب أننى أتحدث مع الشخص المناسب.

قلت لها: "تناولت الشاى للتو مع ثيرازا جراى".

لم يكن شرح ما حدث للسيدة كالثروب صعبًا ؛ لأنها سريعة البديهة ولديها قدرة رائعة على الفهم.

"آه، فهمت، هذا ما يزعجك ؟ هناك تفاصيل كثيرة، أنا متفقة معك فى ذلك، فلقد تساءلت أنا نفسى.... الكثير من الغرور والتفاخر الأجوف كقاعدة عامة، ومن واقع خبراتى، فإن الأشرار حقًا لا يتفاخرون، بل ويتكتمون على شرهم. عندما تكون خطاياك ليست سيئة جدًا تحب الحديث عنها جدًا. الخطايا شىء مخز وحقير وبائس، ومن الضرورى جدًا أن تجعلها تبدو كبيرة ومهمة. وساحرات القرى غالبًا ما يكنّ نساء عجائز ذوات طبيعة معتلة يعملن على إخافة الناس، وبتلك الطريقة يحصلن على شىء مقابل لا شىء. هذا شىء سهل للغاية بالطبع ؛ إن ماتت دواجن فلاحة قد تقول إن ابنها ضايق الساحرة فى يوم الثلاثاء الماضى، ومثلاً قد تكون "بيلا ويب "من هذا النوع من الساحرات، لكنها قد تكون ـ قد تكون أخطر من ذلك... إنه شىء مستمر منذ الأزمان السحيقة، ويظهر الرغبة فى إدهاش الآخرين. أما سيبل ستامفورديس فهى من أسخف ما رأيت من الناس ـ وهى حقًا وسيطة روحانية ـ مهما كانت تلك المهنة. وبالنسبة لثيرزا .... لا أعرف .... ماذا قالت لك ؟ هل هو ما يضايقك على ما أظن ؟".

لديك خبرة واسعة يا سيدة كالثروب، هل تعتقدين، من خلال ما عرفته وسمعته، أن البشر قد يموتون عن بعد بدون صلة مرئية، أو عن طريق إنسان آخر ؟".

فتحت عينيها عن آخرهما وقالت: "هل تعنى أن يقتل المرء عن بعد ؟ كحقيقة واضحة متجسدة ؟".

"نعم".

قالت بحدة وبقوة: "أقول أن هذا هراء".

قلت لها: "آه "وشعرت بالراحة.

قالت لى: "لكن ربما أكون مخطئة، فقد كان أبى يقول إن الطائرات هراء، وكان جدى يقول إن السكة الحديد هراء. كان كلاهما على حق، ففى زمان كل منهما كانت

تلك الأمور مستحيلة. ما الذى تفعله ثيرزا ؟ هل تحفز أشعة مهلكة أو شيئًا من هذا القبيل ؟ أم ترسم نقوشًا خماسية على الأرض وتتمنى ؟".

ابتسمت لها.

قلت لها: "أنت تجعليننى أركز فى الأمور، ما كان يجب أن أسمح لها بأن تنومنى مغناطيسيًا بحديثها المبهر".

قالت لى: "أوه، كلا، لن تفعل ذلك فأنت لست من النوع الذى يستجيب للإيحاء، ربما هناك شىء آخر حدث قبل كل ذلك".

قلت لها: "أنت محقة "وأخبرتها بكلمات مقتضبة عن قصة قتل السيد جورمان، والصدف المتكررة لذكر مسألة الجواد الأشهب، ثم أطلعتها على نسختى من قائمة الأسماء مع كوريجان.

فحصت القائمة وهى عابسة الوجه.

قالت: "فهمت، وهؤلاء الناس، ما الشىء المشترك بينهم ؟".

"لسنا متأكدين من ذلك، ربما ابتزاز أو مخدرات".

قالت: "هراء، هذا ليس ما يقلقك بل ما يقلقك أنهم ماتوا جميعًا".

تنهدت بحرقة وبعمق.

قلت لها: "نعم، هذا ما أظنه، لكنى لست متأكدًا سوى من أن ثلاثة منهم ماتوا بالفعل وهم مينى هيسكث ـ دوبوا وتوماسينا تاكرتون ومارى دولافونتين. كلهم ماتوا على فراشهم لأسباب طبيعية، لكن هذا ما ادعت ثيرزا أنها قد تفعله بسهولة".

"هل تدعى أنها قامت بذلك ؟".

"كلا لم تتحدث عن موتى بعينهم، بل تحدثت باستفاضة عن هذه الاحتمال العلمى وكأنه أمر حقيقى".

قالت وهى تفكر: "لكن ظاهريًا يبدو هراء".

"أعلم ذلك، ربما تناسيت الأمر وسخرت منه لولا ذكر مسألة الجواد الأشهب عدة مرات بشكل غريب".

قالت وهى تفكر بشرود: "نعم، الجواد الأشهب، شىء موحٍ حقًا".

صمتت لبرهة وقالت وهى ترفع رأسها: "الأمر سيئ للغاية ومهما كان سببه يجب وضع حدٍ له، أتعلم هذا ؟".

"نعم..... لكى ماذا يجب أن أفعل ؟".

"ستضطر لاكتشاف ذلك بمفردك، لكن ليس هناك متسع من الوقت". ثم نهضت بسرعة وقالت:

"لتتفحص هذا الأمر فى الحال، ألا يوجد صديق يمكنه مساعدتك ؟".

فكرت قليلاً. جيم كوريجان ؟ رجل مشغول ووقته محدود، وغالبًا يبذل ما فى وسعه. ديفيد أردينجلى، لكنه لا يصدق كلمة واحدة مما يقال. هرميا ؟ نعم هى، إنها تتمتع بالذكاء والمنطق الجدير بالإعجاب، وشخصيتها قوية إن استطعت أن تجعلها حليفة لك. على أية حال ـ لم أكمل العبارة بعد ـ لكن كانت صديقتى ـ إنها الشخص المناسب.

"فكرت فى أحد مناسب ؟ رائع".

كانت تتحدث بشكل رسمى وسريع.

قالت: "سأراقب الساحرات الثلاث، بيد أننى أشعر أن إجابة تساؤلاتك لن تكون بالكامل لديهن، كما تفعل سيبل، وتخرف بشأن حماقات تتفوه بها عن أسرار الهرم المصرى ونصوصه، كل ما تقوله هراء لكن هناك لغز الهرم ونصوصه على أية حالة. لا يمكننى مقاومة شعور أن ثيرزا تعرف شيئًا ما أو سمعت شيئًا ما، وتستخدم مزيجًا غريبًا للنهوض بأهميتها وقواها السحرية الغامضة وتحكمها بها. الناس غالبًا ما تفخر بالشر، لكن الطيبين لا يفخرون بطيبتهم، وهذا بسبب التواضع كخصلة دينية، على ما أظن، لأنهم حتى لا يعرفون أنهم طيبون".

صمتت لبرهة، ثم أضافت:

"ما نحتاج إليه حقًا هو حلقة وصل من أى نوع بين الأسماء الواردة فى القائمة والجواد الأشهب، إننا نريد أى صلة ملموسة بينهما".

الفصل الثامن

سمع المفتش لوجون لحنًا صغيراً مألوفًا لأغنية قديمة عبر الممر المؤدى لحجرته، ورأى د. كوريجان يدخل إليه.

قال كوريجان: "آسف على إزعاج الجميع، لكن قائد السيارة الجاجوار لم يكن مخموراً.... وما شمه إيليس فى رائحة نفسه كان من نسج خياله أو رائحة نفس عادية وكريهة".

بيد أن لوجون فى هذه اللحظة لم يكن يكترث للجُنح العادية وانتهاكات المرور للسائقين التى ترتكب يوميًا.

قال له: "انظر إلى هذا الخطاب يا كوريجان". أخذ الخطاب، ورأى الخط الصغير المنمق وكان العنوان "إيفريست، جلنداور كلوز، بورنماوث".

عزيزى المفتش لوجون،

قد تتذكر أنك طلبت منى أن أبلغك إن رأيت بالصدفة الرجل الذى كان يتبع السيد جورمان ليلة مقتله. ظللت أبحث فى الحى دون جدوى حول مكان الصيدلية لكنى لم أره بعد ذلك فى المنطقة.

غير أننى بالأمس حضرت حفلاً خيريًا فى قرية على بعد 20 ميلاً من هنا، وجذبنى للحفل حضور السيدة أوليفر كاتبة الروايات البوليسية الشهيرة، لأنها ستوقع على كتبها، وأنا قارئ نهم للروايات البوليسية وأحببت أن أراها.

ولدهشتى رأيت الرجل الذى وصفته لك يمر بالصيدلية ليلة مقتل جورمان، لكن ربما وقع له حادث لأنه كان يسير بمقعد متحرك له عجلات، وسألت دون إثارة الانتباه عنه فوجدت اسمه فينابلز، ويسكن فى منزل اسمه برايرز كورت فى قرية "ماتش ديبنج "وعرفت أنه رجل فاحش الثراء.

أتمنى أن تساعدك هذه التفاصيل فى مهمتك.

المخلص زكريا أوزبورن.

قال لوجون: "مارأيك ؟".

قال كوريجان باستخفاف: "يبدو الأمر مستحيلاً".

"ربما ظاهرياً فقط، لكنى لست متأكداً....".

"هذا الرجل أوزبورن ـ أيعقل أنه رأى وجه الرجل فى ليلة مليئة بالضباب هكذا ؟ ربما كان مجرد شبيه. أنت تعرف الناس ؛ إذا أعلنت عن مواصفات شخص مفقود ـ فسوف تتلقى تسعة بلاغات من عشرة تفيد رؤية الشخص المفقود ثم يتضح أن مواصفاته غير مطابقة للإعلان

المطبوع!".

قال لوجون: "أوزبورن ليس هكذا".

"لماذا ؟ ما الذى يجعله مختلفاً ؟".

"إنه رجل محترم وهادئ إضافة إلى كونه صيدلياً مخضرماً، وله شخصية مستقلة وقدرة عجيبة على ملاحظة الناس، وحلم حياته أن يتعرف على رجل دس السم لزوجته بعد أن اشترى الزرنيخ من صيدليته".

ضحك كوريجان وقال:

"لعل هذا هو السبب فى أن مارواه كان من نتاج خياله".

"ربما".

نظر كوريجان إلى لوجون بفضول:

"إذن أنت تظن أنه على حق ؟ ماذا ستفعل إزاء ذلك الأمر ؟".

"لا ضرر على أية حال من التحرى عن السيد فينابلز بدون إثارة الانتباه.... "، ثم نظر للخطاب وقال:

"الذى يسكن فى منزل برايرز كورت فى قرية ماتش ديبنج".

الفصل التاسع

رواية مارك ايستربروك

1

قالت هرميا بابستخفاف: "يا لها من أمور مثيرة تلك التى تحدث فى الريف! "

فرغنا للتو من تناول العشاء وكان أمامنا إناء قهوة بدون لبن. نظرت، فليست هذه الكلمات التى أتوقعها. أخبرتها بكل القصة فى ربع ساعة وأنصتت لى بإمعان واهتمام، لكن رد فعلها لم يكن ما توقعته. كانت نبرة صوتها تبدو متساهلة ولا تبدو مكترثة أو مصدومة.

أردفت قائلة: "أخطأ من قال إن الريف ممل والمدن مليئة بالإثارة. آخر الساحرات اجتمعن فى كوخ قديم والرجال الشباب الفاسدون يحتفلون بأعياد السحرة فى المزارع البعيدة النائية. الخرافات تسيطر وتملأ كل القرى المعزولة عن العمران. العوانس الكبار فى السن يحركن الجعارين المزينة، ويحضرن جلسات تحضير الأرواح ويحضرن الألواح والورق الفارغ لرسم النقوش اللامعة المتوهجة. يمكنك كتابة سلسلة مقالات مثيرة عن ذلك، لم لا تجرب؟".

"لا أظنك فهمت ما قلته لك يا هرميا".

"بل أفهم جيداً يا مارك! إنه أمر مثير جداً، صفحة من التاريخ طواها النسيان تشبه خرافات العصور الوسطى".

قلت بضيق: "لا أتحدث عن الأهمية التاريخية، بل أنا مهتم بالحقائق. هناك قائمة الأسماء وبعضها مات أصحابها، ماذا سيحدث للباقين؟".

"ألا ترى أنك منجرف إلى حد كبير لهذا الأمر؟".

قلت لها بإصرار: "كلا، لا أظن ذلك، ربما كان التهديد حقيقياً، وأنا لست وحدى من يظن ذلك، بل زوجة رجل الدين أيضاً".

قالت باحتقار: "زوجة كالثروب!".

"كلا لا تقوليها هكذا! فهى امرأة غير عادية، والأمر كله حقيقى يا هرميا".

هزت كتفيها بلا اكتراث وقالت:

"ربما".

"ألا تظنين ذلك؟".

"أعتقد أنك أطلقت العنان لخيالك قليلاً يا مارك، "والنسوة العجائز محقات فى أن يؤمنّ بهذا الهراء، وأنا متأكدة من بذاءتهن ومكرهن!".

"لكنهن لسن خبيثات أو شريرات".

"كيف يكنّ كذلك يا مارك؟".

صمت لبرهة من الوقت، واحتار عقلى بين النور والظلام والعكس. ظلام الجواد الأشهب والضوء الذى تمثله هرميا. وهو ضوء يومى عقلانى ومبهر كالمصباح الكهربى الثابت يضئ الجنبات المظلمة ـ غير أنه لا أكثر ولا أقل من ذلك، شىء اعتيادى مألوف فى أى حجرة، لكن ضوء هرميا واضح لكنه على أية حال صناعى...

فجأة أفقت من شرودى بعناد وإصرار....

"أريد فحص الأمر يا هرميا والوصول للحل، ومعرفة ما يحدث".

"موافقة، بل يجب عليك مواصلة البحث الدءوب فالأمر رائع، ومثير، وممتع حقًا".

قلت لها بحدة: "ليس ممتعًا!".

ثم واصلت حوارى:

"أردت أن أسألك هل يمكنك مساعدتى؟".

"أساعدك؟ كيف؟".

"بالبحث والتقصى، وللوصول للب الموضوع "

"لكن يا عزيزى مارك، أنا مشغولة جداً حالياً وأكتب مقالات للجريدة، وأعمل فى المتحف البيزنطى، ووعدت طالبين لدى بأن....".

بالكاد سمعتها ـ ظل صوتها يتردد فى جنبات الحجرة وهو ملىء بالتعقل والرزانة والحكمة.

قلت لها أخيراً: "فهمت، لديك أمور أخرى كثيرة تشغلك".

"نعم هذا صحيح "، شعرت هرميا بارتياح واضح لإذعانى، وابتسمت نحوى وشعرت بأنها تدللنى، وكأنها أم تدلل ابنها بتركه يلهو بلعبته الجديدة.

اللعنة، لست بطفل صغير، ولا أبحث عن أم ـ خاصة من نوع هرميا. فقد كانت أمى جذابة وجميلة وضعيفة وفارغة العقل، والكل من حولها، حتى أنا، يعتنى بها.

نظرت لهرميا بضيق عبر المائدة وفكرت فى

شخصيتها. إنها جميلة وناضجة وعاقلة وذكية ومفكرة، وقارئة من الطراز الأول! لكن ـ كيف أقولها ـ مملة

للغاية!

2

فى صباح اليوم التالى حاولت العثور على جيم كوريجان ـ وأخفقت فى هذا، لكن تركت له رسالة بأننى سأكون بالمنزل بين الساعة السادسة والسابعة إن كان بمقدوره الحضور لتناول الشراب معى. كنت أعلم كم هو مشغول، وتشككت فى قدرته على الحضور بسرعة، غير أنه جاء فى تمام السابعة إلا عشر دقائق. بينما كنت أعد أكواب العصير، تجول هو فى أنحاء المنزل ونظر لكتبى ولوحاتى، وعلق فى النهاية أنه لن يمانع فى أن يكون إمبراطور المغول بدلاً من عمله الصعب الشاق كطبيب شرعى مع الشرطة.

قال وهو يجلس: "لكن مثل هؤلاء الناس عانوا من مشاكل كثيرة مع النساء، أما أنا فقد نجوت من ذلك على الأقل".

"ألم تتزوج؟".

"نعم لم أتزوج، وأنت بحياتك المبعثرة لم تتزوج حتى الآن. أى زوجة كان بمقدورها تنظيم حياتك فى أقل وقت".

أخبرته بأننى لا أرى النساء بهذا القدر من السوء الذى يعتقده هو.

أخذت مشروبى وجلست على المقعد بمواجهته وبدأت الحديث: "ربما تتساءل لماذا أردت حضورك بشكل عاجل، لكن فى الواقع ما أريد مناقشته شىء متعلق بها تناقشنا فيه فى آخر مرة".

"ما هذا الأمر؟ بالطبع، مقتل السيد جورمان".

"نعم ـ لكن أولاً هل تعرف أى شىء عن الجواد الأشهب؟".

"الجواد الأشهب.... كلا، لا أظن، لماذا؟".

"لأننى أظن أن له علاقة بقائمة الأسماء التى أظهرتها لى ـ كنت فى الريف مع

أصدقاء لى ـ فى قرية "ماتش ديبنج "وذهبنا لمقهى قديم ـ كان مقهى قديماً ـ يسمى الجواد الأشهب".

"انتظر، أليست ماتش ديبنج بالقرب من

بورنماوث؟".

"بينهما 15 ميلاً".

"هل صادفت أحداً يسمى فينابلز هناك؟".

"بالتأكيد".

صاح كوريجان فى دهشة: "أحقاً؟ لديك حقاً موهبة التجول! ما شكله؟".

"رجل جدير بالاحترام حقاً".

"أحقاً؟ كيف؟".

"إنه قوى الشخصية إلى حد كبير، لكنه مشلول بسبب إصابته بشلل الأطفال....".

قاطعنى بحدة وصاح: "ماذا؟!".

"كان مصاباً بشلل الأطفال، وهو مشلول من الوسط إلى القدم".

جلس على مقعده مرة أخرى ونظر لى باشمئزاز وقال: "هذا يدمر الأمر! كنت أعلم أن الأمر محكم بشكل يدعو إلى عدم التصديق".

"ماذا تعنى؟".

"ستقابل المحقق لوجون وسيهتم جداً بسماع ما تقول. عندما قتل جورمان طلب لوجون أى معلومات من أى شخص قد يكون رآه ليلة الحادث، ومعظم ما عثرنا عليه من معلومات كان بلا فائدة كالعادة، عدا أنه كان هناك صيدلى بجوار موقع الجريمة يدعى أوزبورن رأى جورمان يعبر الطريق عبر الصيدلية ويلاحقه شخص ما ـ وبالطبع لم يعتقد أنه يضمر له سوءاً وقتها ـ لكنه وصف الرجل بدقة ـ وبدا متأكداً من أنه سيعرفه إن رآه مرة أخرى. ومنذ يومين تلقى لوجون رسالة من أوزبورن الذى تقاعد ويعيش الآن فى بورنماوث وذهب لحفل خيرى هناك ورأى الرجل الذى اتبع جورمان، حيث كان فى الحفل وعلى مقعد متحرك وعرف أن اسمه فينابلز".

نظر إلى مستفهماً فأومأت له بالإيجاب.

قلت له: "هذا صحيح تماماً، كان فينابلز حاضراً فى الحفل الخيرى ؛ لكنه لم يلاحق جورمان فى الشارع فى بادينجتون، فهذا مستحيل بطبيعة الحال، ربما أخطأ أوزبورن".

"لقد وصفه بكل دقة، طوله حوالة ست أقدام وأنفه كبير وطويل وله تفاحة آدم فى حلقه، أليس كذلك؟".

"نعم، هذه أوصاف فينابلز لكن على أية حال...".

"أعلم، أن أوزبورن ليس قوى الملاحظة بالضرورة كما يدعى ويزعم، ربما اختلط عليه الأمر بسبب الشبه. لكن كان من المقلق أن تقول لى قصتك عن الحى نفسه، والحديث عن الجواد الأشهب ـ ما هى مسألة الجواد الأشهب؟ احكها لى بالتفصيل".

قلت له محذرًا: "لن تصدقها لأننى نفسى أصدقها بصعوبة".

"هيا احكها لى على الفور".

أخبرته بكل تفاصيل حوارى مع ثيرزا جراى.

وكان رد فعله فوريًا.

"هذا هراء كبير!".

"نعم، أليس كذلك؟".

"بالطبع هو كذلك! ماذا دهاك يا مارك؟ ديك

أبيض، هل تظنه من أجل القرابين! ووسيط روحانى، وساحرة، وعانس عجوز ترسل أشعة مهلكة مضمونة المفعول، إنه جنون تام!".

قلت له بتثاقل: "نعم، يبدو الأمر ضربا من الجنون".

"كف عن مجاراتى وموافقتى الرأى يا مارك، أنت تجعلنى أشعر أن ثمة سرًا فى الأمر وأنت تصدقه، أليس كذلك؟".

"دعنى أطرح عليك سؤالاً أولاً، هل هناك سند

علمى يؤكد وجود رغبة دفينة سرية فى الموت لدى الجميع؟".

تردد قليلاً ثم قال:

"لست طبيبًا نفسيًا، وبينى وبينك أرى نصف هؤلاء الأطباء النفسيين حمقى وخفيفى العقل، وغارقين فى النظريات الجوفاء بلا سند، ويتمادون فى ذلك، وأرى أن الشرطة لا ترضى عن الخبير الطبى كشاهد فى قضايا سبب ومبرر قتل رجل لامرأة عجوز لا حول لها ولا قوة بسبب أموال فى خزانتها".

"هل تفضل نظرية الغدد؟".

ابتسم لى وقال:

"حسنًا أنا أيضًا واضع نظريات وأعترف بذلك، لكن هناك سببًا علميًا جسمانيًا جيدًا وراء نظريتى ـ لم أبرهن عليه بعد، لكن أمور العقل الباطن مجرد هراء! اللعنة!".

"ألا تؤمن بذلك؟".

"بالطبع أومن به، لكن الأطباء النفسيين تمادوا فى تفسير كل شىء من خلاله. قد توجد قطعًا رغبة دفينة فى أعماق العقل الباطن لكنها غير مؤثرة إلى تلك الدرجة كما يقولون".

قلت له بإصرار: "لكن يوجد شىء كهذا على أية حال".

"يجدر بك شراء كتاب عن علم النفس وتقرأ عن هذا الموضوع ".

"تدعى ثيرزا جراى أنها تعرف كل شىء عن هذا".

قال بضجر: "ثيرزا جراى! ما الذى تعرفه عانس جاهلة عجوز ريفية عن علم النفس؟".

"تدعى أنها تعرف الكثير".

"كما قلت لك، مجرد هراء!".

قلت له: "هذا ما قاله الجميع عن أية اكتشافات لا تتفق مع آرائهم الراسخة، هل تذكر أرجل الضفادع القافزة التى أدت لاكتشاف الكهرباء عندما لامست الحديد ـــــــ؟".

قاطعنى وقال:

"إذن لقد صدقت هذا الأمر وابتلعت الطُعم

كاملاً؟".

"ليس لهذه الدرجة، بل أردت معرفة ما إذا كان هناك سند علمى لهذا أم لا".

صاح فى ضجر: "ليس هناك سند ألبتة!".

"حسنًا، أردت معرفة ذلك فقط".

"ستقول لى بعدها إنها المرأة ذات الصندوق".

"ما هى المرأة ذات الصندوق؟".

"إنها قصة كإحدى القصص التى تظهر كل فترة ـ مثل قصة نوسترادموس، والأم شبتون، وبعض الناس يصدقون أى شىء".

"على الأقل أخبرنى بمدى تقدمك فى ملاحقة قائمة الأسماء".

"يعمل رجالى جيداً بكل جهد فى التحقيق والتحرى عنهم، لكن الأمر يحتاج لكثير من العمل الروتينى، لأنه من الصعب تحديد ومتابعة ألقاب بلا عناوين وأسماء أولى".

"لنتناول الأمر من زاوية مختلفة، سأراهنك على شىء: كل أصحاب الأسماء فى القائمة قد تجد له شهادة وفاة. هل أنا محق؟".

رمقنى بنظرة غريبة وقال:

"لديك كل الحق".

"هذا هو العامل المشترك بينهم ـ الموت".

"نعم لكن قد لا يبدو الأمر بسيطًا هكذا يا مارك، هل تعرف عدد الموتى يومياً فى الجزر البريطانية؟ وأسماءهم المنتشرة الشائعة جداً ـ مما لا يساعدنا".

قلت له: "مارى دولافونتين، اسم غير شائع أليس كذلك؟ كانت جنازتها الثلاثاء الماضى على ما أظن".

نظر لى بسرعة وقال:

"كيف علمت ذلك؟ من صفحة الوفيات؟".

"عرفته من إحدى صديقات الراحلة".

"كان موتها به شىء مريب، وأنا متأكد. لو كان موتهم فى حادث لتحرت الشرطة عنهم، لكنها كلها تبدو حالات وفاة طبيعية: التهاب رئوى، نزيف فى المخ، ورم فى المخ، حصوات المرارة، حالة شلل ـ كلها حالات لا تثير الشك".

أومأت بالموافقة.

ثم قلت له: "لا حادث ولا تسمم، كلها حالات موت بسبب أمراض خطيرة، كما قالت ثيرزا جراى".

"هل تقول إن هذه المرأة قد تسبب وفاة شخص لم تره أبداً على بعد أميال بأن تصيبه بالالتهاب الرئوى مثلاً حتى الموت؟".

"لا أقول هذا، بل هى من أكد إمكانية حدوث ذلك، وأنا أظن أن هذا خيالى جداً، وأتمنى لو كان مستحيلاً لكن هناك عوامل محددة تثير الفضول والريبة، فهناك الذكر العابر للحصان الأشهب ـ وارتباطه بالتخلص ممن هم غير مرغوب فيهم. هناك مكان بهذا الاسم وثلاث نساء يعشن هناك ويتفاخرن فعلياً بالقدرة على فعل ذلك. ويعيش بالقرب من المكان رجل تنطبق مواصفاته على مواصفات من شاهد قاتل السيد جورمان

فى الليلة التى حضر فيها لامرأة تحتضر تحدثت عن "الشر المستطير "، هل كل هذه مجرد سلسلة من المصادفات الكثيرة فى رأيك؟".

"لكن هذا الرجل ليس فينابلز لأنه كما ذكرت أنت مشلول منذ سنوات".

"ألا يمكن علميًا وطبيًا أن يتظاهر أحد بالشلل؟".

"بالطبع لا، وإلا ستتعرض الأطراف للضمور".

قلت له وأنا أتنهد: "هذا يسوى الأمر بكل تأكيد. من المؤسف أن يوجد ـ كيف أسميها ـ "مؤسسة للتخلص من البشر". فينابلز يبدو كالعقل المدبر لكل هذا. ومحتويات منزله تدل على الثراء الفاحش، فما مصدر أمواله؟".

صمت لبرهة ثم قلت:

"كل هؤلاء ماتوا بالترتيب وبشكل منتظم ـ وبدون جلبة على فراشهم بسبب أى مرض ـ من المستفيد من وفاتهم؟".

"هناك من يستفيد دائمًا من وفاة أحدهم. بشكل كبير أو صغير، ولا توجد شبهات جنائية أو ظروف تؤدى للشك والريبة، إن كان هذا ما تعنيه".

"ليس تمامًا".

"السيدة هيسكيث دوبوا عما تعلم تركت أرثًا حوالى 50 ألف جنيه لابن وابنة أخيها، وابن الأخ مقيم فى كندا وابنة الأخ متزوجة وتعيش فى شمال إنجلترا. كلاهما مستفيد بالمال. توماسينا تاكرتون ترك لها والدها ثروة ضخمة وإن ماتت بدون زواج قبل سن الواحد والعشرين ستؤول التركة لزوجة الأب، وهى سيدة بلهاء لا حول لها ولا قوة، وهناك السيدة دولافونتين ـ تركت أموالها لابنة عمها ـــ".

"وماذا عنها؟".

"مقيمة فى كينيا مع زوجها".

قلت له: "إذن كل المستفيدين غائبون بشكل لافت".

نظر لى كوريجان بضيق وقال:

"هناك ثلاث وفيات و ثلاثة أشخاص يحملون اسم ساندفورد، وأحدهم ترك أرملة أصغر منه كثيراً وتزوجت بعده ـ بسرعة جداً. هناك رجل آخر يدعى سيدنى هارموندسورث مات نتيجة نزيف فى المخ وتشتبه اسكوتلانديارد بأنه كان يزود دخله عن طريق الابتزاز غير المعلن، وفى مصلحة العديد من الناس فى الأماكن المهمة أن يختفى".

"أتعنى أن موت هؤلاء الناس كان مريحاً لمصالح أناس آخرين، ما رأيك يا كوريجان؟".

ابتسم كوريجان وقال:

"من حسن الحظ أن اسمى منتشر، فهناك الكثيرون ممن يحملونه قد ماتوا مؤخراً لكن ليس لمصلحة أحد وفقاً لمصادر معلوماتى".

"هذا يوضح الأمر، فأنت الضحية التالية غالباً، اعتن بنفسك جيداً".

"سأفعل، لكن لا تظن أن الساحرة المزعومة قادرة على إصابتى بقرحة الاثنى عشر أو الأنفلونزا الأسبانية، لن تفلح حيلها مع طبيب محنك مثلى!".

"اسمع يا جيم، أريد أن أتحرى عن ادعاءات ثيرزاجراى فهلا ساعدتنى!".

"كلا لن أساعدك! لا أفهم كيف يصدق رجل متعلم ومثقف مثلك هذا الهراء".

تنهدت وقلت له:

"ألا يمكنك استخدام كلمة أخرى؟ سئمت منها!".

"خرافات، إن أردت".

"لا تعجبنى هذه الكلمة كثيراً".

"أنت فتى عنيد يا مارك، أليس كذلك؟".

"كما أرى، يجب أن يكون أحد الناس عنيداً!".

الفصل العاشر

كان جلندور كلوز مكانًا جديداً يتخذ شكل نصف دائرة وفى أطرافه مازال يعمل البناءون، وفى منتصف وعبر الممر بوابة مدون عليها اسم المنزل "إيفريست".

بدا جسم زكريا أوزبورن منحنيا عبر حافة الحديقة ليزرع بعض البصيلات، ومن ظهره المستدير تعرف عليه المفتش لوجون، الذى فتح البوابة ودخل ونهض أوزبورن من انحناءته واستدار ليرى من دخل بيته، وعندما رأى لوجون تهللت أساريره واحمر من السعادة على الرغم من أنه كان محمراً بالفعل نتيجة المجهود الشاق. بدت شخصيته فى الريف كما فى لندن. كان يرتدى حذاء ريفيًا وملابس فضفاضة، لكنها لم تقلل من أناقته ومظهره اللائق. نزلت قطرة عرق على جبهته اللامعة، ومسحها بحرص بمنديله الذى فرده قبل أن يتقدم لمقابلة زائره.

صاح فى سعادة: "المفتش لوجون! هذا شرف كبير لى حقًا يا سيدى، تلقيت ردًا على رسالتى لكنى لم أتوقع رؤيتك شخصيًا، أهلاً بك فى منزلى المتواضع "إيفريست". الاسم يدهشك، أليس كذلك؟ أنا مهتم دوماً بجبال الهيمالايا، وتابعت بعثة جبل إيفريست ونصر دولتنا على يد السير إدموند هيلارى! يا له من رجل عظيم! إننى أقدر شجاعة من يكتشفون الجبال التى لم يطرقها أحد، ويعبرون بحاراً متجمدة لاكتشاف أسرار القطب الشمالى والجنوبى. هيا تفضل بالدخول لتتناول المرطبات من فضلك".

تقدم أوزبورن وقاد لوجون لكوخ صغير كان فى قمة الترتيب والنظافة، لكن أثاثه قليل.

وضح أوزبورن هذا الأمر بقوله: "لم أستقر تمامًا حتى الآن، وأحضر كل المزادات هنا كلما أمكن، وهكذا أنتقى أثاثًا جيد بربع ثمنه المعروض به فى المتاجر. ما الذى أقدمه لك؟ كوب من شراب الكرز، برتقال، شاى؟ يمكننى إعداد الغلاية فى غضون ثوان".

أعرب لوجون عن رغبته فى احتساء الشاى.

عاد أوزبورن بعد دقيقتين ومعه كوبان كبيران ممتلئان وقال: "هيا نجلس براحتنا، اسم منزلى له معنى مزدوج هاها! أنا أحب المزاح! إيفريست تعنى الراحة الدائمة!".

بعد تبادل التحيات والعبارات الدمثة مال أوزبورن للأمام وقال بسعادة:

"هل أفادتك معلوماتى؟".

حاول لوجون تلطيف الصدمة قدر الإمكان وقال:

"ليس كما أتمنى للأسف".

"ياه، كم أنا محبط الآن، ربما كان مجرد رجل عادى يسير فى اتجاه سير السيد جورمان وليس هو قاتله بالضرورة، فهذا احتمال كبير، لكن فينابلز رجل ثرى على ما أظن ومحترم ويعرف الأوساط الراقية".

قال لوجون: "النقطة هنا هى أنك ربما لم تر فينابلز ليلة الجريمة".

"لكنه هو، لا شك فى ذلك عندى، فأنا لا أخطئ الوجوه أبداً".

قال لوجون بلطف: "أخشى أنك أخطأت هذه

المرة، كما ترى فينابلز مشلول منذ ثلاث سنوات من الوسط حتى القدمين ولا يسير أبداً".

صاح أوزبورن: "شلل! يا إلهى... هذا ينفى التهمة تماماً، وعلى ذلك ـ اعذرنى أيها المفتش لوجون، لا داعى للشعور بالإهانة، هل أنت متأكد؟ هل لديك دليل طبى على ذلك؟".

"نعم يا سيد أوزبورن، فهو يتعالج لدى السير ويليام دوجيل فى شارع هارلى وهو من أشهر الأطباء".

"نعم اسمه شهير! لابد وأنه خطئى، يا إلهى! لكنى كنت متأكداً جداً، وأشعر الآن أننى أزعجتك للغاية بدون مبرر".

قال لوجون بسرعة: "لا تفكر فى هذا، فمعلوماتك مفيدة وقيمة، من الواضح أن من رأيته يشبه فينابلز، وحيث إن مظهر السيد فينابلز غير عادى، فإن هذه معلومات مهمة لنا بالطبع وستساعدنا فى البحث عن القاتل، لأن عدد من يشبهون تلك المواصفات قليل".

قال أوزبورن مبتهجاً بعض الشىء: "حقاً، إنك على حق، رجل محترف الإجرام ويشبه فينابلز، لن يكون من الصعب العثور على ملفاته فى سكوتلاندريارد....".

نظر بأمل نحو المحقق.

قال المحقق بهدوء وبطء: "الأمر ليس بهذه البساطة، قد يكون الرجل بلا ملف إجرامى، وعلى أية حال كما قلت لا داعى أن نفترض أن يكون الرجل هو قاتل السيد جورمان".

بدا الحزن على أوزبورن مرة أخرى وقال:

"سامحنى، ربما كنت و... كنت أحب أن أكون شاهداً فى المحكمة فى جريمة قتل... لم يكن ليهزنى الأمر، أؤكد لك ذلك، وكنت سأتمسك برأيى!".

صمت لوجون وفكر فى مضيفه بعمق. وردًا على الفحص الصامت قال أوزبورن: "ما الأمر؟".

"لماذا قلت "سأتمسك برأيى "يا سيد أوزبورن؟".

بدت الدهشة على وجه أوزبورن:

"لأننى متأكد تمامًا ـ نعم ـ أفهم ما تعنيه. إن الرجل الذى ذكرته ليس هو المطلوب، وبالتالى لا يوجد دليل على يقينى، ومع ذلك...".

مال لوجون للأمام وقال: "ربما تساءلت لماذا جئت لزيارتك اليوم بعد أن جاءنى دليل طبى على أن من رأيته ليس فينابلز، لماذا جئت أنا إلى هنا؟".

"فعلاً أيها المفتش لوجون، لماذا جئت؟".

قال لوجون: "جئت بسبب أن وصفك للمجرم بهرنى، وأردت معرفة أساس يقينك، أتذكر أن الليلة الموعودة كانت مليئة بالضباب؟ كنت فى صيدليتك ولاحظت المسافة من الباب للشارع فى الجهة المقابلة، ويخيل لى أن أى شخص من على هذه المسافة غير واضح المعالم أو من المستحيل تحديدها بوضوح".

"إلى حد ما، أنت محق، كان الضباب قد بدأ يتجمع، لكن على أجزاء، وكان ينقشع ثم يتجمع ثم ينقشع كل فترة، وانقشع عندما رأيت السيد جورمان على الجهة المقابلة من الشارع، وبالتالى رأيته ثم رأيت الرجل الذى تبعه يقف أمام الصيدلية ويشعل سيجارة وبدا لى وجهه الجانبى بكل وضوح ـ الأنف والذقن وتفاحة أدم البارزة. رجل له شكل مميز جداً ـ هكذا قلت لنفسى حينئذ، ولم أره من قبل، لو كان قد دخل الصيدلية من قبل لعرفته، لذلك ـــــ".

ثم توقف عن الكلام.

قال لوجون وهو يفكر مليًا: "نعم، أفهمك جيدًا".

قال أوزبورن بأمل: "ربما كان له أخ توأم؟ هذا حل جيد".

قال لوجون مبتسمًا وهو يهز رأسه بالنفى: "الحل هو التوأم؟ إنه حل مريح فى الروايات البوليسية، لكن فى الواقع...."ثم هز رأسه "إن هذا لا يحدث، لا يحدث الواقع".

"كلا... أظنه لا يحدث، لكن ربما يكون أخًا عاديًا ليس توأمًا، أو قريبًا يشبهه ـ "بدا

على أوزبورن الانزعاج.

قال لوجون بحرص: "وفقًا لمعلوماتى فإن فينابلز ليس له أخوة".

قال أوزبورن مكررًا الكلمات: "وفقًا لمعلوماتك؟ "على الرغم من جنسيته البريطانية، لقد ولد خارج البلاد وأحضره والداه لإنجلترا عندما كان عمره أحد عشر عامًا".

"لكنك لا تعرف المزيد عنه وعن عائلته؟".

قال لوجون: "كلا، ليس من السهل معرفة المزيد عنه ـ أعنى بدون سؤاله بنفسه ـ بلا سبب لاستجوابه".

كان يتحدث بحذر ولم يرغب فى أن يقول لأوزبورن إن هناك طرقًا كثيرة لمعرفة كل شىء عن أى شخص دون سؤاله بشكل مباشر.

ثم قال: "لولا الدليل الطبى، هل كنت لتصر على وصفك؟".

قال أوزبورن فى إذعان: "بالطبع، فمن هواياتى حفظ الوجوه "، ثم ضحك وقال: "لقد فاجأت الكثير من زبائنى بتلك الطريقة، كنت أقول لأحدهم: "كيف حال الربو؟ "فيندهش وأقول له: "جئت فى مارس الماضى بروشتة من د. هاى جريف، ويبدو على الزبون الدهشة! هذا يفيد فى العمل لأن الناس يحبون من يتذكرهم لكنى لا أجيد تذكر الأسماء كالوجوه. تمرست على هذه الهواية منذ نعومة أظافرى، كنت أقول لنفسى إن كان الملوك يعرفون تلك المهارة فلماذا لا يجيدها زكريا أوزبورن! ثم صار الأمر بعد فترة تلقائيًا بدون مجهود يذكر".

تنهد لوجون وقال:

"تمنيت لو كان هناك شهود مثلك فى المحاكم، لأن التعرف على المجرمين أمر صعب جدًا، ومعظم الناس يقولون أى شىء مثل "كان طويلاً وشعره أصفر، كلا بين الأصفر والأسود، ووجهه عادى، وعيناه زرقاوان ـ أو رماديتان ـ أو بنيتان، ويرتدى زيًا رماديًا، أو أزرق أو....".

ضحك أوزبورن وقال:

"بالطبع لن يفيدكم ذلك".

"بصراحة إن كان هناك شاهد مثلك فهو هبة من الله!".

بدا أوزبورن مسرورًا وقال بتواضع:

"إنها موهبة، لكن تذكر أننى قمت بتنميتها. هل تعرف لعبة الأطفال بأن تضع

عناصر كثيرة فى صينية ثم تحفظها فى دقائق وتذكرها غيباً. كنت أفوز فى هذه اللعبة دوماً مما يدهش الناس، لكن الأمر يأتى بالممارسة". ثم ضحك وأردف قائلاً: "لست حاوياً سيئاً أيضاً، لكننى كنت أمارس هذه الألعاب الخاصة بالحواة فى احتفالات رأس السنة لإسعاد الصغار، اعذرنى يا سيد لوجون، ماذا لديك فى جيبك الأمامى؟".

ثم مال وأخرج من جيب لوجون مطفأة سجائر صغيرة "ياه يا سيدى، أنت تعمل مع الشرطة! عار عليك".

ثم ضحك من قلبه وضحك لوجون معه، ثم تنهد أوزبورن وقال:

"أنا مستمتع بمكانى هنا يا سيدى، والجيران ودودون ولطفاء، وهذه هى الحياة التى كنت أتطلع إليها منذ سنوات، لكنى أعترف لك يا سيد لوجون أننى أفتقد متعة عملى وزبائنى المترددين على الصيدلية وأنواع الناس الكثيرة التى أدرسها. كنت أتوق لبناء حديقتى، ولدى هوايات كثيرة كجمع الفراشات ومراقبة الطيور، لكن لم أكن أدرك أننى سأشتاق للعنصر البشرى إلى هذا الحد".

"كنت أحب السفر خارج البلاد، وسافرت فى عطلة نهاية الأسبوع لفرنسا ؛ لكنى مع جمالها شعرت أن إنجلترا أنسب لى، ولم يعجبنى الطهو الأجنبى، فليس لديهم فكرة عن طبق اللحم بالبيض".

ثم تنهد مرة أخرى وقال:

"هذا يوضح غرابة الطبيعة البشرية، شوق بلا نهاية للتقاعد، ثم الآن تراودنى فكرة شراء صيدلية هنا فى "بورنماوث "ـ لسد الفراغ فى حياتى، ولن أهتم بالصيدلية طوال الوقت، لكن سأشبع رغبتى فى التعامل مع الناس. ربما نفس الحال معك، إن تقاعدت ستشتاق لحماس وإثارة عملك الحالى".

ابتسم لوجون وقال:

"حياة رجل الشرطة ليست بهذه الإثارة كما تظن يا أوزبورن، لديك وجهة نظر الهواة فى عملى، لكن معظمه عمل روتينى ممل، ولا نقوم بمطاردة المجرمين وتتبع أدلة غامضة طوال الوقت، بل أحياناً يكون الأمر مملاً جداً".

بدا أوزبورن غير مقتنع وقال:

"أنت أعلم منى بذلك، وداعاً يا سيد لوجون، وآسف على عدم تمكنى من مساعدتك، لكن أخبرنى فى أى وقت إن أردت أى مساعدة لاحقاً".

وعده لوجون قائلاً: "سأطلعك على الفور".

قال أوزبورن بحزن وهمس: "يوم الحفل الخيرى كان فرصة سانحة".

"أعلم ذلك، لكن الأدلة الطبية قاطعة، وستتغلب على الصدمة بمرور الوقت، أليس كذلك؟".

قال أوزبورن ببطء وبحرقة "حسنًا! "لكن لم يلاحظه لوجون الذى انطلق مسرعًا. راقبه أوزبورن عبر البوابة، ثم قال:

"دليل طبى! ليته يعلم نصف ما أعلمه عن الأطباء ـ كلهم أبرياء سذج!".

الفصل الحادى عشر

رواية مارك ايستربروك

1

أولاً هرميا والآن كوريجان.

حسنًا، يبدو أننى جعلت من نفسى أضحوكة! كنت أقبل الهراء على أنه حقيقة، وسحرنى وبهرنى كلام المدعية ثيرزا جراى لدرجة أننى قبلت كلاماً فارغًا كثيراً، كنت أحمق ساذجًا يصدق الخرافات.

قررت أن أنسى الأمر اللعين برمته، فما علاقته بى على أية حال؟ لكن عبر ضباب الصدمات والتوصل للنتيجة الحتمية بترك الأمر كله سمعت صدى صوت السيدة كالثروب تحثنى على مواصلة بحثى:

"عليك أن تفعل شيئًا!".

حسنًا ـ لا بأس من هذا القول.

"أنت بحاجة لمن يساعدك....".

احتجت مساعدة هرميا وكوريجان لكن كليهما لم

ينفع، إذن، من الذى أحتاج إليه؟ لا يوجد أحد.

إلا إذا ـــــ

جلست أفكر فى احتمال آخر.

بدون تفكير اتبعت حدسى واتصلت بالسيدة أوليفر.

"أهلاً، أنا مارك ايستربروك".

"نعم؟".

"هلا أخبرتنى باسم الفتاة التى قابلناها بعد الحفل الخيرى فى المنزل؟".

"نعم، انتظر.... نعم بالطبع، اسمها جنجر".

"أعنى اسمها الفعلى ولقبها".

"ماذا تعنى؟".

"بالتأكيد جنجر اسم للتدليل وليس اسمها الفعلى ""نعم، بالطبع لكنى لا أعرف اسمها، وهذه الأيام يحب الناس التلفظ بالاسم الأول دون اللقب، وهذه أول مرة أقابلها". ثم صمتت لبرهة وأضافت: "لِمَ لا تتصل برودا وتسألها؟".

لم أحبذ هذه الفكرة بسبب خجلى.

قلت لها: "لا يمكننى ذلك".

قالت مشجعة: "الأمر سهل وبسيط، قل لها إنك فقدت عنوانها ولا تذكر اسمها وقد وعدتها بأحد كتبك، أو أنك تريد منها معرفة اسم أفضل متجر يبيع الكافيار بسعر رخيص، أو تريد إعادة المنديل الذى أعارتك إياه عندما نزفت أنفك، أو تريد منها معرفة عنوان شخص ثرى يريد لوحة منك. كل هذه أعذار وجيهة يمكنك الاختيار منها، ويمكننى إخبارك بالمزيد إن أردت".

قلت لها: "شكرًا إنها تكفى بالفعل".

أغلقت السماعة واتصلت برودا.

قالت رودا: "جنجر؟ إنها تعيش فى "ميوز كاجارى بليس "مبنى رقم 45، انتظر دقيقة وسأعطيك رقم هاتفها". عادت بعد دقيقة وقالت: "كابر يكورن 35987، هل دونته؟".

"نعم، شكرًا، وما لقبها وما اسمها بالكامل؟".

"كاثرين كوريجان "، ماذا تريد أيضًا؟".

"لا شىء، شكرًا لك يا رودا".

بدا الأمر صدفة غريبة. لقبها كوريجان مثل صديقى ومثل الاسم المدون فى قائمته. ربما لم يكن فألاً حسنًا.

لكنى اتصلت بالرقم.

2

جلست جنجر أمامى على مائدة فى مطعم "الكوكاتو الأبيض "وتناولنا الشراب وبدت كما هى منذ رأيتها أول مرة فى قرية "ماتش ديبنج "مما أثارنى ـ كان شعرها الغزير الأحمر متروكًا على حريته ومبعثرًا ووجهها الجميل يعلوه النمش وعيناها الخضراون

جميلتين ويقظتين. كانت ترتدى زيًا جميلاً من لندن عبارة عن سروال ضيق ومعطف مفتوح وجورب أسود صوف ـ لكنها نفس الفتاة، وأعجبت بها للغاية.

قلت لها: "تعبت حتى توصلت إليك، اسمك ولقبك ورقم هاتفك ـ كلها كانت تفاصيل مجهولة مما مثل لى مشكلة حقًا".

"هكذا تقول لى خادمتى كلما أرادت التلميح بأن أشترى لها أداة جديدة لتنظيف الأطباق والأوانى أو فرشات غسل السجاجيد أو شيئًا مملاً آخر من هذا القبيل".

قلت لها: "معى لن تضطرى لشراء أى شىء".

ثم أخبرتها بالقصة كاملة فى زمن قصير، ليس فى مدة طويلة كما حدث مع هرميا، لأنها تعلم بالفعل أمر الجواد الأشهب وساكنيه. بعد أن فرغت من سردى حدت ببصرى عنها حتى لا أرى رد فعلها. لم أكن أريد رؤية الدهشة والشفقة والاستمتاع بقصة مسلية أو عدم تصديق صارخ. لقد بدا الأمر برمته أكثر حماقة من ذى قبل، ولا أحد يشعر بخطورته مثلى (سوى السيدة كالثروب). أخذت أرسم أشكالاً بالشوكة على مفرش المائدة.

قالت جنجر بمرح وبسرعة:

"هل هذا كل شىء؟".

"نعم".

"ماذا ستفعل؟".

"أتظنين أنه يجب أن أفعل شيئًا؟".

"بالطبع! يجب أن يفعل أحد شيئًا! لن نترك مؤسسة هدفها قتل الناس ونقف مكتوفى الأيدى".

"لكن ما الذى يمكننى فعله؟".

شعرت برغبة عارمة فى أن أحتضنها بشدة.

كانت تحتسى شرابها وتعبس بوجهها وهى تفكر معى وشعرت بالدفء، فلم أعد بمفردى بعد الآن.

قالت وهى تفكر:

"يجب أن نعرف ماذا يعنى كل هذا".

"أوافقك، لكن كيف؟".

"هناك خيط أو اثنان، وربما أستطيع مساعدتك".

"أحقًا؟ لكنك مرتبطة بعملك".

"هناك من سيحل محلى وهم كثيرون "، ثم عبثت بوجهها مرة أخرى وهى تفكر.

قالت فى النهاية: "الفتاة التى قابلتها فى المطعم بعد المسرح مع صديقك، التى تدعى بوبى، ربما تعرف الكثير".

"لكنها خافت عندما حاولت معرفة أى شىء منها ومن فرط ذعرها لم تتحدث، ولن تتحدث بالتأكيد لى".

قالت بثقة: "سأساعدك فى هذه النقطة، وستخبرنى بما لم تخبرك به، وعليك ترتيب لقائى بها. أنا وأنت وهى وصديقها، فى حفل عشاء أو عرض مسرحى أو أى مناسبة". ثم بدا عليها الشك وقالت: "أم أن الأمر مكلف؟".

أكدت لها أننى سأتحمل جميع النفقات.

فكرت لبرهة وقالت: "وأنت تتولى أمر توماسينا تاكرتون".

"كيف؟ لقد ماتت".

"وهناك من يستفيد من موتها، إن كانت قصتك صحيحة! ربما رتب أحدهم لموتها مع ساكنى الجواد الأشهب. هناك احتمالان، زوجة الأب أو الفتاة التى تشاجرت معها فى مقهى لويجى بسبب أنها خطفت منها صديقها. ربما كانت ستتزوجه، مما لا يتفق مع خطط زوجة الأب ـ أو خطط الفتاة الأخرى التى تحب الفتى بجنون. ربما ذهبت إحداهما للحصان الأشهب، وستجد طرف الخيط عند إحداهما، وبالمناسبة ما اسم الفتاة؟".

"كان اسمها "لو "".

"هل هى شقراء ونحيلة ومتوسطة الطول ونهداها كبيران؟".

قلت لها إن الوصف دقيق.

"غالبًا تقابلت معها من قبل، إنها لو إيليس، وهى ثرية.... "

"لكنها لم تبد ثرية".

"من فى مثل سنها لا يبدو عليه الثراء، بسبب نزعة التمرد، لكنها على أية حال غنية بما يكفى لدفع أتعاب ساكنى منزل الجواد الأشهب، فهن لا يقدمن خدماتهن مجانًا على ما أظن".

"بالكاد يمكن تخيل ذلك".

"تول أنت أمر زوجة الأب فهذا يناسبك أكثر منى، اذهب لرؤيتها...".

"لا أعلم أين تسكن أو أى معلومات عنها".

"لويجى يعلم منزل تومى وموقعه ودليل المنازل والهواتف سيدلك على الباقى، كم نحن أغبياء! ألم تقرأ النعى فى جريدة التايمز، اذهب للبحث فى ملفات الجريدة".

"وما العذر الذى سأقابل به زوجة الأب؟".

"أنت رجل شهير ومؤرخ وتلقى محاضرات وهناك كتب وخطابات باسمك، وستنبهر بك السيدة تاكرتون وينتابها فضول شديد لرؤيتك".

"والعذر؟".

قالت بشكل مبهم: "تريد مثلاً دراسة معمار منزلها العتيق".

"لكنه ليس كذلك".

قالت جنجر: "لا يهم أن تعرف ذلك زوجة الأب، فالناس يظنون أن كل ما زاد عمره على 100 عام عتيق ويود أى مؤرخ أو عالم آثار دراسته. ماذا عن صورك ولوحاتك القديمة؟ أنت مثلاُ تريد إكمال مجموعتك وتريد شراء لوحات قديمة منها، المهم أن تحدد معها موعداً وتبالغ فى مداهنتها وإطرائها وكن لطيفًا جداً معها ثم اذكر ابنة زوجها بشكل عارض واذكر الجواد الأشهب وكأنها مصادفة وراقب رد فعلها واذكر ذلك بشكل مريب إن كنت

تريد".

"ثم ماذا؟".

"عندما تلاحظ رد فعلها إن ذكرت الجواد الأشهب بدون مبرر، مع ضميرها الذى يعذبها، ستظهر لك أى علامة".

"إن ظهرت عليها أى علامات ماذا سأفعل؟". المهم أن نعرف أننا على الطريق الصحيح، وبمجرد التأكد سنهاجم بكل قوة".

ثم أومأت وهى تفكر ثم أضافت: "هناك شىء آخر، قل لى، لماذا أخبرتك ثيرزا بكل هذا؟ لماذا كانت صريحة معك؟".

"ربما الإجابة المنطقية هى أنها حمقاء".

"لا أعنى ذلك، بل لماذا اختصتك أنت دون

الآخرين؟ لماذا أنت على وجه الخصوص؟ ربما هناك صلة ما؟".

"مع ماذا؟".

"انتظر لحظة لأرتب أفكارى".

انتظرت ثم أومأت لى مرتين بتأكيد وعزم قبل أن تقول: "لنفترض ـ مجرد افتراض ـ أن بوبى تعلم كل شىء عن الجواد الأشهب بشكل مبهم ـ ليس من خلال معرفة شخصية، بل بسماع الإشاعات. إنها تبدو من ذلك النوع الذى لا يلقى له الناس بالاً عندما يتحدثون ـ لكنها فى الحقيقة تفهم الكثير بخلاف ما يعتقدون، والحمقى دائماً هكذا. ولنفترض أنها إن أحدهم سمعها تتحدث إليك عن هذا الموضوع ؛ فعنفها. وعندما سألتها عنه فى اليوم التالى، فلم تتحدث إليك لأنها خافت. ولكن سؤالك إياها محير أيضاً. فما سبب السؤال؟ أنت لست من الشرطة بل قد تكون عميلاً للحصان الأشهب".

"لكن بالتأكيد ـــــ".

"أنا أخبرك بما هو منطقى، هناك إشاعات كثيرة سمعناها، ونريد معرفة كل تفاصيلها لخدمة هدفك، لقد ذهبت للحفل الخيرى فى ماتش ديبنج وذهبت للحصان الأشهب ـ وغالباً طلبت ذلك ـ وماذا حدث؟ تحدثت معك ثيرزا وكأنك زبون المستقبل".

قلت لها: "ربما، كان هذا الاحتمال قائماً، لكن هل تظنين يا جنجر أنها قد تتمكن من فعل ما تزعم أنها قادرة عليه؟".

"أميل لإنكار ذلك! لكن هناك أموراً غريبة قد تحدث، وخاصة مع التنويم المغناطيسى، حيث تأمر أحدهم مثلاً أن يجلب قطعة من الشمع فى الساعة الرابعة عصراً فيفعل ذلك بدون سبب. إنها أمور غيبية، وهناك صناديق كهربية تضع بها نقطة دم لتعرف هل ستصاب بالسرطان أم لا فى خلال عامين. كل هذا يبدو هراء ـ لكن ربما ليس بشكل قاطع. بالنسبة لثيرزا جراى أظنها من الكاذبين ـ لكن أخشى أن احتمال حدوث ذلك وارد!".

قلت بهدوء ووجوم: "نعم هذا يفسر الأمر جيداً".

وأنا سأتولى أمر التحرى عن "لو "وأعلم أماكن كثيرة سأجدها فيها، ولويجى يعرف عنها الكثير أيضاً".

قالت: "لكن أهم شىء أن تتصل ببوبى".

تم الأمر الأخير هذا بسهولة، حيث إن ديفيد كان لديه وقت لثلاث ليالٍ وذهبنا لعرض موسيقى نحن الأربعة وكانت بوبى معه فى كل مكان، وتناولنا العشاء فى مطعم الفانتازيا ولاحظت أن الفتاتين تأخرتا فى تعديل مساحيق الوجه فى الحمام، وعادا وهما صديقتان حميمتان. بناءً على تعليمات جنجر لم نثر أى قضايا شائكة أو جدالية، ثم

افترقنا وأوصلت جنجر لمنزلها.

قالت بمرح: "ليس لدى الكثير لأخبرك به، لكنى ذهبت إلى لو، وعرفت أن الرجل الذى تشاجرت عليه يدعى جين بلايدون وهو شخص وصولى وقذر ويسعى للثراء والعلاقة الحميمة وكل الفتيات يحببنه وهو كان يسعى للزواج من لو ؛ لكنه رمى شباكه على تومى عندما ظهرت له، وأكدت له أنه كان يسعى لأموالها ولم يكن يكترث لها ـ لكن هذا مجرد رأيها الخاص. على أية حال ترك الفتى "لو "وتوجه إلى تومى مما جعل لو تشتاط غضبًا وقالت إنها لم تتشاجر بمعنى الكلمة بل كانت تثأر لكرامتها من فتاة أخرى بشكل عابر".

"عابر! لقد اقتلعت شعر تومى من جذوره! "

"أنا أخبرك بما قالته لى فقط".

"هل كانت صريحة إلى هذا الحد".

"نعم، كل الفتيات يحببن الكلام عن علاقاتهن لأى شخص ينصت لهن، لكن "لو "لديها على أية حال صديق آخر تحبه بجنون، وغالبًا لا علاقة لها بالجواد الأشهب، وعندما ذكرته لها لم تعرف ما هو ولم تفهم قصدى، وأعتقد أنها لا علاقة لها به فعليًا ويمكننا استبعادها. ومن ناحية أخرى كانت تومى تحب جين، وتنوى الزواج منه وهو كذلك أيضًا. هل ذهبت لزوجة الأب؟".

"إنها خارج البلاد وستعود غدًا، وكتبت لها خطابًا ـ أو بالأحرى جعلت سكرتيرتى تفعل ذلك ـ وطلبت موعدًا معها".

"جيد، نحن نمضى قدمًا بشكل رائع، وأتمنى ألا يفسد أى شىء خططنا".

"هذا إذا وصلنا إلى أى شىء!".

قالت بحماس: "سنصل حتمًا، وهذا يذكرنى بأن أناقش معك مسألة البداية ومقتل السيد جورمان الذى ذهب لامرأة تحتضر، هل ذكرت أنه قتل لأنه سمع اعترافاتها، وباحت له بسر خطير؟ ماذا حدث لهذه السيدة؟ هل ماتت؟ من كانت؟ ربما نجد دليلاً هنا".

"لقد ماتت ولا أعلم الكثير عنها وكان اسمها ديفيز".

"ألم تعرف المزيد عنها؟".

"سأحاول معرفة المزيد عنها".

"إن عرفنا خلفية حياتها قد نعرف ما باحت به".

"فهمت قصدك".

اتصلت بجيم كوريجان وسألته عن هذا الأمر.

"دعنى أر، لقد عرفنا عنها قليلاً من المعلومات. لم يكن اسمها الحقيقى ديفيز، لذلك عثرنا على بياناتها بصعوبة. انتظر لحظة لأجد لك ما كتبته عنها... نعم اسمها الحقيقى "آرشر "وزوجها كان نصاباً ولصاً صغير الشأن، وتركته وعادت لاسمها قبل الزواج "ديفيز".

"وزوجها آرشر، أين هو وما كانت جرائمه؟".

"أمور تافهة، مثل سرقة المتاجر وكلها سرقات تافهة وتمت إدانته بضع مرات، وهو متوفى الآن".

"لا توجد معلومات أكثر من ذلك؟".

"كلا، عدا أن الشركة التى كانت تعمل بها لم تعلم عنها وعن نشأتها أى شىء".

شكرته ووضعت السماعة.

الفصل الثانى عشر

رواية مارك ايستربروك

بعد ثلاثة أيام اتصلت بى جنجر: "لدى شىء لك، اكتب الاسم والعنوان التالى الذى سأمليه عليك".

أخذت دفترى وقلت: "أخبرينى بما عندك " "الاسم هو برادلى والعنوان 78 مبنى ميدان البلدية فى برمنجهام "

"ما الأمر؟".

"لا أعلم، ولا أعلم هل بوبى متأكد من هذا أم لا؟".

"بوبى؟ هل ـــــ".

"نعم، لقد تطور الأمر بينى وبينها. لقد أخبرتك بأننى إن حاولت سأستخلص منها بعض المعلومات. بعد أن قمت باستمالتها صار الأمر سهلاً".

قلت لها بفضول: "كيف فعلت ذلك؟".

ضحكت جنجر وقالت:

"إنه أمر يخص حوار وثرثرة النساء، ولن تفهمه، الأمور التى تثرثر بها النساء لبعضهن البعض غير مهمة كما تظن بوبى".

"إذن لقد خافت منى فقط؟".

"يمكنك أن تقول ذلك، على أية حال تناولت الغداء معها، وثرثرت عن حياتى العاطفية ـ وعوائق الحياة ـ وقمت بتأليف قصة مختلقة عن أن لى زوجًا أكرهه، ولا يريد أن يطلقنى وهو مُقعد ولن يموت قبل سنوات، وأننى أتمنى موته، وذكرت أننى أريد تجربة الجواد الأشهب، ولا أعرف كيف أذهب إليه، وهل هو غالى السعر؟ قالت بوبى إنه كذلك والأمر يتكلف ثروة، وقلت لها إننى أتوقع أموالاً كثيرة من عمى الكبير الذى لن أحب أن يموت لكنه سيترك لى ميراثًا كبيرًا، فذكرت لى بوبى الاسم والعنوان، وقالت إنه الوسيط بين الزبائن والجواد الأشهب".

قلت لها: "رائع!".

"نعم، إلى حد ما".

ثم ظللنا صامتين لبرهة من الوقت.

قلت لها وأنا غير مصدق: "هل قالت لك كل شيء ببساطة أم بدا عليها الخوف؟".

قالت بنفاد صبر: "أنت لا تفهم، سرد الخبر نفسه غير مهم، فيجب يا مارك الإعلان عن الخدمات

التجارية، أليس كذلك؟ وإلا لن يحصل الجواد الأشهب على عملاء جدد طوال الوقت".

"نحن مجانين إن صدقنا ذلك".

"حسنًا، نحن مجانين، هل ستذهب لمقابلة السيد برادلى فى برمنجهام؟ "

"نعم سأراه إن كان حقًا له وجود".

بالكاد كنت أصدق أن له وجودًا، لكنى كنت مخطئًا، فهو موجود بالفعل.

كان مبنى ميدان البلدية ضخمًا وكخلية النحل من كثرة عدد المكاتب، وكان المكتب 78 فى الطابق الثالث، وعلى زجاج الباب هناك لافتة سوداء أنيقة مطبوعة ومدون عليها: "س. ر.برادلى، وكيل أعمال "وتحتها بخط أصغر: "تفضل بالدخول".

ودخلت بالفعل.

كان هذا هو المكتب الخارجى وكان فارغًا وهناك باب أمامى مدون عليه كلمة "خاص "وكان نصف مفتوح وجاءنى الصوت من خلفه: "تفضل بالدخول".

كان المكتب الداخلى كبيراً وبه مكتب ومقعدان وثيران وهاتف وملفات خشبية، وكان السيد برادلى جالسًا خلف المكتب.

كان رجلاً ضئيلاً وأسمر وله عينان سوداون حادتا النظرات بهما أمارات الدهاء ويرتدى بدلة عمل سوداء ويبدو عليه قمة الاحترام.

قال بدماثة: "هلا أغلقت الباب من فضلك؟ تفضل بالجلوس، هذا المقعد مريح، تفضل سيجاراً؟ كلا لا تدخن؟ حسنًا، كيف أساعدك؟".

نظرت إليه ولم أعرف كيف أبدأ ولم يكن لدى أدنى فكرة عما سأقوله، وكان ذلك محبطًا جداً مما دفعنى لقول العبارة التالية وأنا أنظر لعينيه الصغيرتين السوداوين.

"كم تريد؟".

بدت عليه الدهشة قليلاً مما أسعدنى، لكن ليس إلى درجة كبيرة. ولم يفترض، كما

كنت سأفترض إن كنت مكانه، أن من جاءه مجنون وأحمق.

قال لى: "ياه، أنت لا تحب إضاعة الوقت أليس كذلك؟".

تمسكت بموقفى التمثيلى وقلت له نفس العبارة: "كم تريد؟".

هز رأسه برفق فى عتاب وقال:

"هذه ليست بداية موفقة للنقاش، يجب أن نتحدث كما يجب أولاً".

هززت كتفى بلا اكتراث وقلت:

"كم تريد، ما هى الطريقة المناسبة؟".

"ألا تقدم لى نفسك، فأنا لا أعرف اسمك".

"فى موقف كهذا لا أحب أن أعرفك بنفسى".

"من باب الحرص؟".

"نعم".

"الحرص صفة جديرة بالإعجاب ـ لكنه لا يمارسها الجميع دومًا. من أرسلك لى؟ ومن الذى أعلمك بأمرى؟".

"أيضًا لن أخبرك بهذا، لقد علمت بأمرك من صديق صديق صديقى".

أومأ برأسه وقال:

"تلك طريقة مجئ معظم زبائنى، هناك مشاكل كثيرة ـ شائكة، وتعرف مهنتى بالطبع؟".

لم ينتظر منى الرد وقال بسرعة:

"أنا وكيل أعمال، هل أنت مهتم ـ بالخيول؟". صمت لبرهة قصيرة قبل آخر كلمة.

قلت له نافيًا نفيًا قاطعًا: "لا أحب سباق الخيول".

"هناك جوانب أخرى للخيول ؛ السباق والركوب والصيد والفروسية. أنا أحب جانبها الرياضى والمراهنات "، ثم صمت لبرهة وقال بشكل عابر ـ ومصطنع:

"هل تحب الحديث عن حصان محدد؟".

هززت كتفى بلا اكتراث، وقطعت على نفسى خط الرجوع، قائلاً:

"الجواد الأشهب".

"رائع، ممتاز، أنت مهتم بالجواد الأشهب مع أنك تبدو حصانًا أسود، ها ها! لا داعى للتوتر حقًا".

قلت له بوقاحة: "هذا رأيك أنت".

كان حواره لطيفًا ودمثًا ورقيقًا:

"أتفهم مشاعرك جيداً، وأؤكد لك أنه لا داعى للقلق فأنا محام ـ طردت من النقابة بالطبع "قال تلك العبارة الاعتراضية بشكل مثير للاهتمام "وإلا لما كنت هنا. لكن أؤكد لك أننى أعرف القانون جيداً وكل ما أوصى به يحترم القانون، ولا يوجد به شبهة غير قانونية. إنها مسألة رهان، فأى رجل يراهن على أى شىء ـ هل ستمطر السماء غداً أم لا، هل سيرسل الروس أول إنسان للقمر أم لا، هل ستلد زوجته توأماً أم لا، هل السيدة (س) ستموت قبل الكريسماس أم أنها ستعيش حتى تبلغ 100 عام من العمر. أى أنك تدعم رأيك أو حدسك بالمال إن أردت ذلك، بكل بساطة".

شعرت وكأنه جراح يطمئننى قبل العملية، وكانت تصرفاته وسلوكه كمستشار ممتازة.

قلت له ببطء:

"لا أفهم موضوع الجواد الأشهب".

"وهل هذا يقلقك؟ إنه يقلق الكثيرين، هناك الكثير ما بين الأرض والسماء يا عزيزى، هو ريشيو إلخ إلخ إلخ. فى الواقع أنا لا أفهمه، لكن نتائجه أكيدة إلى حد كبير جداً".

"هلا أخبرتنى بالمزيد ـــ".

لقد أتقنت تمثيل دورى الآن كرجل حذر ومتحمس لكنه خائف، ومن الواضح أنه اعتاد على التعامل مع هذا التوجه.

"هل تعرف المكان؟".

اتخذت قراراً سريعاً وفورياً بأنه من عدم الحكمة الكذب الآن.

"نعم كنت مع مجموعة أصدقاء ذهبوا بى إلى هناك ـــ".

"مقهى جميل وقديم، ملئ بالتاريخ وعبقه. وفعلوا معجزة فى تجديده، وهل قابلت الآنسة جراى؟".

"نعم، وهى امرأة غير عادية".

"نعم بالفعل، أليس كذلك؟ لقد وصفتها بدقة، فهى امرأة غير عادية ولها قوى غير

عادية".

"إنها تدعى أموراً كثيرة! وهى بالتأكيد ـ مستحيلة".

"بالطبع، هذه هى النقطة، كل ما تزعم مقدرتها على فعله يبدو مستحيلاً! الكل يقول ذلك، فى المحكمة مثلاً ـــــ".

كانت عيناه الصغيرتان السوداوان تكادان تخترقاننى بنظراتهما وكرر كلماته بشكل مؤكد ومصطنع:

"فى المحكمة مثلاً ـ الأمر كله سيكون مثيراً للسخرية! إن قامت امرأة واعترفت بجريمة قتل تمت بالتحكم عن بعد أو "قوة الإرادة "، أو أى اسم آخر بلا معنى، فلن يعتد بشهاداتها واعترافها! حتى وإن كانت على حق (ورجال عقلاء مثلى ومثلك لن يصدقوا ذلك!)، لكن الأمر لن يعترف به قانونيًا، لأن القتل بالتحكم عن بعد ليس قتلاً من وجهة نظر القانون، بل هو مجرد هراء وهذا سر جمال العملية ـ ستقدره إذا فكرت لبرهة".

فهمت أنه يطمئننى، لأن القتل بالقوى السحرية الغريبة لا يعتبر قتلاً بمنطق القانون الإنجليزى، والمحكمة البريطانية وإن أجرت استأجرت قاتلاً محترفًا ليقتل بالنيابة عنى بواسطة سكين أو هراوة، ولتلقيت عقوبة المتواطئ والمحرض على القتل لأنى تآمرت معه، لكن إن طلبت خدمات ثيرزا جراى وكلفتها باستخدام السحر الأسود ـ فلن يلومنى أحد والسحر لا يقع تحت طائلة القانون ووفقًا لبرادلى هذا هو سر جمال العملية.

كل شكوكى الطبيعية همت بالاعتراض وصحت به بكل حماس:

"اللعنة، إنه كله هراء. لا أصدق! مستحيل؟".

"أتفق معك تمامًا، لأن ثيرزا جراى امرأة غير عادية ولديها قوى غير عادية، ولكن لا يستطيع المرء تصديق كل ما تدعيه لنفسها، فهو أمر غريب جدًا لدرجة تدعو إلى عدم تصديقه، على حد قولك، ففى هذا العصر لا أحد يصدق أن أحدهم يرسل موجات فكرية، أو أيًا كان اسمها، أو أن يصبح أحدهم وسيطًا روحانيًا، ويجلس فى كوخ فى إنجلترا، ويتسبب فى وفاة شخص آخر نتيجة مرض بشكل مريح لشخص فى كابرى فى إيطاليا مثلاً".

"لكن هذا ما تدعيه ثيرزا جراى".

"نعم فلديها قوى غريبة سحرية ـ فهى أسكتلندية والاستبصار هو خاصية فى سلالتها، والأمر يحدث

فعلاً، وهذا لاشك فيه من جانبى "، ثم مال إلى الأمام وقال وهو يحرك أصبع السبابة بشكل مبهر مضيفًا:

"ثيرزا تعرف الغيبيات ـ وتعرف مقدماً ـ موعد موت أى شخص، وهى موهبة تملكها حقاً".

ثم انحنى للخلف وتفرس فى وجهى وانتظرت فى صمت.

قال لى: "لنفترض افتراضاً عابراً، مثلاً، تريد أن تعرف أنت أو غيرك ـ بشكل مُلح متى ستموت العمة إليزا ـ مثلاً ـ فمن المفيد معرفة ذلك من أجل الميراث. لا شىء شرير فى معرفة ذلك ـ بل الأمر كله مسألة عمل ومصالح، والخطط التى سنضعها للمستقبل، هل سترثها فى نوفمبر القادم مثلاً، وبالتالى ستختار خيارات المستقبل بعناية. الموت أمر غيبى، وقد تعيش العمة نتيجة جهود الأطباء ومهاراتهم لعشر سنوات أخرى رغم صحتها المعتلة، وستسعد بذلك لأنك تحبها، لكن من المفيد معرفة متى ستموت".

صمت ثم مال للأمام قليلاً وقال:

"ها هنا يأتى دورى، فأنا رجل المراهنات وأراهن على كل شىء ـ بشروطى بالطبع. جئت لترانى، ولن تراهن على وفاة العمة المزعومة، فهذا أمر كريه لأفكارك ومشاعرك النبيلة، لنقل فى الرهان إنها ستكون فى أتم صحة فى عيد رأس السنة القادمة، هذا رأيك، ورهانى أنها ستموت قبل ذلك، مثلاً".

راقبنى بعينيه السوداوين الصغيرتين ثم واصل حواره:

"إنه لأمر بسيط، ولا شىء غير أخلاقى به، أنا أراهن أنها ستموت قريباً وأنت تقول العكس، وأنا أقول، مثلاً، إننا سنقرأ نعيها بعد أسبوعين فى الصحف، وأنت تراهن على العكس. إن كنت محقاً سأدفع لك وإن كنت أنت مخطئاً ستدفع لى!".

نظرت إليه وحاولت استجماع مشاعرى وتظاهرت بأننى رجل يريد وفاة عجوز ثرية ليرثها. فكرت فى أن أحول الأمر لابتزاز، شخص يبتزنى منذ سنوات ولا أتحمل المزيد، وأريد موته، وليس لدى الشجاعة لقتله، وسأعطى أى مبلغ لمن يقوم لى بالمهمة ـــ".

تحدثت بصوت خشن وقمت بتمثيل الدور بثقة:

"ما هى الشروط؟".

تغيرت نبرة صوت برادلى بسرعة وقال بمرح وهزل:

"ها هنا سنتفق ونسوى الأمر، أليس كذلك؟ هذا معنى عبارتك الأولى: "كم تريد؟ "ها ها ها! لقد أجفلتنى عندما ذكرت هذه العبارة، لم أسمع أحداً يلخص الحوار بهذه السرعة".

"ما هى الشروط؟".

هذا يعتمد على أمور أخرى وعوامل مختلفة عديدة، مثل المبلغ المعرض للخطر، ومصادر أموال العميل المتاحة له. مثلا التخلص من الزوج أو المبتز يعتمد على قدرة العميل المالية. أنا لا أعمل مع العملاء الفقراء إلا إذا كانت حالة ميراث كما شرحت، فهذه العملية يعتمد أجرها على ثروة العمة إليزا مثلاً. الشروط هى الاتفاق المتبادل وكلانا مستفيد أليس كذلك والاحتمالات 500 إلى 1".

"500 إلى 1؟ هذه مجازفة كبيرة".

"مراهناتى دومًا بها مجازفة، ولو كانت العمة إليزا معتلة الصحة إلى حد يؤكد موتها، ما كنت لتأتى لى. التنبؤ بموت أحد فى خلال أسبوعين رهان طويل وخمسة آلاف جنيه مقابل مائة جنيه ليس رهانًا صعبًا".

"ماذا لو خسرت؟".

هز كتفيه بلا اكتراث: "مجرد سوء حظ لى، وسأدفع لك مائة جنيه".

"وإن خسرت أنا سأدفع لك، لكن ماذا لو لم أدفع؟".

مال للخلف فى مقعده وقال وهو يغلق عينيه قليلاً:

"لا أنصحك بذلك حقًا".

على الرغم من صوته كانت هناك رعشة وقشعريرة فى جسدى على الرغم من أن التهديد ليس مباشرًا لكنه موجود.

نهضت وقلت: "سأفكر فى الأمر".

عاد لدماثته ومرحه وقال: "بالتأكيد يجب أن تفكر ولا تتسرع إن قررت فعد لى وخذ وقتك فى التفكير. لا داعى للعجلة".

خرجت وكلاماته ترن فى أذنى:

"خذ وقتك...".

الفصل الثالث عشر

رواية مارك ايستربروك

تقاعست عن مهمة لقاء السيدة تاكرتون للغاية وحثتنى جنجر لكن لم أكن مقتنعًا بمدى حكمة تلك الخطوة، وكبداية شعرت أننى لا أصلح للمهمة التى وكلت نفسى بها، وتشككت فى قدرتى على إحداث رد الفعل المطلوب، وكنت على يقين بأن أمرى سيفتضح كمتظاهر ومُدعٍ.

ظلت جنجر تحثنى عبر الهاتف بطريقتها المقنعة وكفاءتها التامة التى تظهرها عند الحاجة وحسب رغبتها ؛ حيث قالت:

"سيكون الأمر بسيطًا للغاية، منزلها مبنى على طراز المهندس المعمارى "ناش "، وليس الطراز المألوف والمعتاد منه، بل كان من نتاج خياله لقد جعله على الطراز الذى يشبه الطراز القوطى".

"ولماذا ستقتنع أننى أريد فحص المنزل؟".

"لأنك ستكتب مقالاً أو كتاباً عن التأثيرات التى تسبب تغيرات فى أسلوب المهندس المعمارى، أو أى قضية مشابهة".

"هذا يبدو لى كذبًا وغير قابل للتصديق".

قالت بقوة ومرح: "هراء، عندما يتحدث الناس عن موضوعات علمية أو فنية وكتابة النظريات والدفاع عنها رقم غرابتها وعدم قابليتها للتصديق، وبشكل جاد جداً، وبواسطة أناس غير متوقعين، فكل هذا يكتسب أهمية ومصداقية، ويمكننى ضرب أمثلة عن فصول ضخمة مؤثرة من كتب ؛ لكنها فى الواقع هراء".

"لذلك أنت شخصية مناسبة للمهمة بدلاً منى".

"إنك مخطئ بهذا الشأن، فأنت شخصية مشهورة وإذا قامت السيدة تاكرتون بالبحث عن اسمك فى موسوعة المشاهير، ستنبهر، لكنها لن تجد اسمى أنا بها".

ظللت غير مقتنع، لكن أسقط فى يدى، مؤقتًا.

بعد عودتى من لقاء السيد برادلى تقابلت مع جنجر وفكرنا معًا. وكانت أكثر تصديقًا للأمر مقارنة بى، مما جعلها تشعر بالرضا إلى حد كبير بأننا نسير فى طريق

سليم سيؤدى للحقيقة.

قالت لى: "هذا يضع حداً لمسألة ما إذا كنا واهمين أم لا، فنحن نعلم الآن يقيناً أن هناك منظمة عملها تصفية الناس غير المرغوب فيهم".

"بطرق خارقة للطبيعة!".

"أنت ضيق الأفق فى تفكيرك. ملابس "سيبل "الغريبة، والجعارين المزيفة تعطل تفكيرك، وإذا اتضح أن برادلى طبيب مزيف أو عالم فلك مدعٍ ستظل غير مقتنع، لكن بما أنه ليس هكذا بل هو نصاب قانونى ومحتال دنئ ـ أو ربما هذا هو الانطباع الذى أعطيته أنت لى بكلامك عنه ـــ".

"بل ما قلته عنه هو الواقع".

"هذا يجعل الأمور تتضح وتتسق، ومهما بدا الأمر يبدو مزيفاً أو نوعاً من الخزعبلات، فإن هؤلاء النسوة الثلاث اللاتى يقطن الجواد الأشهب يمتلكن شيئاً ما ينجح فى القتل".

"إن كنت مقتنعة تماماً، فلماذا يجب أن أذهب إلى السيدة تاكرتون؟".

قالت جنجر: "مجرد تأكيد إضافى، نحن نعرف ما تدعى ثيرزا جراى أنها تستطيع القيام به، ونعلم كيفية تولى المسائل المالية لهن، لكننا لا نعرف سوى القليل عن حياة الضحايا، يجب أن نغطى زاوية العملاء".

"لكن ربما لا تظهر السيدة تاكرتون أى علامة تدل أنها كانت عميلة؟".

"إذن سنبحث فى مكان آخر لنجرى تحقيقاتنا".

قلت بكآبة: "وربما أفسد الأمر بحماقتى".

قالت جنجر إنه يجب أن أنظر إلى نفسى بشكل أفضل وألا أقلل من شأنى.

وها أنا الآن أصل أمام البوابة الأمامية لحديقة "كاراواى بارك "، حيث يقع قصر السيدة تاكرتون الذى لا يشبه أى أفكار مسبقة عن الطراز المعمارى لـ "ناش "فهو ـ وفقاً لمعلوماتى ـ كقلعة مصغرة لها أبعاد متواضعة. وعدتنى جنجر بإعطائى كتاباً صدر مؤخراً عن الطراز المعمارى لـ "ناش "لكنه لم يصل فى الوقت المناسب، وبالتالى كانت معلوماتى غير كافية فى هذا الموضوع.

ضغطت على الجرس وفتح لى الباب رجل يبدو معتل الصحة، ويرتدى معطفاً من الصوف.

قال: "أأنت السيد ايستربروك؟ كانت السيدة تاكرتون فى انتظارك".

أدخلنى إلى حجرة ضيوف ذات أثاث ضخم وقديم لكن ترك لدى انطباعاً سيئاً للغاية. كل محتوياتها كانت غالية الثمن، لكن تم اختيارها بدون ذوق، ولو تركت القاعة بدونه لكانت أجمل. كان هناك لوحتان رائعتان والباقى لوحات بشعة، وكان هناك الكثير من أقمشة البروكيد (الديباج المطرز) الأصفر اللون، وأنا منهمك فى تآملاتى هذه، قطع حبل أفكارى وصول السيدة تاكرتون بنفسها. قمت بصعوبة من على الأريكة الوثيرة العميقة المغطاة بقماش البروكيد.

لم أعرف أو أتوقع أى شىء، وشعرت أن مشاعرى اضطربت تماماً وكدت أقوم بإلغاء المهمة. لم يكن هناك أى شىء شرير أو يوحى بالشر هنا، مجرد شابة عادية لم تصل بعد لمنتصف العمر ومتواضعة الجمال، بالرغم من أحمر الشفاه الموضوع بغزارة على شفاه نحيلة، مما زاد قبحها، وذقنها مسحوب للوراء قليلاً، وعيناها زرقاوان باهتتان وأعطتنى انطباعاً أنها سيدة تقيمّ سعر كل شىء حولها. كانت من النساء اللاتى يتميزن بالبخل ولا يعطين بقشيشاً مناسباً للسعاة وحاملى الحقائب وغيرهم. كان هناك نساء كثيرات مثلها فى الحياة، لكن ملابسهن ليست غالية أو مكلفة مثلها ولا يضعن الكثير من المساحيق مثلها.

كانت سعيدة جداً لزيارتى وهى تقول: "السيد ايستربروك؟". وكان ذلك ظاهراً وبادياً على وجهها. كانت تتحدث بعبارات دمثة للترحيب: "أنا سعيدة جداً بمقابلتك، شىء رائع أن تهتم بمعمار منزلى، بالطبع كنت أعلم أن من صممه هو جون ناش، فزوجى أخبرنى بذلك، لكنى لم أدرك أن شخصاً مهماً مثلك سيهتم به!".

"حسناً يا سيدة تاكرتون، ليس هذا طرازه المعمارى المألوف عنه، مما يجعل من المثير أن ـــ".

وفرت علىّ مجهود الاستمرار فى الكذب وقالت:

"أخشى أننى لا أفهم أى شىء عن تلك الأمور ـ أعنى المعمار والآثار، واعذرنى على جهلى".

لم أمانع أبداً بل كنت أفضل ذلك.

ثم قالت: "بالطبع كل شىء فى المنزل هنا مثير جداً".

قلت لها إننا معشر المتخصصين نرى العكس تماماً ؛ حيث يبدو لنا الموضوع كله مملاً وكئيباً.

قالت إنها متأكدة من أن هذا ليس صحيحاً، وسألتنى هل أريد تناول الشاى أولاً قبل رؤية المنزل أم العكس.

لم أرغب فى تناول أى شىء ـ وكان موعدى معها الساعة الثالثة والنصف عصراً،

وقلت إننى أفضل التجول فى أرجاء المنزل أولاً.

اصطحبتنى فى جولة فى أرجاء المنزل، وكانت تثرثر بحماس لمعظم الوقت وبالتالى أراحتنى من مسألة الثرثرة عن طراز المعمار.

قالت إننى محظوظ لأننى جئت إليها الآن وهى تعرض المنزل للبيع. قالت: "صار المنزل كبير جداً على منذ وفاة زوجى "ـ وكانت تعتقد أنه ربما كان هناك مشترٍ بالفعل على الرغم من أن السمسار لم يعلن عن أن المنزل للبيع إلا منذ أسبوع.

"لم أكن أحب أن ترى المنزل وهو شبه فارغ، فالمنزل لكى يكون منزلاً يجب أن يعيش به أحد، حتى يقدره الناس، أليس كذلك يا سيد ايستربروك؟".

لم أقل لها بالطبع إننى أفضله بلا سكان وبلا أثاث، وسألتها هل ستظل ساكنة فى نفس الحى أم لا.

"لست متأكدة حتى الآن حقًا، بل سأسافر أولاً فأنا أحب الشمس الدافئة وأكره الجو الكئيب شتاءً، وأفكر جديًا فى قضاء الشتاء فى مصر، لقد ذهبت إليها ذات مرة منذ عامين، يا لها من دولة رائعة، ربما تعلم عنها الكثير".

فى الواقع لا أعلم أى شىء عن مصر وذكرت لها ذلك.

قالت بمرح: "لا داعى للتظاهر بالتواضع". وشعرت أنها تقول ذلك بشكل مبهم وغامض أيضًا، ثم واصلت قائلة: "هذه قاعة الطعام وهى مكونة من حجرة ثمانية الأضلاع، أليس كذلك؟ بلا أركان أو زوايا".

قلت لها إنها محقة تمامًا ومدحت أبعاد القاعة.

بعد انتهاء الجولة عدنا لقاعة الضيوف وطلبت السيدة تاكرتون الشاى ودقت الجرس للخدم. جاء الخادم المعتل الصحة حاملاً الشاى، وكان البراد قديمًا وفضيًا على الطراز الفيكتورى، ويحتاج للتنظيف، مما يدل على بخلها الشديد.

تنهدت السيدة تاكرتون وهو يغادر الحجرة وقالت:

"بعد وفاة زوجى أصر الخادم والخادمة المتزوجان على الرحيل، وقالا إنهما سيتقاعدان بعد عشرين عامًا من الخدمة هنا، لكن عرفت لاحقًا أنهما التحقا بالعمل مع آخرين بمرتب أكبر. أعتقد أن راتبًا كهذا لن أدفعه فهو كبير جداً ـ عندما تفكر فى تكاليف معيشتهم وإقامتهم هنا ـ ولا داعى لذكر تكاليف نظافة وكى ملابسهم".

فكرت كم هى بخيلة ودنيئة، وعيناها الباهتتان وفمها الضيق النحيل يوحى بما فطنت له ـ إنها جشعة وطماعة.

لم يكن هناك أى صعوبة فى أن أجعلها تتكلم، فهى ثرثارة محبة للكلام، وخاصة

الكلام عن نفسها، وقد عرفت عنها الكثير، ولم يكلفنى ذلك أكثر الإنصات الجيد بانتباه شديد، والتفوه بكلمات التشجيع على مواصلة الكلام كل فترة. عرفت عنها أكثر مما كانت هى تقوله عن نفسها، وأكثر مما تعى بأنها توضحه لى.

علمت أنها تزوجت توماس تاكرتون الأرمل منذ خمس سنوات، وكانت أصغر منه بكثير، وقابلته عندما كانت تعمل مضيفة فى فندق كبير على البحر. لم تعرف أنها قالت المعلومة الأخيرة هذه كزلة لسان. كان بجوار الفندق ابنته ومدرستها، وكان من الصعب أن يتنزه مع الفتاة إلا فى مكان قريب من المدرسة الداخلية.

قالت: "توماس المسكين كان وحيداً جداً.... وقد ماتت زوجته منذ سنوات وكان يفتقدها جداً".

ثم واصلت كلامها عن نفسها. كانت تقول إنها سيدة طيبة جداً أخذتها الشفقة والرحمة برجل وحيد عجوز، وتحدثت عن إخلاصها له وصحته المعتلة المتدهورة.

"فى آخر مراحل مرضه لم يكن لدى أى أصدقاء أخرج معهم، وكنت أعتنى به كزوجة مخلصة".

ربما لم يسمح لها الزوج الخروج بصحبة الرجال الآخرين من أصدقائه، أليس كذلك؟ ربما هذا قد يفسر بنود وصيته.

أرتنى جنجر بنود وصيته فى منزل سومرست.

لقد ترك بعض التركة للخدم الكبار سنًا، والبعض الآخر لأطفاله بالكفالة وجزءاً لزوجته ـ كافيًا لكن ليس ببذخ، مجرد وديعة ودخلها وريعها يظل طيلة حياتها. أما باقى التركة (مبلغ من 6 أرقام) فيؤول لابنته توماسينا ـ آن عندما تبلغ سن الرشد (21 عامًا) أو عند زواجها. وإن ماتت قبل سن الواحدة والعشرين بدون زواج، فتؤول التركة لزوجة الأب. غالبًا لم يكن لديه أسرة أو أفراد عائلة آخرين.

إذن المقابل سخى جداً والسيدة تاكرتون تحب المال... وتحيط نفسها بكل مظاهر الترف والبذخ، وهى بخيلة أيضًا وحريصة على المال. كنت متأكداً أنها لم تملك أى مال فى حياتها السابقة إلا بعد زواجها من الأرمل العجوز الثرى. ربما كانت هذه الدوافع كافية للذهاب لمقهى الجواد الأشهب. فقد كانت حياتها متعلقة بعجوز مريض عاجز، وكانت تتوق لوقت تنال فيه حريتها وهى مازالت شابة وتصبح ثرية بأكثر مما كانت تتخيل فى أحلامها.

ربما كانت وصيته مصدر إحباط لها، فقد كانت تحلم بأكثر من مجرد دخل سنوى متواضع، بل كانت تتوق إلى حياة مليئة بالسفر لأماكن بعيدة، ورحلات فخمة فى البحر، وملابس ثمينة ومجوهرات ـ أو ربما كان امتلاك المال فى حد ذاته مصدر متعة

لها ـ وهى تراقب نمو ثروتها فى البنوك.

لكن بدلاً من كل هذا ستؤول الثروة للفتاة! ستكون وريثة غنية، وغالبًا لم تكن تحب زوجة أبيها، وأظهرت هذا بحياة عابثة لاهية فى شبابها. ستكون الفتاة غنية ـ إلا إذا....

إلا إذا...؟ هل كان هذا دافعًا قويًا للتخلص منها؟ هل هذه السيدة الشقراء المبهرجة المظهر التى تتفوه بعبارات مبتذلة بطلاقة لسان قادرة على السعى نحو الجواد الأشهب وترتيب موت الفتاة؟

كلا، لا أصدق ذلك...

على أية حال سأؤدى دورى، ولذلك قلت فجأة:

"أتعلمين أننى قابلت ابنة زوجك الراحل ذات مرة؟".

نظرت لى بدهشة بسيطة وكأنها غير مهتمة.

"توماسينا؟ أحقًا؟".

"نعم، فى مدينة تشيلسى".

"أوه، تشيلسى! نعم ربما كان هذا... "تنهدت وأردفت قائلة: "يا لفتيات هذه الأيام! من الصعب التحكم بهن. كانت تضايق أباها جدًا، ولم أستطع حل النزاع بينهما بالطبع، ولم تسمع نصائحى أو أى شىء أقوله "، ثم تنهدت ثانية وأضافت: "كانت بالكاد قد كبرت، عندما تزوجت أباها، وزوجة الأب دومًا غير محبوبة "، ثم هزت رأسها فى أسى.

قلت لها بتعاطف: "دائمًا موقف صعب فعلاً".

"كنت أعطيها مصروفًا كبيرًا ـ وبذلت كل جهدى لإسعادها".

"أنا متأكد من ذلك".

"لكن كل هذا كان بلا فائدة، بالطبع توم لم يسمح لها أن تكون وقحة معى، ولكنها أحالت حياتى إلى جحيم لا يطاق. كانت الحياة هنا مستحيلة بسببها، وقد ارتحت عندما أصرت على ترك المنزل، لكن لم أفهم مشاعر توم إزاء ذلك، فلقد صادقت مجموعة من الناس لا يليقون بها".

"فهمت".

عدلت تسريحة شعرها، وعبثت بخصلاته ونظرت لى وقالت: "يا لتوماسينا المسكينة، لعلك تعرف أنها ماتت منذ شهر، فقد أصيبت بالتهاب فى المخ ـ فجأة. إنه مرض يهاجم الشباب على ما أظن، يا للأسى".

"لقد علمت أنها ماتت".

ثم نهضت.

"شكراً لك يا سيدة تاكرتون على جولتك معى حول المنزل "

ثم صافحتها وابتعدت قليلاً ثم استدرت لها مرة أخرى.

"بالمناسبة، لقد سمعت عن الجواد الأشهب، أليس كذلك؟".

لم أشك فى معنى رد فعلها. فقد كان الفزع التام ظاهراً فى عينيها الباهتتين وتحت مساحيق التجميل كان وجهها أبيض وشاحباً من الذعر والخوف.

جاء صوتها عالياً كالصياح وقالت:

"ماذا تعنى بالجواد الأشهب؟ لا أعلم أى شىء بهذا الاسم".

تظاهرت بالدهشة، وقلت لها:

"أوه ـ إذن هذا خطئى. إنه مقهى قديم جداً ـ فى منطقة ماتش ديبنج. ذهبت إليه مع أصدقائى وكان قد تم تجديده بشكل مثير وجميل مع الحفاظ على الجو القديم العتيق له، وربما سمعت اسمك يقال هناك ـ أو ربما ذهبت ابنة زوجك إلى هناك ذات مرة ـ أو ربما شخصية أخرى بنفس الاسم، ثم صمت هنيهة وقلت: "المكان له سمعة كبيرة بالفعل".

استمتعت بجملتى الأخيرة التى ذكرتها وأنا خارج، وفى إحدى مرايا الحائط شاهدت انعكاس وجه السيدة تاكرتون. كانت تحدق خلفى وكانت خائفة للغاية وتخيلت وجهها وكيف سيكون بعد سنوات... قبيحاً للغاية.

الفصل الرابع عشر

رواية مارك ايستربروك

1

قالت جنجر: "إذن نحن الآن متأكدون تمامًا".

"كنا متأكدين من قبل".

"نعم ـ إلى حد ما، لكن الآن نحن متأكدون تمامًا لأن هذا الأمر يؤكد كل شكوكنا".

لذت بالصمت لدقيقتين تقريبًا، وتخيلت السيدة تاكرتون تذهب إلى برمنجهام وتدخل مبنى ميدان البلدية ـ وتقابل السيد برادلى. تخيلت ترقبها وتوترها.... ودماثته وهدوءه والطمأنينة التى يبثها فى العملاء، وتأكيده الماهر على عدم وجود مجازفة (بالتأكيد كان سيعانى من صعوبة تأكيد ذلك للسيدة تاكرتون). تخيلتها تمضى من مكتبه ولم تلزم نفسها بالتعاون معه بعد، ثم تركت الفكرة تتغلغل فى رأسها، ثم ذهبت لرؤية ابنة زوجها أو جاءت هى إليها فى عطلة نهاية الأسبوع، وحدث حوار وتلميحات عن الزواج القريب. وطوال الوقت كانت تفكر فى النقود ـ ليست أموالاً بسيطة ومبلغًا زهيداً كل شهر ـ بل ثروة طائلة تمكنها من أن تفعل ما تريد وتحصل على كل ما تريد! كل هذه الثروة ستؤول لفتاة منحلة أخلاقيًا وسلوكها سيئ، وتسير ببطء فى مقاهى تشيلسى وهى ترتدى "الجينز والبلوفر "الصوف الواسع الفضفاض، وتصاحب أصدقاء منحلين وفاسدى الخلق. لماذا تحصل فتاة منحلة ولن ينصلح حالها على كل هذه الثروة؟

وهكذا ـ زيارة أخرى لبرمنجهام تلاها المزيد من الحرص والاطمئنان، ثم مناقشة التفاصيل فى النهاية. ابتسمت لا إراديًا وتخيلت أن برادلى لم يحصل على السعر الذى أراده، وظلت هى تساومه وتجادله فى السعر بمهارة وخبرة. فى النهاية تم عقد الصفقة وإبرام الاتفاق النهائى وتوقيع العقد، ثم ماذا؟

هنا توقف خيالى وحبل أفكارى. هذا هو المجهول بالنسبة لى.

أفقت من تأملاتى ورأيت جنجر تراقبنى وقالت:

"هل توصلت لتفسير ما؟".

"كيف عرفت ما أفكر به؟".

"بدأت أعرف كيفية عمل عقلك. ألم تفكر فى حل اللغز؟ وتتبع خطواتها إلى برمنجهام، وباقى

القصة؟".

"نعم، لكنى توقفت عند نقطة مهمة. بعد لحظة إبرام الاتفاق فى برمنجهام ـ ماذا حدث بعد ذلك؟".

نظرنا لبعضنا البعض.

قالت جنجر: "آجلاً أم عاجلاً سيعرف أحدهم ماذا يحدث فى الجواد الأشهب".

"كيف؟".

"لا أعلم... لن يكون الأمر سهلاً. لن يخبرك أحد أنه ذهب إلى هناك، وعقد صفقة للتخلص من شخص ما. وفى نفس الوقت، من تعامل معهم كزبون هم من يعلمون حقًا وقد يخبروننا. إنه لأمر صعب، لكنى أتساءل لو ـــ".

"نبلغ الشرطة؟".

"نعم، فعلى أية حال لدينا شىء محدد الآن يتصرفون على أساسه، أليس كذلك؟".

هززت رأسى فى شك:

"الأدلة هى النوايا، لكنها لا تكفى، أليس كذلك؟ إنه الهراء الخاص بأمنية الموت ـ ستنظر إليها هيئة المحكمة على أنها هراء. ليس لدينا حتى أدنى فكرة عن الإجراء الفعلى الذى يحدث".

"حسنًا علينا معرفة ذلك، لكن كيف؟".

"يجب أن نرى أو نسمع ـ بأنفسنا. لكن بالتأكيد يستحيل أن نجد مكانًا لنختبئ به فى الجرن الكبير هناك فى منزل الجواد الأشهب ـ وأعتقد أنه مكان حدوث الشىء المجهول الذى يؤدى لوفاة الضحايا، أيًا كان هذا الشىء".

اعتدلت جنجر فى جلستها للخلف، وانتفضت بسرعة وحيوية كأنها كلب نشط فجأة وقالت:

"هناك طريقة واحدة لمعرفة ما يحدث بالفعل، عليك أن تصبح بنفسك زبونًا فعليًا".

حدقت إليها فى دهشة قائلاً:

"زبون فعلى؟".

"نعم، أنت أو أنا، لا يهم من منا، بل المهم أن يذهب أحد ليطلب التخلص من شخص ما، ويذهب أحدنا لبرادلى ويبرم صفقة".

قلت بحدة: "لا أحب ذلك".

"لماذا؟".

"لأنه يفتح باب احتمالات مجازفات خطيرة".

"لنا؟".

"ربما، لكنى أفكر فى ـ الضحية. سوف نضطر للبحث عن الضحية واسمها، لن ينفع أن يكون مجرد ابتكار لشخص غير موجود. قد يفحصون الأمر أولاً ـ فى الواقع هذا أكيد. إنهم ينقبون وراء كل ضحية أولاً للتأكد، أليس كذلك؟".

فكرت جنجر لدقيقة، ثم قالت وهى تومئ برأسها:

"نعم، يجب أن تكون الضحية شخصًا حقيقيًا له عنوان فعلى".

قلت لها: "هذا ما لا يعجبنى فى الأمر".

"وعلينا أن نجد شخصًا فعليًا للتخلص منه".

ظللنا صامتين لبرهة لنفكر فى هذا الجانب من الموقف.

قلت لها ببطء: "ومهما كان الشخص يجب أن نحصل على موافقته أولاً، وتلك مجازفة كبرى".

قالت جنجر وهى تفكر: "ويجب أن نختلق قصة مقنعة. لكن هناك شيئًا مهمًا، أنت كنت محقًا تمامًا فيما قلته سابقًا ؛ نقطة ضعف الأمر هو أنه يجب إحاطة المسألة بسياج من السرية ـ ولكن ليس إلى درجة كبيرة، يجب أن يسمع العملاء والزبائن عنهم من باب الدعاية والترويج لهن".

قلت لها: "إن ما يحيرنى، هو أن الشرطة تبدو وكأنها لم تسمع عنهن، على الرغم من أنها تعرف عادة كل أنواع الأنشطة الإجرامية".

"نعم، لكن أظن سبب ذلك هو أن هذا عرض "هواة"بكل ما تعنيه الكلمة، وليس عرض محترفين ؛ حيث لا يوجد مجرمون عتيدو الإجرام يتم استئجارهم للقتل. الأمر كله ـ افتراض".

قلت لها إننى ظننت أن لديها فكرة. واصلت كلامها قائلة:

"لنفترض أنك، أو أنا (سنفحص كلا الاحتمالين) نسعى جاهدين للتخلص من شخص ما، فمن هو؟ من يكون؟ هل مثلاً العم العجوز الطيب "ميرفين "ـ سأرث مبلغًا محترمًا عندما يموت. أنا وابنة عمى فى أستراليا ولم يبق أحد من العائلة. هكذا يكون الدافع متوافرًا. لكنه تجاوز السبعين من العمر وعلى شفا حفرة من الموت، وعلى أعتاب القبر، وغالبًا من المعقول أن أنتظر حتى يموت طبيعيًا، إلا إذا كانت حاجتى ماسة إلى المال ـ وهذا من الصعب التظاهر به. كما أنه شخص عزيز على وأنا مغرمة به، وسواء كان على أعتاب القبر أم لا، فهو يتمتع بالحياة، ولا أريد حرمانه من لحظة استمتاع بها ـ أو حتى أجازف بذلك! ماذا عنك؟ هل لديك أقارب قد ترث منهم أية أموال فى حالة وفاته؟".

هززت رأسى بالنفى، قائلاً:

"لا أحد ألبتة".

"لندع هذا لأمر، ربما نتظاهر بمسألة الابتزاز، لكن تلفيق قصة كهذه يحتاج لأمور كثيرة. لست هدفًا مناسبًا لتكون عُرضة للابتزاز، فلست عضوًا فى البرلمان أو تعمل فى وزارة الخارجية أو مرشحًا لمنصب وزير. نفس الشىء ينطبق علىّ. منذ خمسين عامًا كان من السهل أن تقوم بذلك، فقد يهددك أحد برسائل مريبة أو صور لك وأنت عارٍ تمامًا فتريد التخلص منها، لكن هذه الأيام، من يهتم بذلك؟ قد يكون أحد مثل دوق ويلنجتون ويقول:

"انشرها وستحل عليك اللعنة "ولن يكترث أحد. ماذا تبقى لنا من الاحتمالات؟ الزواج باثنين؟ "ثم حدقت لى بنظرة لوم وقالت: "يا للأسى لأنك لم تتزوج أبدًا، ربما كنا سنلفق قصة مقنعة لو كنت قد تزوجت".

ربما ظهر على وجهى وتعبيراته أننى تضايقت وكان رد فعلها سريعًا: "أنا آسفة، هل تسبب كلامى فى تذكيرك بشىء سيئ من الماضى، أو شىء مؤلم؟".

قلت لها: "كلا، لا يؤلم مشاعرى، فقد فات عليه وقت طويل، ولا أظن أن معارفى يعلمون به".

"هل تزوجت؟".

"نعم، عندما كنت أدرس فى الجامعة. ظل الأمر سرًا ـ لم تكن زوجتى وأنا فى السن القانونية ـ والأهل كانوا سيعارضون، وكذبنا بشأن أعمارنا الفعلية حينئذ".

صمت لبرهة ثم تذكرت ذكريات الماضى وأصبحت حية فى ذهنى.

قلت ببطء: "ما كان الأمر ليستمر، أعلم ذلك الآن. كانت جميلة وكانت ستصبح

زوجة رائعة لولا أن ـــــ".

"ماذا حدث؟".

"ذهبنا فى إجازة طويلة فى إيطاليا ولقيت حتفها فى حادث سيارة".

"وأنت؟".

"لم أكن فى السيارة ـ كانت هى فى السيارة مع صديق".

نظرت جنجر نحوى بسرعة، وربما فهمت ما كنت أعنيه، أى صدمة اكتشافى أن الفتاة التى تزوجتها لم تكن زوجة مخلصة.

عادت جنجر للأمور العملية ومناقشتنا الجادة: "هل تزوجت فى إنجلترا؟".

"نعم فى مكتب التسجيل فى "بيتربورو"".

"وماتت فى إيطاليا؟".

"نعم".

"لن يكون هناك شهادة وفاة لها فى إنجلترا

بالطبع؟".

"نعم".

"ماذا نريد أكثر من هذا؟ هذه استجابة لدعائنا! لا يوجد ما هو أبسط من ذلك! كنت تحب شخصية أخرى وأردت الزواج منها ـ لكنك لا تعرف هل زوجتك على قيد الحياة أم لا، ولقد افترقتما منذ سنوات ولم تسمع أخباراً عنها منذ ذلك الحين. هل ستجازف؟ فكر فى ظهورها مرة أخرى! تظهر فجأة وترفض الطلاق وتهدد بأن تخبر حبيبتك بكل شىء".

قلت بحيرة: "ومن ستكون حبيبتى؟ أنت؟".

بدت عليها الصدمة وقالت:

"بالتأكيد كلا، لست النوع المناسب ـ فغالباً سأعيش فى الخطيئة معك إن كنت أحبك. أنت تعرف من

أعنيه، السمراء الجميلة التى تخرج معها، المثقفة الجادة.

"هرميا رايد كليف؟".

"نعم".

"من أخبرك عنها؟".

"بوبى، بالطبع، وهى ثرية جداً، أليس كذلك؟".

"نعم للغاية، ولكن حقاً ـــ".

"حسناً، حسناً، لا أقول إنك ستتزوجها أو إنك تطمع فى أموالها، فأنت لست من هذا النوع. لكن عقلية قذرة مثل برادلى سيظن ذلك... حسناً، ها هو الموقف جاهز. أنت مثلاً ستتزوج من هرميا، وفجأة عادت الزوجة من الماضى ووصلت لندن واشتعل الموقف وتريد الطلاق وترفض هى بشدة، وتود الانتقام منك لتشفى غليلها. ثم تسمع أنت عن الجواد الأشهب، وأراهن أن ثيرزا والحمقاء الفلاحة بيلا اعتقدا أو توقعا أنك ستحتاج إليهما، وظنا أن الغرض من الزيارة التى قمت بها كانت لاختبار قدراتهما كزبون تحتاج إليهما، لذلك كانت ثيرزا صريحة معك، فهذا كلام دعاية وترويج".

تذكرت أحداث هذا اليوم وقلت: "ربما كنت محقة". "وذهابك لبرادلى لإبرام الصفقة يكمل الصورة، ثم وجدت أنك منجذب تماماً للفكرة! وبذلك تكون زبوناً متوقعاً و ـــ".

توقفت وهى تشعر بالظفر، لكن كان هناك شىء ما فى كلامها ـ لم أفهمه...

قلت لها: "لازلت أظن أنهم سيتحرون عنى بدقة".

قالت: "بكل تأكيد".

"من الممكن اختلاق أى زوجة وهمية تبعث حية من الماضى ـ لكنهم سيريدون التفاصيل ـ أين تعيش، وما إلى ذلك، ثم سأحاول المراوغة و ـــ".

قالت: "لن تحتاج للمراوغة، يجب أن تتم اللعبة كما يجب، ويجب أن تتوافر الزوجة ـ وستكون

موجودة!".

قالت: "أستعد للمفاجأة ـ سأكون أنا وزوجتك!".

2

حدقت إليها وأنا جاحظ العينين من فرط الدهشة، وتساءلت هل ستنفجر ضاحكة من تحديقى إليها هكذا أم لا.

أفقت من الدهشة للتو عندما قالت:

"لا داعى للذهول، لا أعنى أننى أعرض عليك الزواج".

"أنت لا تقدرين خطورة ما تقولينه".

"بالطبع أقدر المجازفة، أنا أقترح شيئًا مُجديًا حقًا وقابلاً للتنفيذ ـ وله ميزة عدم تعريض شخص برىء للخطر المحتمل".

"لكنك تعرضين نفسك للخطر".

"سأخذ حذرى وأعتنى بنفسى، فتلك مشكلتى".

"كلا ليست مشكلتك وحدك، وعلى أية حال هذه الخطة لن تنجح".

"كلا، بل ستنجح، لقد فكرت بها جيداً، سأصل إلى شقة مفروشة وسأقوم بتأجيرها باسم السيدة ايستربروك مع حقيبتين عليهما لافتات وملصقات أجنبية، ومن يجرؤ على القول بأننى لست زوجتك؟".

"كل من يعرفك".

"من يعرفنى لن يرانى، أنا فى إجازة مرضية من عملى، ثم سأصبغ شعرى ـ وبالمناسبة هل كانت زوجتك ذات شعر أشقر أم أسمر؟ على الرغم من أن الأمر ليس مهمًا جداً".

قلت بتلقائية: "سمراء".

"جيد، فأنا لا أحب الألوان الفاتحة لشعرى، وسأغير ملابسى وأضع (ماكياج) ثقيلاً، وحتى إن صديقتى المفضلة لن تتعرف علىّ! وبما أنك لم تتزوج منذ أكثر من 15 عامًا ـ فغالبًا لن يعرف أحد غالبًا أننى لست هى. ولماذا قد يشك أهل الجواد الأشهب فى أننى لست هى؟ وقع مع برادلى ورقة رهان بمبلغ كبير لأننى سأظل على قيد الحياة، ولن يشك فى نواياك أو أنك على علاقة بالشرطة ـ ستبدو عميلاً حقيقيًا له. سيتحرون عن الزواج بالبحث فى السجلات القديمة فى سومرست، ويتحققون من صداقتك مع هرميا وكل الباقى ـ لماذا سيكون هناك أى شكوك؟".

"ألا تدركين أن الصعوبة هى ـ المجازفة؟".

قالت: "أنا غير مهتمة بالمجازفة! سأحب مساعدتك على أن تربح مائة جنيه أو أى مبلغ تافه من الحقير المدعو برادلى".

نظرت إليها، وشعرت بالإعجاب الشديد بها... وبشعرها الأحمر ونمش وجهها وروحها الشجاعة، لكنى لن أدعها تتعرض للخطر الذى تريد المجازفة فيه.

قلت لها: "لن أتحمل تعرضك للخطر يا جنجر، ربما ـ قد يحدث أى شىء".

"لى".

"نعم".

"أليس هذا من شأنى؟".

"كلا، أنا من ورطك فى الأمر كله".

أومأت وهى تفكر بعمق وقالت:

"نعم، ربما، لكن لا يهم من وصل للأمر أولاً، المهم أننا معًا الآن فى هذا الأمر ـ وعلينا أن نفعل شيئًا. أنا جادة جداً فيما أقول الآن يا مارك، ولا أدعى أن الأمر ممتع، إن كان كل ما نشك فيه حقيقيًا، فنحن أمام شىء مقزز ومتوحش ويجب إيقافه! ليس قتلاً بدم حار بدافع الكراهية أو الغيرة، ولا حتى الطمع، أو الضعف الإنسانى من أجل مكسب عادى ـ بل القتل كعمل ومهنة، بغض النظر عن الضحايا".

صمتت ثم أضافت قائلة: "هذا إن كان الأمر حقيقيًا "نظرت نحوى بشك مؤقت، فقلت لها:

"لكنه حقيقى، ولهذا أخشى عليك". وضعت ساعديها على المائدة وبدأت تجادلنى.

دارت المناقشة وتكررت نفس الأفكار والموضوعات ومرت الساعات ببطء، وتحركت عقارب الساعة عند المدفأة ببطء شديد.

فى النهاية تفوقت جنجر وغلبتنى فى المناقشة.

قالت: "أنا أحب ذلك، لقد تلقيت التحذير سلفاً ومستعدة، وأعلم أن هناك من سيحاول قتلى، ولا أشك أن ثيرزا ستنجح! إن كان لدى الجميع رغبة موت خفية، فرغبتى لم تتطور بعد! وصحتى ممتازة، وغالبًا لن أصاب بالتهاب فى الغشاء السحائى أو حصوات فى المرارة لمجرد أن ثيرزا العجوز سترسم رسومات شيطانية خماسية الشكل على الأرضية، أو لأن سيبل ستذهب فى غيبوبة مع الأرواح ـ أو مهما كان ما تفعله هؤلاءالنسوة!".

قلت لها: "ربما يقدمن قرباناً من الديوك البيضاء "

"أعترف أن كل هذا هراء وكذب!".

"نحن لا نعرف ما يفعلونه بالضبط".

"كلا، ولذلك من المهم أن نعرف. أتظن أننى سأصاب بمرض قاتل ومهلك فى شقة فى لندن بسبب نسوة يفعلن الأعاجيب فى جرن "الجواد الأشهب "؟ مستحيلة أن تظن ذلك!".

"كلا، لا أصدق ذلك".

ثم أضفت: "لكن فى الواقع ـــ".

نظرنا لبعضنا البعض.

قالت جنجر: "نعم، الضعف الإنسانى".

قلت لها: "ما رأيك أن نعكس الوضع. أنا سأذهب إلى لندن وأنت الزبون، ثم نختلق قصة مقنعة و ـــ".

لكن جنجر هزت رأسها بشدة وقالت:

"كلا يا مارك، لن ينجح الأمر هكذا ؛ لعدة أسباب أهمها أننى معروفة لدى أهل الجواد الأشهب ـ يعرفون طبيعتى وحبى للمجازفة، وبإمكانهم معرفة حقيقة حياتى من رودا ؛ لكنك فى وضع ممتاز بالفعل ـ أنت عميل متوتر وخائف، ولا تريد أن تتحمل مسئولية التخلص من أحد، وهكذا سيتم الأمر كما خططت أنا".

"لا أحب ذلك، لن أحب التفكير فى أنك ستكونين وحدك فى مكان ما باسم مزيف ـ بدون أن يحرسك أحد، وقبل أن نبدأ الأمر يجب إخطار الشرطة قبل أى شىء".

قالت ببطء: "أوافق على هذا، وهذا ما يجب أن تفعله أنت، من الذى ستخبره؟ الشرطة فى لندن أم سكوتلانديارد؟".

كلا، المحقق لوجون هو أفضل شخص يجب أن أخبره بهذا الأمر".

الفصل الخامس عشر

رواية مارك ايستربروك

أعجبنى المفتش لوجون من الوهلة الأولى. كان مظهره يوحى بالمقدرة الهائلة، وشعرت أنه رجل ذو خيال خصب ـ نوع من الرجال يرغب فى التفكير فى احتمالات غير تقليدية.

قال لوجون:

"أخبرنى د. كوريجان بمقابلته، وكان مهتمًا جدًا بالقضية منذ البداية. كان السيد جورمان بالطبع معروفًا ومحترمًا فى الحى الذى كان يقطنه. تقول إن لديك معلومات خاصة لنا؟".

قلت له: "إنها تخص مكانًا يدعى "الجواد الأشهب".

"على ما أظن فى قرية تسمى ماتش ديبنج؟".

"نعم".

"أخبرنى بما تريد".

ذكرت له أول مرة جاء إلى مسامعى ذكر الجواد الأشهب فى مطعم الفانتازيا، ثم وصفت له زيارتى إلى رودا ومعرفتى الأولى بالأخوات "الساحرات الثلاث "وسردت له الحوار الذى دار بينى وبين ثيرزا جراى أثناء تلك الزيارة بأكبر قدر ممكن من الدقة.

"ولقد بهرك ما قالته لك؟".

شعرت بالإحراج وقلت:

"كلا، ليس حقًا، أعنى لم آخذه على محمل الجد و ـــ".

"أحقًا يا سيد ايستربروك؟ أعتقد أنك تأثرت جدًا بكلامها".

"ربما كنت محقًا، لكن المرء لا يحب الاعتراف بمدى سذاجته".

ابتسم لوجون وقال:

"لكن لديك شيئًا أغفلت ذكره، أليس كذلك؟ كنت مهتمًا بالأمر بالفعل قبل

حضورك لقرية ماتش ديبنج،

لماذا؟".

"بسبب الخوف الشديد الذى بدا على الفتاة التى تعمل فى متجر الزهور".

"الفتاة التى تعمل فى متجر الزهور؟".

"نعم، لقد تذكرت ملحوظتها عن الجواد الأشهب بشكل عابر، وخوفها غير العادى يؤكد حقيقة وجود ـ حسنًا، وجود شىء ما يجب الخوف منه. عندما قابلت د. كوريجان وأخبرنى بقائمة الأسماء، كان هناك شخصان أعرفهما بالفعل، وكلاهما فى عداد الموتى والاسم الثالث بدا مألوفًا، ثم علمت أن صاحبته قد ماتت أيضًا".

"هل هى السيدة دولافونتين؟".

"نعم".

"أكمل قصتك".

"عزمت على معرفة المزيد عن هذا الأمر".

"وكيف بدأت؟".

أخبرته بزيارتى للسيدة تاكرتون، وذهابى لبرادلى فى مبنى ميدان البلدية فى برمنجهام.

فجأة انتبه لى بكل حواسه، وكرر الاسم:

"برادلى؟ هل برادلى متورط فى هذا الأمر؟".

"أتعرفه؟".

"أوه، نعم، نعرف كل شىء عن برادلى، فلقد سبب لنا الكثير من المتاعب، إنه مهرب ونصاب واسع الحيلة وماهر فى عدم إثبات التهم عليه، فهو يعرف كل ثغرات القانون ولا يخالفه، ويبدو أنه خبير لدرجة أنه قد يكتب كتابًا بعنوان: "مائة طريقة للتحايل على القانون، "لكن القتل المنظم ليس منطقته الإجرامية المعتادة ـ نعم، إنها بعيدة كل البعد عن مجال نشاطه".

"الآن ذكرت لك كل حوارى معه، هل يمكنك

إدانته؟".

هز لوجون رأسه بالنفى ببطء وقال:

"لا يمكن إدانته هكذا، فلا يوجد شهود بينكما وقد ينكر كل شىء إن أراد! وبخلاف

ذلك، فإنه محق عندما قال لك إن بوسع أى رجل الرهان على أى شىء. فهو يراهن على أن شخصاً ما لن يموت ـ ويخسر الرهان، فما الذى يجعل ذلك عملاً إجرامياً، إلا إذا حدثت صلة مباشرة بينه وبين أى جريمة محددة ـ وهذا فى رأيى ليس سهلاً".

نحى الأمر جانباً بهز كتفيه دون اكتراث ثم صمت هنيهة ثم قال:

"هل تقابلت بالصدفة مع رجل يدعى فينابلز فى ماتش ديبنج؟".

"نعم وتناولت معه الغداء يوماً ما".

"ياه! وما انطباعك عنه؟".

"رجل عظيم وذو شأن وشخصيته ممتازة، وهو قعيد ومن ذوى الاحتياجات الخاصة".

"نعم، مصاب بالشلل فى قدميه".

"لا يتحرك سوى بمقعد متحرك ذى عجلات، لكن عاهته جعلته يعقد العزم بكل قوة على أن يستمتع بالحياة".

"أخبرنى بكل ما تعرفه عنه".

وصفت له منزل فينابلز وكنوزه الفنية ومدى اهتماماته الواسعة المتشعبة.

قال لوجون: "يا للأسف".

"لماذا؟".

قال بجفاء: "لأنه معاق ومشلول".

"أرجو المعذرة، لكن هل أنت متأكد تماماً من أنه مشلول؟ ربما يتظاهر بذلك فقط، أليس كذلك؟".

"نحن متأكدون تماماً بسبب شهادة السيد ويليام دوجيل فى شارع هارلى، وهو شخصية فوق مستوى الشبهات، وأكد لنا أن أطرافه ضامرة. لكن أوزبورن الذى ذكرته لك متأكد أن فينابلز هو الرجل الذى اتبع السيد جورمان فى شارع بارتون ليلة مقتله، لكن يبدو أنه على خطأ".

"فهمت".

"كما قلت، يا للأسف. لأن هناك منظمة للقتل الخاص، وربما فينابلز هو من يضع خططها ويديرها".

"نعم هذا ما فكرت فيه".

عبث لوجون بأصبعه فى الدوائر المتداخلة على مفرش المائدة أمامه، ثم نظر لأعلى

بحدة فجأة وقال:

"لنجمع ما لدينا من معلومات، أنا وأنت. من المؤكد أن هناك وكالة أو منظمة تخصصها التخلص من الناس غير المرغوب فيهم، ولا يوجد أى شىء مشين ظاهرياً فى المؤسسة، فهى لا تؤجر بلطجياً أو قاتلاً مستأجراً.... لا يوجد دليل على أن الضحايا لا يموتون موتًا طبيعياً، وعلاوة على ثلاث حالات الوفاة لأناس تعرفهم، فنحن متأكدون من وجود معلومات عن حالات وفاة أخرى نتيجة أسباب طبيعية، لكن كان هناك فى كل مرة مستفيد من كل حالة وفاة. لاحظ أنه لا دليل على كل ذلك.

الأمر فى غاية الذكاء يا سيد ايستربروك، مهما كان العقل المدبر ـ الذى فكر فى كل التفاصيل بدقة. ليس لدينا إلا أسماء متفرقة قليلة، ولا نعلم هل هناك المزيد ـ هل الأمر منتشر على نطاق واسع أم لا. ليس بحوزتنا سوى قائمة أسماء قليلة ـ عثرنا عليها بالصدفة من امرأة تحتضر، وأرادت التطهر من آثامها قبل الوفاة بالاعتراف بخطاياها لأحد رجال الدين".

هز رأسه بغضب ثم واصل حديثه قائلاً: "تلك المرأة التى تدعى ثيرزا جراى، أنت تقول إنها تفاخرت أمامك بقواها! حسنًا يمكنها أن تفعل ذلك دون أن تخشى الوقوع تحت طائلة القانون أو التعرض لعقوبة. إن اتهمناها بالقتل وأودعناها السجن ستصيح للمحلفين بأعلى صوتها وتقول إنها أراحت الناس من متاعب الدنيا بقوة الإرادة والسحر ـ أو كيفما تقول. لن تكون مذنبة وفقًا للقانون، فهى لم تقترب من الموتى قبل وفاتهم، وتأكدنا من ذلك، ولم ترسل لهم شيوكولاته مسمومة، بالبريد أو أى شىء من هذا القبيل. ووفقًا لما ذكرته هى، مجرد أن تجلس فى قاعة وتعمل على توارد الخواطر والتحكم فى الآخرين عن بعد! وستسخر المحكمة من كل ذلك!".

همست له قائلاً: "لكن "لو " وآنجس لن يضحكا".

"ماذا تعنى؟".

"آسف، مجرد عبارة من مسرحية "الساعة

الخالدة ٢٢".

"حسنًا ربما كنت محقًا، شياطين جهنم يسخرون، لكن القضية هنا بها قدر كبير من الشر يا سيد إيستربروك".

قلت له: "نعم، كلمة "الشر "لا نستخدمها كثيراً هذه الأيام، لكنها الوحيدة التى تصلح لوصف هذا

الموقف، وهذا سبب ـــ".

"سبب ماذا؟".

نظر لوجون نحوى بنظرة استفهامية.

تحدثت بسرعة: "أعتقد أن هناك فرصة ـ فرصة ممكنة ـ لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الأمر، وقد أعدت صديقة لى خطة، قد تبدو لك سخيفة، لكن".

"احكها لى وسأحكم لك".

"لكن فى البداية أؤكد على أنك متفق معى على وجود مؤسسة لقتل الناس، وتنجح فى ذلك بدون أثر أو دليل، هذا ما نناقشه، وتنجح دومًا فى ذلك؟".

"بكل تأكيد تنجح دومًا فى ذلك".

"لكننا لا نعلم كيفية القيام بذلك؟ وقد تكونت لدينا الخطوات الأولى فقط ؛ يسمع العميل كلامًا مبهمًا عن المؤسسة، ثم يعرف المزيد ثم يُرسل لبرادلى فى برمنجهام ليتفق معه، ثم يرسله غالبًا للحصان الأشهب. لكن ما يحدث بالضبط بعد ذلك لا نعرفه! ما الذى يجرى بالضبط فى منزل الجواد الأشهب؟ يجب أن يذهب أحد ليعرف؟".

"واصل حديثك".

"لأننا لن نتقدم فى التحقيق إلا بعد أن نعرف ما تفعله ثيرزا جراى بالضبط ـ حتى وإن كان د. كوريجان يقول إن الفكرة كلها مجرد هراء ـ لكن ما هى؟ أليس كذلك أيها المفتش لوجون؟".

تنهد لوجون وقال:

تعلم أن إجابتى ـ وإجابة أى شخص عاقل ـ هى:

"نعم بالطبع! "ـ لكننى أتحدث بشكل غير رسمى الآن. لقد حدثت أمور عجيبة وغريبة فى المائة عام الأخيرة، هل كان سيصدق أحد من سبعين عامًا أن ساعة بيج بن تدق وهى عبارة عن صندوق صغير، ويسمعه الناس من نوافذهم فى كل لندن ـ بدون خداع ولا سحر ولا دجل. لكن صوت الساعة انتقل عبر موجتين مختلفتين عبر إنجلترا بالمذياع! هل كنا سنصدق من سبعين عامًا أنه سيوجد لاسلكى يجعلنا نسمع رجلاً فى نيويورك بدون أسلاك؟ قس على ذلك عشرات الأمور ـ التى صارت عادية الآن لدرجة أن الأطفال يتحدثون عنها!".

"أى أن كل شىء ممكن الآن؟".

"هذا ما أعنيه بالضبط. إن سألتنى هل ثيرزاجراى تقتل الناس بتحريك عينيها أو فى جلسة تحضير أرواح أو بقوة الإرادة، سأقول لك "كلا "ـ لكنى لست متأكدًا ـ كيف لى أن أتأكد؟ ربما عثرت على شىء ما بالصدفة و ـــ".

قلت له: "نعم، الشىء الخارق للطبيعة يظل مذهلاً وغير قابل للتصديق ؛ لكن علم

الغد هو خارق للطبيعة اليوم".

حذرنى لوجون، قائلاً: "انتبه، إننى أتحدث بشكل غير رسمى "

"كفى هراءً يا رجل، الإجابة هى أن يذهب أحد ليرى ما يحدث بالفعل، وهذا ما أقترحه، سأذهب وأرى".

حدق لوجون فىّ.

قلت له: "الطريق ممهد لى بالفعل".

ثم أخبرته بالضبط بما تخطط له جنجر صديقتى.

أنصت لى جيداً وعبس وزم شفتيه فى غضب، ثم قال:

"فهمت قصدك يا سيد ايستربروك، الظروف وفرت لك مدخلاً مناسبًا لكنى لا أعلم هل تدرك مدى الخطورة فيما تقترحه ـ إنهن نسوة خطيرات. قد يكون الأمر خطيراً عليك، لكنه بالتأكيد يمثل خطورة كبرى لصديقتك".

قلت له: "أعلم ذلك... تناقشنا فى الأمر عشرات المرات، لكنها مصرة ـ للغاية. لا أحب أن تلعب هى الدور الذى تريد أن تلعبه. لكنها مصممة، اللعنة!".

قال لوجون فجأة: "هل قلت إن شعرها أحمر؟".

قلت بفزع: "نعم".

قال: "أعلم بالتأكيد أنه من المستحيل الجدال مع ذوات الشعر الأحمر!".

تساءلت هل زوجته منهن أم لا.

الفصل السادس عشر

رواية مارك ايستربروك

لم أشعر بأى توتر فى زيارتى الثانية لبرادلى، بل فى الواقع استمتعت بها.

قالت جنجر وهى تحثنى: "فكر فى دورك الذى ستمثله وتشخصه جيداً". وكانت تشجعنى قبل البداية وحاولت تطبيق ذلك بالضبط.

حيانى برادلى بابتسامة ترحاب.

قال: يسرنى جداً رؤيتك". ومد لى يده الغليظة ليصافحنى، ثم قال: "هل كنت تفكر فى مشكلتك الصغيرة؟ حسناً كما قلت لك لا داعى للعجلة وخذ وقتك".

قلت له: "هذا بالضبط ما لا يمكننى أن أفعله، فالأمر ـ حسناً ـ مُلح وعاجل جداً...".

تفحصنى برادلى جيداً ولاحظ سلوكى المتوتر وطريقة تجنبى لنظره عينيه وطريقتى الخرقاء فى تحريك يدى وإسقاطى لقبعتى.

قال لى: "حسناً، سنرى ما يجب أن نفعله بشأن هذا الأمر. هل تريد الرهان على شىء ما؟ ما هو؟ لا شىء غير هذه الألعاب والمراهنات التى يلجأ إليها البعض للترويح عن أنفسهم ونسيان متاعبهم".

قلت له "يبدو أن... "ثم توقفت فجأة.

تركت برادلى يؤدى عمله، ولقد أداه بالفعل.

قال: "أرى أنك متوتر، وربما حذر، أنا أوافق على الحذر، فلا داعى لقول ما لا يجب أن يسمع به الآخرون! ربما قد تظن أن مكتبى مُراقب وبه آلة تسجيل؟".

لم أفهمه وبدا على وجهى عدم الفهم.

قال: "أعنى أنك قد تظن أننى سأسجل حوارنا على جهاز تسجيل، وما إلى ذلك. كلا، أؤكد لك بشرف أنه لا يوجد جهاز تصنت أو تسجيل هنا وحوارنا لن يسجل بأى طريقة وإن كنت لا تصدقنى....". كان يتحدث بصراحة مثيرة للاهتمام."... ولماذا لا

تصدقنى؟ حدد مكانًا وموعدًا آخر فى أى مطعم أو قاعة انتظار فى محطة قطار، وسنناقش الأمر هناك بدلاً من مكتبى".

قلت له: "أنا متأكد من أن مكتبه هو المكان المناسب".

قال لى: "أنت تتحلى بالعقل! فهذه الشكوك غير مفيدة لنا، وأؤكد لك ذلك. كلانا لن يقول أى شىء لأى شخص لتتم إدانتنا كما يقال بلغة القانون. دعنا نبدأ العمل. هناك شىء ما يقلقك، وتجدنى متعاطفًا معك وتريد إطلاعى عليه، وأنا رجل ذو خبرة ويمكننى إسداء النصائح لك. تُقسم المشاكل نصفين إن أفصحت عنها لصديق كما يقولون فى الأمثال، لنجعل الأمر هكذا".

جعلنا الأمر هكذا وسردت قصتى له.

كان برادلى ماهرًا ويسهل لى التلفظ بعبارات وكلمات صعبة، وكان ماهرًا جدًا فى هذا ولم أجد صعوبة فى إخباره عن حبى الجارف فى شبابى لزوجتى "دورين "وزواجنا المبكر السرى.

قال لى وهو يهز رأسه: "يحدث هذا كثيرًا، وهو مفهوم جدًا! يتعرف شاب جرئ على فتاة جميلة حقًا، وسرعان ما يتم الزواج. وماذا بعد ذلك؟".

ذكرت له باقى القصة.

لكنى كنت غامضًا بتعمد عند سرد التفاصيل. إن برادلى ليس من النوع الذى يسأل عن أدق التفاصيل. صورت له بحوارى صورة رجل تبدد له وهم كبير ـ شاب أحمق أدرك حماقته بعد مضى سنوات.

جعلته يظن أنه حدثت بيننا مشاجرة أخيرة، وكان يكفينى أن يظن أن زوجتى هربت مع رجل آخر، أو تتوقع إقامة علاقة قريبًا مع رجل آخر.

قلت له بتوتر: "لكن كما تعلم، لم تكن الفتاة التى ظننتها مثالية. كانت رائعة وجميلة، ولم أفكر أن سلوكها سيتغير بعد الزواج ـ وأنها ستتصرف هكذا".

"ما الذى فعلته معك بالضبط؟".

شرحت له أن إساءتها لى تكمن فى أنها عادت.

"ما الذى كنت تظن أنه قد حدث لها؟".

"أعرف أن الأمر يبدو غريبًا ـ لكنى ظننتها ميتة".

هز برادلى رأسه لى وقال:

"مجرد تمنٍ، ولماذا ظننتها ميتة؟".

"لم تكتب لى منذ هروبها مع رجل آخر، ولم أسمع عنها منذ ذلك الحين".

"الحقيقة أنك أردت نسيانها".

بدا لى برادلى كطبيب نفسى إلى حد ما، ذاك المحامى ذو العينين الضيقتين.

قلت له بامتنان: "نعم، وكأننى لا أنوى الزواج بامرأة أخرى".

"لكنك تريد الزواج بأخرى الآن، أليس كذلك؟".

"حسنًا... "أظهرت تقاعسى على الإجابة.

قال لى برادلى الكريه: "هيا، أخبر أباك يا بُنى".

اعترفت بخجل أننى فكرت مؤخراً فى الزواج... لكنى أصررت على عدم ذكر أى تفاصيل عن الفتاة التى أنوى الزواج منها، فلم أكن لأخبره شيئًا عنها، وأورطها فى تلك المشكلة.

مرة أخرى شعرت أن رد فعلى كان مناسبًا، وهو لم يصر على معرفة التفاصيل، وقال بدلاً من ذلك:

"شىء طبيعى يا سيدى العزيز، لديك تجربة مريرة فى الماضى، ووجدت شريك حياة مناسبًا لك تمامًا دون شك، وبوسعه مشاركتك فى ذوقك الأدبى وطريقة

حياتك، أى رفيق فعلى".

فهمت الآن أنه يعلم كل شىء عن هرميا. ذلك الأمر بالتأكيد كان سهلاً جدًا، فأى استفسار عنى سيكشف عن صديقتى المقربة، برادلى، بعد أن تلقى رسالتى وعليها اسمى طالبًا تحديد موعد، قام بالتحرى عنى وعن هرميا وعلم كل شىء عن حياتى.

قال لى: "لماذا لا تفكر فى الطلاق كحل طبيعى؟".

"قالت لى زوجتى إنها ترفض الطلاق بشدة!".

"ياه يا عزيزى، ما الذى تريده منك الآن، لو سمحت لى بالسؤال؟".

"إنها تريد العودة لى، وهذا غير معقول بالمرة وتعلم أن فى حياتى امرأة أخرى و... و...".

"بدأت تتصرف بخبث.... فهمت.... لا يبدو

أنه يوجد مخرج من هذا المأزق إلا إذا... لكنها

شابة...".

قلت بمرارة: "ستعيش لسنوات طويلة".

قال: "لكنك لا تعلم أبداً يا سيد ايستربروك، هل كانت تعيش فى الخارج؟".

"هكذا قالت لى، ولا أعلم أين كانت".

"ربما كانت فى الشرق، وأحياناً يلتقط المرء فى هذه المناطق جراثيم غريبة ـ تظل كامنة لسنوات! ثم يعود للوطن ويستفحل المرض! أعرف ثلاث حالات كهذه الحالة. قد تحدث نفس الحالة لها، إن كان ذلك سيسعدك "، ثم صمت وأضاف: سأراهن بمبلغ صغير على ذلك".

هززت رأسى بالنفى وقلت:

"ستعيش لسنوات طويلة".

"حسناً الجانب الأكبر للفوز بالرهان لصالحك، وأعترف بذلك... لكن لنراهن على الأمر، ألف وخمسمائة جنيه منك إلى جنيه منى على أنها ستموت قبل عيد رأس السنة: ما رأيك؟".

"بل أريد أن يتم الأمر بسرعة! لا يمكننى الانتظار، هناك أمور ـــ".

تعمدت ألا أكون واضحاً وكلامى غير مترابط. لا أعلم كيف فكر فى أن العلاقة بينى وبين هرميا، قد تطورت إلى حدٍ لا يمكننى معه الانتظار ـ أو أن الزوجة المزعومة تهدد بإخبار هرميا بكل شىء وتسببٍ لى المتاعب. ربما فكر فى أن هناك رجلاً آخر يخطب ود هرميا. لا يهمنى ما فكر فيه برادلى، بل أردت التأكيد على عامل السرعة والعجلة.

اعتقدت أنه قد حان وقت الفصال والمساومة ـ وقمت

بذلك. اعترضت على المبلغ وكان برادلى ماهراً وحاذقاً وعلم المبلغ الذى قد أعرضه فى حالات الطوارئ. كان يعلم أن هرميا ثرية ولمح لذلك لاحقاً بأننى عندما أتزوج لن أشعر أننى خسرت الكثير من المال، مما كان دليلاً على أنه يعرف أمر هرميا. لكن عامل الاستعجال جعله فى موقف الأقوى ولن يتنازل.

تركته وقد وافقت على الرهان الضخم كما أراد.

وقعت كمبيالة وكانت صياغتها مليئة بعبارات قانونية صعبة الفهم بالنسبة لى، وشككت فى قيمتها القانونية أساساً.

قلت له: "هل هذه الورقة ملزمة لى قانونياً؟".

قال برادلى مبتسماً ومظهراً لطقم أسنانه الممتاز: "لا أظن ذلك، لا أظن أننا

سنستخدم هذه الورقة". كانت ابتسامته ليست لطيفة وهو يقول: "الرهان هو الملزم وإن لم يدفع المرء ـــ".

نظرت إليه

قال برقة: "لا أنصح بذلك، ولا نحب من يتراجع عن وعده".

"لن أحنث بوعدى".

"أنا متأكد من ذلك يا سيد ايستربروك، دعنا نناقش الترتيبات ؛ هل قلت إن زوجتك تقيم فى لندن، أين بالضبط؟".

"هل يجب أن تعرف؟".

"يجب أن أعرف كل التفاصيل لأنقلها للآنسة

جراى، وأرتب لك موعداً معها ـ هل تتذكرها؟".

قلت له بالطبع أتذكرها.

قال لى: "إنها امرأة مدهشة حقًا ومتعددة المواهب وستطلب منك شيئًا من أثر زوجتك ـ أى شىء تكون قد ارتدته ـ قفاز ـ منديل ـ أو أى شىء مشابه".

"لماذا؟ لماذا بالله عليك؟!".

"أعلم أنه أمر غريب، لا تسألنى عن السبب، فليس لدى أدنى فكرة فهى تحتفظ بأسرارها لنفسها".

"لكن ماذا يحدث؟ وماذا تفعل؟".

"يجب أن تصدقنى يا سيد ايستربروك عندما أقول لك بصراحة إننى ليس لدى أدنى فكرة! لا أعلم ولا أريد أن أعلم ـ لندع الأمر هكذا".

توقف هنيهة ثم قال بلهجة أبوية:

"نصيحتى لك يا ايستربروك هى ما يلى، قم بزيارة زوجتك، وهدئ من روعها ومخاوفها ودعها تعتقد أنك ستصالحها وتعود إليها وأقترح بعد ذلك أن تذهب للخارج لبضعة أسابيع وبعد عودتك... إلخ... إلخ...".

"وبعد ذلك؟".

بعد أن تسرق منها أى شىء صغير تافه كانت ترتديه بشكل غير ملفت للنظر، ستذهب إلى قرية ماتش

ديبنج ، ثم صمت لبرهة وهو يفكر ثم أضاف: "دعنى أر، أعتقد أنك ذكرت زيارة

قمت بها للحصان الأشهب مع أصدقاء ـ أو أقارب لك ـ فى الحى؟".

"نعم، ابنة عمى".

"إذن هذا يبسط الأمر، امكث معها ليوم أو يومين".

"وماذا يفعل معظم عملاء الجواد الأشهب؟ ينزلون فى فندق قريب؟".

"أحيانًا يذهبون على ما أظن إلى بورنماوث أو شىء من هذا القبيل ـ فأنا لا أعلم سوى القليل عن هذا الشأن".

"وماذا ستظن ابنة عمى؟".

"عبر لها عن اهتمامك بساكنى الجواد الأشهب، فلا يوجد أسهل من هذا، فالآنسة جراى والوسيطة الروحانية يقومان بجلسات تحضير أرواح، وأنت تعلم هؤلاء الروحانيين، وأن هذا مثلاً قد أثار اهتمامك، لا يوجد أبسط من هذا...".

"وبعد ذلك؟".

هز رأسه وهو يبتسم:

"هذا كل ما يمكننى إخبارك به، هذا كل ما أعرفه، وستتولى الآنسة جراى كل شىء بعد ذلك. لا تنس أخذ قفاز أو منديل أو أى شىء من زوجتك. بعد ذلك أقترح الذهاب فى رحلة إلى الخارج لأسبوع أو أسبوعين

مثلاً".

قلت له لا أرغب فى السفر وأريد البقاء فى إنجلترا.

"حسنًا لكن لا تبق فى لندن، لا أنصحك بالبقاء بها أبدًا".

"لماذا؟".

نظر لى نظرة عتاب وقال:

"إننا نضمن أمان العملاء التام، إن أطاعوا الأوامر".

"لماذا لا أظل فى بورنماوث مثلاً؟".

"سيفى ذلك بالغرض، أنزل فى فندق وتعرف على أناس جدد واجعل الناس تراك فى صحبة، واجعل حياتك عادية وغير مثيرة للشك ـ هذا هدفنا. يمكنك الذهاب إلى "توركاى "إن مللت بورنماوث".

كان يتحدث بود كوكيل سفر ورحلات.

ثم بعد ذلك اضطررت لمصافحة يده الغليظة.

الفصل السابع عشر

رواية مارك ايستربروك

1

قالت رودا: "هل تريد حقًا حضور جلسة تحضير أرواح عند ثيرزا؟".

"لم لا؟".

"لم أعرف أبدًا أنك مهتم بهذه الأمور يا مارك"

قلت لها بصراحة: "لست مهتمًا حقًا، لكن تلك المجموعة الغريبة من النساء، هؤلاء الثلاثة، وأنا لدى فضول فى أن أرى عرضهم الغريب".

لم أجد سهولة حقًا فى أن أعرض الأمر بشكل مرح. لمحت بطرف عينى هيو ديسبارد ينظر نحوى وهو يفكر مليًا. كان رجلاً محنكًا وحياته كانت مليئة بالمغامرات، ولديه حاسة سادسة للشعور بالخطر، مثله مثل نوعه من الرجال. ربما شعر بالخطر الآن ـ وأدرك أن هناك أكثر من دافع بالفضول فى هذا لأمر، شىء يتعرض للخطر.

قالت رودا بمرح: "إذن سآتى معك، فلطالما أردت مشاهدة ذلك".

صاح ديسبارد فى ضجر: "كلا لن تذهبى أبدًا".

قالت: "لكنى أريد حقًا الاستمتاع بهذا يا هيو، فأنا لا أؤمن بتحضير الأرواح!".

قال: "الأمر ليس ممتعًا، ربما كان هناك شىء حقيقى، وكل من يذهبون هناك بدافع الفضول "يتأثرون سلبًا".

"إذن ستقنع مارك بعدم الذهاب أيضًا؟".

"مارك ليس مسئولاً منى".

لكنه رمقنى مرة أخرى بنظرة جانبية وكان يعلم أن لدى غرضًا ما، كنت متأكدًا من أنه يفهمنى.

تضايقت رودا، لكنها سرعان ما تغلبت على ضيقها وعندما قابلنا ثيرزا جراى بالصدفة فى القرية لاحقًا صباحًا كانت ثيرزا، جريئة فى هذا الموضوع.

قالت ثيرزا: "مرحبًا بك يا سيد ايستربروك، نحن نتوقع حضورك هذا المساء، سنجرى لك عرضًا رائعًا. سيبل وسيطة روحانية رائعة ولا نعرف مسبقًا كيف ستكون النتائج فى كل مرة لكن لا تيأس ولا تبتئس، سأطلب منك شيئًا واحدًا، اجعل عقلك متفتحًا، والأجوبة الأمينة الصريحة مطلوبة، لكن السخرية والتفاهة والطيش غير مسموح بها".

قالت رودا: "أردت المجئ لكن هيو رفض الفكرة تمامًا، وأنت تعرفين آراءه عن هذه الأمور".

قالت ثيرزا: "لم أكن لأوافق على ذلك يكفينا زائر واحد فى كل مرة".

ثم اتجهت لى وقالت:

"لماذا لا تتناول معنا وجبة عشاء خفيفة أولاً، نحن لا نأكل الكثير قبل جلسات تحضير الأرواح، سنتوقع حضورك الساعة السابعة مساءً".

ثم أومأت وابتسمت لى وسارت بسرعة مبتعدة. حدقت خلفها وكنت منهمكًا فى تخميناتى وأفكارى، ولم أسمع أى شىء مما قالته لى رودا.

"ماذا كنت تقولين؟ أنا آسف".

"أنت غريب الأطوار هذه الفترة مؤخرًا يا مارك، منذ وصولك إلى هنا، هل هناك أى شىء يقلقك؟".

"كلا بالطبع، لماذا؟".

"هل توقفت عن تأليف كتابك، أو شىء من هذا القبيل؟".

"الكتاب؟ "نسيت للحظة كل شىء عن الكتاب الذى كنت بصدد تأليفه وقلت بسرعة: "أوه، نعم الكتاب، الأمور تسير على ما يرام به".

قالت لى بمرح: "ربما وقعت فى حالة حب، نعم هذا هو الحب، الحب له تأثير سيئ على الرجال ـ إنه يحير ذكاءهم ويشل تفكيرهم. لكن تأثيره على النساء العكس تمامًا ـ فالمرأة تشعر أنها سعيدة جدًا وتكاد تطير فرحًا وتبدو متآلفة وجميلة جدًا أكثر من المعتاد. شىء غريب، أليس كذلك؟ فالحب يليق بالنساء، وبالنسبة للرجال يجعله حائرًا ومشتت الذهن".

قلت لها: "شكرًا لك!".

"لا تغضب منى يا مارك، فهذا شىء جيد حقًا ـ وأنا سعيدة من أجلك، فهى فتاة رائعة".

"من تقصدين؟".

"هرميا ريدكليف بالطبع، أتظننى لا أعرف أى شىء، لقد لاحظت الأمر منذ فترة طويلة، وهى شخصية مناسبة لك تماماً ـ جميلة وماهرة ومناسبة تماماً".

"يا له من أمر ماكر وخبيث أن تقولى هذا عن أى شخص".

"ربما".

اتجهت بعيداً وقالت إنها ستذهب للثرثرة مع بائع اللحم، وقلت لها إننى سأذهب لزيارة السيد كالثروب.

قلت لها قبل أن تقول أى تعليق: "لكن ليس لأطلب منه عقد الزواج المقبل!".

2

المجئ للسيد والسيد كالثروب كان بمثابة العودة للمنزل.

كانت البوابة الأمامية مفتوحة بشكل يوحى بالترحاب وعندما دخلت شعرت وكأن أحمالاً كثيرة قد خفت من على كاهلى.

جاءت السيدة كالثروب من الباب الخلفى حاملة، لسبب مجهول يصعب علىّ تخمينه، دلو بلاستيك كبير لونه أخضر زاهٍ.

قالت لى: "أهلاً، أهذا أنت؟ اعتقدت أنك ستأتى "أعطتنى الدلو ولم يكن لدى فكرة عن مقصدها وماذا أفعل به، ووقفت فى إحراج كبير.

قالت بنفاد صبر: "خارج البوابة على السلم "، وكأننى كان يجب أن أعرف من تلقاء نفسى.

أطعت أوامرها، ثم تبعتها لنفس الغرفة الرثة المظلمة التى جلسنا فيها من قبل. كانت النيران فى المدفأة قد خبت جذوتها، لكنها قلبتها بالعصا المعدنية حتى توهج لهيبها، ثم وضعت قطعة خشب فيها، ثم أشارت لى بالجلوس، ثم جلست هى وركزت بصرها نحوى بعينيها بشكل يوحى بنفاد الصبر.

قالت بلهجة آمرة: "حسنًا، أخبرنى ماذا فعلت؟".

من سلوكها المفعم بالحركة والحماس شعرت وكأن عليها اللحاق بالقطار مثلاً.

"أخبرتنى أن أفعل شيئًا، وهأنا أفعله بالفعل".

"رائع، ماذا؟".

أخبرتها بكل شىء، وشعرت بكل شىء وبأكثر مما أعرفه أو تفوهت به.

قالت وهى تفكر: "الليلة؟".

"نعم".

صمتت هنيهة وهى مستغرقة فى التفكير، لم أقاوم وقلت لها فجأة: "لا أحب كل هذا، يا إلهى، لا أحب كل ما يحدث".

"لماذا؟".

بالطبع لم أتمكن من الإجابة لكنى قلت:

"أشعر بالقلق والخوف البالغ عليها".

نظرت لى بطيبة ورقة وقالت:

"لا تعلم ما قد يحدث، يا لها من فتاة شجاعة، إن تمكنوا من إيذائها بطريقة ما ـــ".

ثم صمتت وقالت ببطء: "لا أفهم ـ حقًا لا أفهم كيف سيؤذونها كما ذكرت لى".

"لكنهم عرضوا أناسًا آخرين بالفعل للأذى".

قالت بعدم رضا: "نعم يبدو الأمر كذلك ـــ".

قلت لها: "لكن على أية حال ستكون بخير، ولقد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة، لن يحدث لها أذى جسمانى".

قالت: "لكن الأذى الجسمانى هو ما تدعيه هؤلاء النسوة أنهن قادرات على إحداثه، وكأنهن يتحكمن فى العقل والجسد، والمرضى. شىء مروع لو كان كل هذا صحيحًا! يجب وضع حدٍ لهن، كما اتفقنا سابقًا".

همهمت قائلاً: "لكن هناك من تعرض حياتها للخطر".

قالت بهدوء: "يجب على أحد أن يفعل ذلك، قد يؤذى هذا كبرياءك ؛ لأنك لست مكانها، لكن يجب أن تقبل هذا الأمر. جنجر مناسبة جداً للدور الذى تلعبه ويمكنها التحكم فى أعصابها كما أنها ذكية ولن

تخذلك".

"لست قلقًا من أن تخذلنى!".

"حسنًا كف عن القلق فلن يفيدها ولا تتجاهل القضية ولا تراوغ. إن ماتت نتيجة التجربة، ستكون شهيدة وضحية قضية نبيلة".

"يا إلهى، كم أنت قاسية!".

"يجب أن يكون أحد الناس قاسيًا، وعليك أن تتخيل الأسوأ دائمًا، فأنت لا تعرف كم يريح هذا الأعصاب، حيث ستبدأ على الفور التأكد من أن الأمور لن تكون بمثل هذا السوء كما تخيلت".

ثم أومأت لكى تطمئننى.

قلت بشك: "ربما كنت محقة".

قالت إنها متأكدة تمامًا من أنها محقة.

ثم سردت لها تفاصيل المهمة التى كلفتها بها:

"هل لديك هاتف يعمل هنا؟".

"بالطبع".

شرحت لها ما أريدها أن تفعله.

"بعد انتهاء عمل الليلة، أريدك أن تتصلى بجنجر كل يوم، وأنا سأتصل بها من عندك إذا سمحت لى".

"بالطبع، لا داعى للذهاب لرودا وإلا ستسمع بما حدث".

"سأبقى عند رودا لبضعة أيام، ثم ربما سأذهب إلى بورنماوث ويجب ألا ـ أعود إلى لندن".

قالت لى:"لا داعى للتفكير فيما وراء الليلة".

"الليلة... "نهضت وقلت شيئًا غير معتاد لشخصيتى: "ادع لنا يا سيدتى".

قالت مندهشة من طلبى: "بالطبع".

وبينما أخرج من البوابة الأمامية انتابتنى لحظة

فضول وقلت لها: "لماذا أردت الدلو فى هذا المكان؟".

"الدلو؟ أوه، لأطفال المدارس ليلتقطوا الكرز والأوراق من الشجيرات ـ إن الحديقة شكلها بشع لكنها الوحيدة المتاحة".

نظرت حولى لثراء الجو الخريفى الآن، والجمال الأخاذ الثابت الناعم الهادئ....

قلت لها: "ليرعانا الله ويحمينا".

قالت لى: "آمين".

3

كان استقبالى فى منزل الجواد الأشهب قد تم بشكل تقليدى للغاية، ولا أعرف التأثير الذى توقعته من الجو العام السائد ـ لكن لم أتوقع كل هذا.

كانت ثيرزا جراى ترتدى رداء صوفيًا أسود بدون زينة، وفتحت لى الباب وقالت بلهجة رسمية عملية: "ها قد جئت إلى هنا، رائع، سنعد العشاء حالاً....".

كل شىء كان عاديًا ومعتادًا ومألوفًا تمامًا.... كانت المائدة معدة بشكل بسيط والوجبة البسيطة، فى آخر قاعة حوائطها من الخشب الفخم. تناولنا الحساء والبيض المقلى والجبن. كانت بيلا هى من تقوم بخدمتنا. كانت ترتدى رداء أسود سادة، وبدت وكأنها إحدى الشخصيات فى لوحة إيطالية بدائية وسط زحام من الشخصيات. كانت سيبل تبدو أكثر غرابة بسبب ردائها الطويل المصنوع من قماش له ألوان الطاووس وموشى بخيوط ذهبية. هذه المرة لم تضع الخرز الملون،وكان حول معصميها سواران كبيران من الذهب. تناولت جزءًا صغيرًا من البيض ولم تأكل أى شىء آخر ولم تتحدث إلا قليلاً وكانت فى حالة مزاجية منفصلة وكأنها ليست حاضرة الذهن معنا بل تتواصل مع قوى عُليا. كان يجب أن يكون الأمر مؤثرًا ؛ لكنه لم يكن هكذا فعلاً، وبدا التأثير مسرحيًا ومزيفًا.

ثرثرت ثيرزا بمرح عن الأحداث المحلية فى القرية وكانت هذه الليلة بمثابة عانس ريفية تتحدث عن الحياة باهتمام عابر لطيف وكافٍ لأى عجوز لا تهتم بما يحدث حولها مباشرة.

قلت لنفسى هل أنا مجنون، ما الذى أخشاه هنا؟ حتى بيلا تبدو الليلة عجوزًا فلاحة معدومة الذكاء ـ مثل مئات النسوة من نوعها ـ بلا تربية أو تعليم أو أفق واسع.

بدا حوارى مع السيدة كالثروب خياليًا عندما فكرت فيه الآن، لقد تخيلنا أمورًا عجيبة جدًا لا تمت لهذا المكان بصلة. إن فكرة أن جنجر ـ بشعرها المصبوغ واسمها المستعار ـ فى خطر قادم من ثلاث نسوة عاديات، تبدو لى الآن فكرة سخيفة!

انتهت وجبة العشاء.

قالت ثيرزا معتذرة: "لن نقدم القهوة، لا نريد المزيد من التحفيز والانتباه". ثم نهضت وقالت: "سيبل".

قالت سيبل ووجهها يعلوه تعبير عما ظنته نشوة الاتصال بعالم غامض: "نعم، سأذهب للاستعداد... "

بدأت بيلا ترفع الأطباق من على المائدة فيما كنت أتأمل لافتة الفندق القديمة

وجاءت ثيرزا ونظرت معى إليها وقالت:

"لن تراها حقًا فى هذا الضوء الخافت" كانت على حق ؛ الصورة الباهتة فى الظلام مع السخام الأسود الذى كوّن طبقة سميكة يجعلك بالكاد ترى رسم الجواد. كانت إضاءة القاعة ضعيفة بواسطة لمبات كهربية حولها غطاء جلدى.

"الفتاة الصهباء ذات الشعر الأحمر ـ ماذا كان اسمها؟ ـ جنجر ربما ـ التى كانت هنا ـ قالت إنها قد تنظفها، وتعيدها إلى شكلها الأول، لكنها لم تعد تذكر هذا الآن "ثم قالت بشكل عابر: "كانت تعمل فى قاعة فنية فى لندن".

انتابنى شعور غريب لسماع اسم جنجر يقال هكذا ببساطة وبشكل عابر.

قلت وأنا أحدق فى الصورة:

"لو حدث ذلك لكان شيئًا ظريفًا".

قالت ثيرزا: "بالطبع اللوحة ليست جميلة فهى مجرد ألوان بدائية ؛ لكنها تتماشى مع المكان وعمرها أكثر من ثلاثمائة عام".

"كل شىء معد وجاهز".

استدرنا بسرعة وفجأة بعد أن انقطع الحوار.

خرجت بيلا من الظلام وأشارت لنا.

قالت ثيرزا: "حان وقت العمل "، وكانت لهجتها رسمية وعملية وسريعة.

تبعتها وهى تقودنا للخارج للجرن الذى تحول لمكتبة.

كما قلت، لم يكن للجرن مدخل من المنزل، وكانت ليلة حالكة السواد بلا نجوم، ودخلنا من الظلام الدامس فى الخارج إلى قاعة طويلة ومضاءة.

بدا الجرن ليلاً مختلفًا جدًا، فقد كان بالنهار يبدو كمكتبة، لكنه الآن صار شيئًا آخر. كانت هناك مصابيح ولم تكن مضاءة، والإضاءة كانت غير مباشرة وخافتة فى كل أرجاء الحجرة، وباردة وباهتة أيضًا. فى مركز الأرضية كانت هناك أريكة مرتفعة وعليها قماش أرجوانى مطرز بأشكال سحرية غريبة وعلامات شيطانية.

على أقصى طرف الحجرة كانت هناك مجمرة، وبجوارها حوض نحاسى كبير وقديم كما يبدو من مظهره.

على الجانب الآخر كان هناك مقعد ضخم وثقيل يلمس الحائط ومصنوع من خشب البلوط، وأشارت ثيرزا لى لأجلس عليه.

قالت لى: "اجلس هنا".

أطعت أمرها، ووجدت سلوكها قد تغير والغريب أننى لم أستطع تحديد ماهية هذا التغيير بالضبط. لا يوجد فى سلوكها الغموض الزائف مثل سيبل، بل وكأن ستار الحياة اليومية التافهة قد تم رفعه لتظهر السيدة الحقيقية بسلوكها الذى يشبه سلوك الجراح على مائدة العمليات ويستعد لعملية خطيرة. زاد لدى هذا الانطباع عندما توجهت لدولاب فى الحائط، وأحضرت معطفًا طويلاً وعندما رأيته فى النور بدا كنسيج من المعدن كالشبك، سحبت منه قفازًا بدا كالشبك المعدنى وكأنه من قماش سترة واقية من الرصاص كالتى رأيتها ذات مرة.

قالت لى: "على المرء أن يأخذ حذره".

بدت لى عبارتها مفعمة بالشر والشؤم.

ثم قالت لى بصوت عميق جدًا: "يجب أن أؤكد لك يا سيد ايستربروك على أهمية البقاء بلا حراك، ولا داعى لأى سبب أن تغادر مقعدك، لأنه ليس من الأمان أن تفعل ذلك فهذه ليست لعبة أطفال. إننى أتعامل مع قوى خطيرة على من لا يعرف كيفية التعامل معها!". توقفت لبرهة ثم قالت: هل أحضرت لنا ما أمرناك بإحضاره؟".

بدون أن أتفوه بأى كلمة أحضرت من جيبى قفاز جنجر وأعطيته لها.

أخذته وفحصته تحت ضوء لمبة معدنية لها غطاء معقوف كعنق الأوزة، كان ضوءًا باهتًا وغريبًا ومثيرًا للغثيان. تحول لون القفاز من لون بنى قاتم إلى رمادى باهت بلا شكل محدد.

أطفأت المصباح وأومأت برضا وقالت:

"مناسب جدًا، والشعاع المادى المنبعث من صاحبته قوى جدًا".

وضعت القفاز على أعلى شىء يبدو كمجموعة أدراج مذياعًا قديمًا وكبيرًا فى آخر الحجرة ثم رفعت صوتها قليلاً وقالت: "بيلا، سيبل، نحن مستعدون".

جاءت سيبل أولاً وكانت ترتدى عباءة سوداء طويلة على ردائها بلون ريش الطاووس، ثم خلعت العباءة بحركة مسرحية وبدت العباءة كبقعة حبر كبيرة على الأرضية، وجاءت سيبل للأمام وقالت:

"أتمنى أن يكون كل شىء على ما يرام، فلا أحد يعلم أبدًا ما قد يحدث من مفاجآت. لا تتشكك فى شىء ذهنيًا يا سيد ايستربروك، لأن هذا يعوق سير الأمور".

قالت ثيرزا: "لم يأت إلى هنا ليسخر منا".

كان فى صوتها نبرة كآبة.

استلقت سيبل على الأريكة الأرجوانية وانحنت ثيرزا فوقها، ورتبت ملابسها الملونة،

وقالت بتوسل:

"هل أنت مستريحة تمامًا؟".

"نعم شكرًا يا عزيزتى".

أطفأت ثيرزا بعض الأنوار، ثم دفعت كتلة كبيرة متحركة على عجلات حتى طغى على الأريكة وأخفاها عن بصرى فى ظل كبير عميق وسط الضوء البعيد الخافت الباهت.

قالت: "الضوء الساطع يؤذى جلسة تحضير الأرواح".

ثم قالت: "نحن مستعدون الآن يا بيلا".

جاءت بيلا من الظلام واقتربت السيدتان منى. تناولت ثيرزا يدى اليسرى بيدها اليمنى، وبيدها اليسرى أمسكت اليد اليمنى لبيلا، ثم أمسكت بيلا بيدها اليسرى يدى اليمنى. كانت يد ثيرزا جافة وصلبة ويد بيلا رخوة وباردة وكأنها بلا عظام ـ كيرقة رخوة وارتعشت من تقززى منها.

ربما ضغطت ثيرزا على زر فى مكان ما ؛ لأنه قد جاءنى صوت موسيقى خافت من السقف وعلمت أنها موسيقى جنائزية لـ "مندلسون".

قلت لنفسى باحتقار: "ما هذه الحركات المسرحية؟ كلها كذب وخداع وأوهام! "كنت هادئًا وأنتقدهن ذهنيًا، لكنى كنت على وعى بتيار داخلى يجيش بخوف وترقب غير مرغوب فيه.

توقفت الموسيقى وساد صمت ثقيل فى انتظار ما سيحدث. لم يكن هناك صوت سوى صوت أنفاسنا، وصوت أنفاس بيلا كان عاليًا قليلاً أما صوت أنفاس سبيل فكان عميقًا ومنتظمًا.

فجأة تحدثت سيبل بصوت غير صوتها بل بصوت رجل وليس بلهجتها المتكلفة بل بصوت أجنبى نابع من قلب الحنجرة.

قال الصوت: "لقد حضرت".

ثم تركن يدى وتحركت بيلا بسرعة نحو الظلام وقالت ثيرزا: "مساء الخير، هل أنت ماكندل؟".

"أنا ماكندل".

ذهبت ثيرزا إلى الأريكة، وأزالت الغطاء الواقى من عليها، وغمر ضوء خافت وجه سيبل التى بدت نائمة

بعمق، وبدا وجهها فى وضع الاسترخاء مختلفاً تماماً.

لم تعد التجاعيد تكسو وجهها وبدت أصغر من سنها بأعوام كثيرة، ويمكن القول إنها صارت أجمل.

قالت ثيرزا: "هل أنت مستعد يا ماكندل إلى أن تكون طوع أوامرى؟".

قال الصوت العميق القوى:

"نعم".

"هل ستتولى حماية الجسد الذى تحل فيه الآن من كل الأذى الجسمانى؟ هل ستكرس قواك الحيوية لخدمة أغراضى، وتحقيق أهدافى؟".

"نعم".

قالت: "هل ستساعد الجسد على أن يأتيه الموت، ويتبع قوانين الطبيعة المتاحة التى تؤدى لوفاة صاحبة القفاز؟".

قال الصوت: "يجب إرسال الموتى مكان حدوث الموت، وسيحدث ذلك".

تراجعت ثيرزا خطوة إلى الوراء، وجاءت بيلا ممسكة بغصن زيتون يابس ووضعته ثيرزا على صدر سيبل بالمقلوب. ثم أحضرت بيلا أنبوباً أخضر صغيراً، ووضعت منه نقطتين على جبهة سيبل، ثم رسمت شكل غصن الزيتون المقلوب بأصابعها.

قالت لى فى عجالة: "إنه ماء مقدس من دار العبادة فى جارسينجتون".

كان صوتها يبدو عادياً، وربما كان يجب أن يكسر السحر، لكن لم يحدث ذلك، بل جعل الأمر برمته يبدو مدعاة للفزع والقلق.

فى النهاية أحضرت الآلة الغريبة ذات الصوت المزعج وهزتها ثلاث مرات، وأمسكت بيد سيبل حولها.

ثم تراجعت وقالت:

"كل شىء جاهز ومعد...".

كررت بيلا هذه الكلمات:

"كل شىء جاهز ومعد....".

قالت لى ثيرزا بصوت خفيض:

"لا أظنك منبهر جداً بهذه الطقوس، أليس كذلك؟ بعض زوارنا يندهشون، أما أنت فتعتبر كل هذا طقوساً بدائية وهراء ... لكن لا تكن متأكداً من هذا. الطقوس ـ نمط

من العبارات والكلمات صارت مقدسة مع الزمن والاستخدام، وبالتالى لها تأثيرها على الروح البشرية. ما سبب الهستريا العامة للناس فى الزحام؟ لا نعلم بالضبط لكنها ظاهرة ملموسة، وهذه الاستخدامات القديمة لها جزء فعال ودور مهم على ما أظن".

غادرت بيلا القاعة، وعادت حاملة ديكًا أبيض وكان حيًا ويسعى للخلاص من قبضتها.

انحنت بالطبشور، ورسمت علامات غريبة على الأرضية حول المجمرة والطبق النحاسى، وأجلست الديك على ظهره على خط منحنى أبيض حول الطبق وجعلته بلا حراك.

رسمت المزيد من العلامات وهى تتمتم بصوت بلعومى حنجرى عميق، وكانت كلماتها غير مفهومة لى، لكنها ترنحت ومالت وركعت وكأنها تحاول الوصول لقمة النشوى الروحانية.

قالت ثيرزا وهى ناظرة نحوى: "ألا يروقك ذلك؟ إنها طقوس قديمة جداً، وتعويذة الموت من الوصفات القديمة التى تتناقلها الأجيال من الأمهات للبنات".

لم أفهم ثيرزا، لم تحاول أن تؤثر على حواسى مثل تأثير حركات بيلا البشعة، وكأنها راضية بدور متعمد هو الراوى والمعلق.

مدت بيلا يدها للمجمرة، وتوهج اللهب المتراقص ورشت البخور على اللهب وامتلأ المكان برائحة نفاذة.

قالت ثيرزا: "نحن مستعدات".

شعرت وكأنها جراح يلتقط المشرط...

عادت للجهاز الغريب الذى يشبه المذياع الكبير القديم ذا الأدراج وفتحته وبدا لى كجهاز كهربائى معقد.

حركته مثل الترولى ببطء فى اتجاه الأريكة.

انحنت عليه وضبطت بعض الأزرار وهمست لنفسها:

"البوصلة، على اتجاه الشمال الشرقى، هذا هو الاتجاه الصحيح "، ثم أخذت القفاز، ووضعته فى وضع محدد، وشغلت ضوءاً بنسفجيا بجواره.

ثم تحدثت لجسد سيبل الذى لا يتحرك على الأريكة.

"سيبل ديانا هيلين، لقد خرجت من جسدك الزائل ويحرسه لك الجنى ماكندل، توحدى مع صاحبة القفاز. مثل كل البشر، هدفها فى الحياة هو الموت. لا راحة أبدية إلا فى الموت، الموت هو الراحة والسلام السرمدى الفعلى، وكل العظماء علموا ذلك،

تذكر ماكبث:

"بعد الحياة السقيمة كالحمى، ننام جيداً إلى الأبد "تذكر نشوة "تريستان "و "ايزولد ": الحب والموت، الحب والموت لكن الموت هو أعظمهما...".

رنت كلماتها وتكررت أصداؤها فى جنبات القاعة ـ الآلة الضخمة التى تشبه الصندوق تصدر صوت هدير منخفضاً واللمبات التى بها أخذت تلمع ـ شعرت بالدوار وكأنى فى دوامة، وهذا لم يعد شيئًا أسخر منه. لقد أطلقت ثيرزا العنان لقوتها، وتسيطر تماماً على الجسد الجاثى على الأريكة وأخذت تستخدمه لأغراضها، وهى أغراض محددة. أدركت بغموض مبهم لماذا كانت السيدة أوليفر خائفة ليس من ثيرزا بل سيبل التى تبدو بلهاء. كان لديها قوة وهبة من الطبيعة، لا شىء يتعلق بالفكر والعقل، بل قوة جسمانية حسية تمكنها من فصل نفسها عن جسدها، وهكذا كان عقلها تحت سيطرة ثيرزا، وثيرزا تستغل هذا الوضع المؤقت لتنفيذ غرضها.

لكن لماذا يوجد هذا الصندوق؟

تحول فجأة كل خوفى إلى الصندوق! ما هو السر الشيطانى الذى يُمارس بواسطته؟ هل يصدر أشعة محسوسة من نوع ما تؤثر على خلايا العقل؟ أى نوع من العقول يتأثر بها يا ترى؟

واصلت ثيرزا كلامها:

"نقطة الضعف... دائماً هناك نقطة ضعف..... داخل أعماق أنسجة الجسد..... ومن نقطة الضعف تأتى القوة ـ قوة وسلام الموت... نحو الموت ـ ببطء وبشكل طبيعى تتجه نحو الموت.... ـ الطريق الطبيعى والحقيقى. أنسجة الجسم تطيع العقل... الأمر هنا بالموت.... نحو الموت.... الموت القاهر.... الموت السريع... السريع جداً... الموت... الموت... الموت!".

علا صوتها إلى درجة مفزعة... وصاحت بيلا صيحة كبرى مروعة حيوانية، ثم قامت ولمع نصل السكين الحاد وأسرعت بذبح الديك المسكين الذى صاح فزعاً فى قيوده... وتساقطت الدماء فى الطبق النحاسى، وهرولت بيلا وحملت الطبق وصرخت:

"الدماء... الدماء... الدماء!".

التقطت ثيرزا القفاز من الآلة، وأعطته لبيلا التى غمسته فى الدماء، وأعادته إلى ثيرزا التى أعادته إلى الآلة.

صاحت بيلا صيحة مفزعة عالية فى نشوة:

"الدماء... الدماء... الدماء! "

ركضت حول المجمرة وسقطت وهى تتلوى على الأرضية وخبت جذور المجمرة وانطفأت.

شعرت بالدوار والغثيان إلى درجة كبيرة، وأمسكت ذراعى المقعد دون أن أرى أى شىء ودار رأسى فى الفضاء...

سمعت صوت توقف الآلة الجهنمية...

قالت ثيرزا بصوت عادى ومتحفظ:

"السحر القديم مع الجديد، المعرفة القديمة بالمعتقدات مع العلم الجديد، معًا سينتصران...".

الفصل الثامن عشر

رواية مارك ايستربروك

صاحت رودا بمرح وحماس على مائدة الإفطار:

"حسنًا كيف كان الأمر؟ "

قلت بهدوء تام: "أوه، العرض المعتاد".

شعرت بعينىّ ديسبارد مركزتين علىّ، وشعرت بعدم الراحة، يا له من رجل محنك وواع!

"هل رسمن على الأرضية كل الرموز والعلامات الخماسية؟".

"الكثير منها".

"والديوك البيضاء ذُبحت؟".

"بالطبع، فهذا جزء من العرض خاص بـ "بيلا """.

"وجلسة تحضير الأرواح؟".

"تمت كما تعلمينه من تفاصيل معتادة".

بدت رودا محبطة ويائسة وقالت بحزن:

"هل وجدت الأمر مملاً؟".

قلت لها إن العرض لم يكن مبهراً بل مليئًا بالتفاصيل الكثيرة الزائدة، لكن على أية حال أشبعت فضولى.

لاحقًا ذهبت رودا للمطبخ وقال زوجها لى: "هل تأثرت قليلاً بما رأيت؟".

"حسنًا....".

كنت قلقًا وأردت الاستخفاف بالأمر ؛ لأتظاهر بأنه غير مهم، لكن ليس من السهل خداع رجل مثل ديسبارد.

قلت ببطء: "إلى حد ما كان الأمر حيوانيًا مقززًا".

أومأ لى برأسه وقال:

"لا يصدق أحد حقًا تلك الخرافات، وخاصة أصحاب العقول المفكرة ـ لكن هذه الأشياء لديها تأثير فعلى. فقد رأيت الكثير منها فى شرق أفريقيا، والسحرة يتحكمون فى الناس بشكل كبير، وأعترف أنه حدثت أمور غريبة لا يفسرها العقل والمنطق".

"ومنها حالات وفاة؟".

"نعم، إن عرف رجل أن الساحر سيجعله يموت، فهو يموت رعبًا".

"ربما قوة الإيحاء على ما أظن".

"ربما".

"لكن هذا لا يرضيك، أليس كذلك؟".

"فعلاً ـ لا يرضينى تمامًا. هناك حالات من الصعب تفسيرها بأى نظريات غربية علمية ماهرة. السحر غالبًا لا يعمل على الأوروبيين فى أفريقيا (على الرغم من الحالات الاستثنائية) لكن المعتقد يسرى فى دماء الناس ـ ويبدو أنه لديك!". لم يقل المزيد عن هذا الموضوع.

قلت وأنا أفكر: "أتفق معك على أن المرء لا يجب أن يكون علميًا إلى درجة كبيرة، فهناك أمور غريبة تحدث فى البلاد. كنت فى مستشفى كبير فى لندن ذات مرة، وكانت هناك فتاة تعانى من حالة عصبية وآلام حادة فى العظام والذراع.. إلخ وبلا سبب ظاهرى واضح، وظن الجميع أنها مصابة بهيستريا. أخبرها الطبيب أن العلاج بالكى بالنار بزجاج ساخن على ذراعها. هل وافقت على التجربة؟ نعم وافقت.

نحت رأسها جانبًا، وأغلقت عينيها بشدة ووضع الطبيب عمودًا من الزجاج الساخن فى الماء البارد، ثم تحت ذراعها وصرخت الفتاة من الألم وقال لها:

"ستكونين بخير الآن". قالت الفتاة: "أتوقع ذلك، كانت تجربة مؤلمة وحارقة". الغريب بالنسبة لى ليس أنها ظنت أنها تعرضت للحروق، بل أن كل ذراعها احترقت،فقد امتلأ الجلد بالفقاقيع حول مكان تلامسه مع العمود الزجاجى الساخن".

قال ديسبارد بفضول: "وهل تعافت؟".

"نعم، ولم يعد إليها الهياج العصبى، وقد تم علاج حروق ذراعها".

قال ديسبارد: "يا له من شىء عجيب، مجرد وهم يؤثر عليها، أليس كذلك؟".

"الطبيب نفسه اندهش من قوة الإيحاء عليها".

قال وهو ينظر نحوى بفضول: "أراهن أنه كان ـــ "

ثم قال: "لماذا أصررت على حضور جلسة تحضير أرواح البارحة؟".

هززت كتفى بلا اكتراث وقلت:

"هؤلاء النسوة أثرن فضولى، وأردت رؤية العرض الذى يقدمنه".

لم يقل ديسبارد المزيد، ولا أظنه صدقنى، فهو رجل ذو بصيرة نافذة وذكاء كبير كما ذكرت سابقًا.

بعد ذلك ذهبت إلى بيت كالثروب، وكان الباب مفتوحًا لكن بدا أن المنزل خالٍ من سكانه.

ذهبت للهاتف واتصلت بـ "جنجر".

مر الوقت وكأنه الدهر حتى سمعت صوتها:

"أهلاً!".

"جنجر!".

"ياه، إنه أنت، ماذا حدث؟".

"هل أنت بخير؟".

"بكل تأكيد، لماذا لا أكون بخير؟".

شعرت بارتياح شديد.

يبدو أنها بخير فعلاً، وأراحنى حقًا أسلوبها المعتاد للحديث بتحدٍ، كيف صدقت أن الخزعبلات والخرافات ستؤذى إنسانة لطيفة وعادية مثل جنجر؟.

قلت لها بعذر واه غير مقنع: "خلت أنه قد انتابك كوابيس أو أى شىء من هذا القبيل".

"حسنًا، لم يحدث ذلك، لقد توقعت الكوابيس لكنى استيقظت عدة مرات لأتساءل هل حدث لى شىء غريب أم لا. كدت أشعر بالغضب لأنه لم يحدث لى شىء".

ضحكت على جملتها.

قالت: "هيا أخبرنى، كيف تم الأمر؟".

"لم يحدث شىء غير عادى، استلقت سيبل على أريكة أرجوانية لتحضير الأرواح لتحل فى جسدها وذهبت فى غيبوبة".

ضحكت جنجر بقوة وقالت:

"أحقًا؟ يا له من شيء رائع! هل كانت أريكة مخملية وهل كانت عارية تمامًا عليها؟".

"سيبل ليست مثل مدام دى مونتسبان، ولم يكن هناك كتلة سوداء، بل ارتدت سيبل ملابس كثيرة بألوان الطاووس والعلامات المطرزة".

"هذا يبدو سلوكًا لائقًا بها، وماذا فعلت بيلا؟".

"شيء مقزز ومتوحش حقًا، ذبحت الديك الأبيض ثم غمست قفازك فى الدم".

"أوه... يا للتقزز... ماذا أيضًا؟".

"أشياء كثيرة".

خمنت أننى أتحدث كما ينبغى عن الأمر، وواصلت كلامى:

"كشفت ثيرزا عن كل حيلها وأسرارها، واستعدت واستحضرت روحًا تسمى ماكندل، وكانت هناك ترانيم وتعاويذ وأضواء ملونة، وكل هذا قد بهر بعض الناس وأخافهم".

"لكن ألم يخفك أنت؟".

"أخافتنى بيلا قليلاً، كان معها سكين حاد ومخيف، وخشيت أن تفقد عقلها وتتخذنى القربان الثانى بعد الديك".

أصرت جنجر على السؤال:

"هل أخافك شيء آخر؟".

"أنا لا أتأثر بمثل هذه الأشياء".

"إذن لماذا بدا عليك الارتياح للتأكد من أننى على ما يرام؟".

"حسنًا، بسبب ـــ "ثم توقفت عن الكلام

قالت تستحثنى على الكلام: "حسنًا، لا تجب عن هذا السؤال، ولا داعى لاختلاق كلام تهدئ به من هول ما حدث، فهناك أمور قد بهرتك".

"كلا، أفكر فقط، لأن، ثيرزا ـ أعنى أنها بدت واثقة جداً من النتيجة".

"واثقة من أنها، وفقًا لما ذكرته أنت لى، باستطاعتها قتل شخص ما؟".

كانت نبرة صوتها تدل على عدم التصديق.

قلت لها: "أعلم أن الأمر كله هراء".

"هل كانت بيلا واثقة من نفسها أيضًا؟".

فكرت قليلاً وقلت:

"كانت غالبًا تستمتع بقتل الديك، وأن تذهب فى حالة نشوة فى طقوس الشر، وكان من المرعب رؤيتها وهى تصيح وتتأوه وهى تقول: "الدماء... الدماء".

قالت جنجر: "وددت لو سمعتها".

قلت لها: "يا ليتك سمعتها، فى الواقع كان الأمر كله مجرد عرض مبهر".

قالت جنجر: "وأنت الآن بخير أليس كذلك؟".

"ماذا تعنين ـ بخير؟".

"لم تكن على ما يرام عند بداية المكالمة، لكنك بخير الآن".

كان افتراضها فى محله، وصوتها المرح الطبيعى فعل بى العجائب. لكن مع ذلك قمت برفع قبعتى سراً تحية لثيرزا جراى، مهما كان الهراء فى هذا الأمر كله، فلقد أثرت على عقلى بالشكوك والتوجس ؛ لكن الآن لا شىء يهم. جنجر بخير ـ ولم تنتبها حتى الكوابيس.

قالت: "ما الخطوة التالية؟ هل سأظل هنا أسبوعًا آخر مثلاً؟".

"نعم، إن أردت أن أحصل أنا على مائة جنيه من برادلى".

"ستفعل هذا وإن كان آخر عمل تقوم به فى حياتك... هل ستظل ماكثًا عند رودا؟".

"لفترة قصيرة ثم سأنتقل إلى بورنماوث، ويجب أن تتصلى بى يوميًا، أو الأفضل أن أتصل أنا بك. إننى أكلمك الآن من هاتف السيدة كالثروب الآن".

"وكيف حالها؟".

"فى أفضل حال، وبالمناسبة، لقد أخبرتها كل تفاصيل خطتنا".

"خلتك ستفعل هذا. إلى اللقاء الآن، ستكون الحياة مملة لمدة أسبوع أو اثنين، لكنى أحضرت عملاً معى لأقوم به ـ وكتبًا كثيرة كنت أريد قراءتها ولم أجد الوقت الكافى لذلك".

"وماذا يظن زملاء العمل فى المتحف عنك؟".

"أننى فى رحلة طويلة فى البحر".

"ألا تتمنين لو كنت فى رحلة فعلاً؟".

قالت: "ليس بالضبط... "بدا صوتها غريبًا إلى حد ما.

"ألم يقترب منك أى شخصية مريبة؟".

"لا أحد سوى المتوقع مجيئهم، بائع اللبن وقارئ عداد الغاز وامرأة، وسألتنى عن أنواع الأدوية ومساحيق التجميل التى أستخدمها، وآخر طلب منى الإمضاء على التماس لإلغاء صنع القنابل الذرية وامرأة تريد تبرعًا للمكفوفين، وعدد كبير من بوابي العقارات وساعدنى أحدهم على إصلاح مفتاح الكهرباء".

قلت لها: "لا أذى أو ضرر فى ذلك".

"ما الذى كنت تتوقعه؟".

قلت لها: "لا أعلم حقًا". تمنيت خطر ظاهر وواضحًا لكى أتعامل معه.

لكن هل ضحايا الجواد الأشهب ماتوا بمحض إرادتهم... كلا هذه كلمة لا تصلح هنا... إرادة... بذور الضعف زرعت داخلهم وتطورت بواسطة عملية لم أفهمها.

استنكرت جنجر اقتراحى الضعيف بأن قارئ عداد الغاز كان مزيفًا.

قالت مستنكرة: "كان معه إثبات هوية حقيقى وغير مزيف، فقد طلبته منه! إنه الرجل الذى يصعد السلم داخل الحمام ويقرأ العداد ويدون الأرقام. لم يهمل أى صمام للغاز أو أى أنبوب، ولم يرتب لتسرب الغاز لغرفة نومى، أنا متأكدة من هذا".

"كلا، الجواد الأشهب لا يتعامل مع تسرب الغاز بالصدفة ـــ بل يتعامل مع أمور غير ملموسة!".

قالت جنجر: "أوه! نسيت أن أخبرك عن زائر آخر، صديقك السيد كوريجان. إنه لطيف حقًا".

"ربما أرسله لوجون".

"إنه فخور جدًا باسمه وينادى به فى شعار: "يحيا آل كوريجان".

أغلقت السماعة وأنا أشعر بارتياح كبير.

عدت لأجد رودا منهمكة فى الحديقة بمداعبة إحدى كلباتها، وتدهن جسمها بنوع من المراهم.

قالت لى: "الطبيب البيطرى انصرف للتو، وقال إنها مصابة بالديدان الحلزونية، والمرض معدٍ ولا أريد أن يصاب به أطفالى ـ أو باقى الكلاب".

قلت لها: "أو حتى الكبار البالغين".

"لا يلتقط العدوى سوى الأطفال، والحمد لله أنهم فى المدرسة طوال اليوم ـ اهدئى يا شيلا ولا تحركى جسمك".

قالت: "المرض يجعل شعرها يسقط، وتتكون أماكن بلا شعر لكن الشعر ينمو بها لاحقًا".

أومأت لها وعرضت المساعدة، لكنها رفضت لحسن حظى، ثم تجولت بعيداً مرة أخرى.

لعنة الريف كما كنت أعتقد دائمًا هو وجود أكثر من ثلاثة اتجاهات للتمشية. فى ماتش ديبنج، يمكنك الذهاب عبر طريق "جارسينجتون "أو "لونج كوتنهام "أو "شادهانجرلين "وكلها تؤدى لطريق لندن ـ بورنماوث الرئيسى على بعد 2 ميل.

فى اليوم التالى فى وقت الغداء جربت السير على جارسينجتون ولونج كوتنهام، والهدف التالى لى هو طريق "شادهانجرلين".

بدأت السير نحو هذا الطريق، وسرعان ما واتتنى فكرة غريبة. كان مدخل منزل السيدة فينابلز فى هذا الطريق، لماذا لا أزوره؟ كلما فكرت أكثر فى الفكرة ازداد إعجابى بها، وخاصة أنه لا يوجد ما يثير الريبة فى هذا. فعندما ذهبت إلى رودا من قبل اصطحبتنى إليه، ومن السهل والطبيعى أن أذهب إليه فى زيارة أخرى لأشاهد تحفه الفنية التى لم يسعفنى الوقت لأراها جيداً المرة السابقة.

تعرف الصيدلى على "فينابلز "ماذا كان اسمه "أوجدن؟ ""أوزبورن "؟ كان مثيراً جداً وهذا أقل ما يقال عن ذلك. وفقًا لما قاله لوجون مستحيل أن يكون هو لأنه مشلول، لكن كان من المثير أن يتم الاشتباه فى رجل يعيش فى نفس الحى ـ وشخصيته تليق جداً كرأس مدبر لكل ما يحدث، وأعترف بذلك.

هناك شىء غامض يحيط بالسيد فينابلز، شعرت بهذا منذ البداية، بالطبع كان عقله فى قمة الذكاء، وكان به شىء يثير الشبهة والريبة ـ مثل أنه "مدمر"...

"مفترس"... وجاءتنى أيضًا كلمة "ماكر "، فهو ماهر وحاذق جداً، وربما ليس هو القاتل ـ لكن قد يخطط لعملية قتل إن أراد ذلك.

وفقًا لمعطيات وملابسات الأمر، فالدور يليق عليه تماماً كعقل مدبر لكل هذا من خلف الستار. لكن الصيدلى أوزبورن يدعى أنه رأى فينابلز يسير عبر شارع فى لندن. هذا بالطبع مستحيل، وبالتالى فإن التعرف عليه بلا قيمة، ومن ثم فإن حقيقة أنه يعيش بالقرب من منزل الجواد الأشهب لا تعنى أى شىء.

على أية حال أردت إلقاء نظرة أخرى عليه، وهكذا وقفت أمام بوابة منزله المسمى "برايرز كورت "وسرت حوالى ربع ميل فى طريق ملتوٍ نحو قصره.

فتح الباب نفس كبير الخدم، وقال إن السيد "فينابلز "فى المنزل، ثم قال عندما تركنى فى قاعة الضيوف إن "حالته الصحية لا تسمح برؤية أحد "ثم انصرف وعاد بعد لحظات برسالة منه يقول فيها إنه يسعده رؤيتى.

حيانى فينابلز بكل ود وترحاب وجذب مقعده المتحرك نحوى وكأننى صديقه الحميم.

"لطف منك أن تزورنى يا صديقى العزيز، سمعت أنك هنا، وكنت على وشك الاتصال برودا العزيزة لتتناولا معى الغداء أو العشاء".

اعتذرت عن المجئ فجأة بدون اتصال ؛ لكنى قلت له إننى جئت إليه فجأة بعد أن واتتنى الفكرة منذ دقائق عندما كنت أتنزه سيراًعلى الأقدام، ومررت بالقصر وبوابته فقررت أن أزوره بدون سابق موعد.

قلت له: "فى الواقع أرغب فى رؤية تماثيل المغول مرة أخرى، لم يتح لى الوقت الكافى لأراها كما أريد عندما كنت هنا آخر مرة".

"بالطبع لم يكن الوقت كافيًا، يسعدنى أنك تقدرها، فبها تفاصيل دقيقة وجميلة".

ظل حوارنا بعد ذلك فنيًا ومتخصصًا إلى حد كبير، وأعترف أننى استمتعت للغاية بالنظر لممتلكاته الفنية المدهشة وتأملها كما أريد.

أصر على أن أتناول الشاى معه.

على الرغم من أننى لم أكن مغرمًا بالشاى ؛ لكنى استمتعت بشاى الصين المدخن والأقداح الفخمة الرقيقة التى قدم بها. كان مع الشاى خبز ساخن بالزبد والأنشوجة، وكعكة البرقوق من النوع الغنى اللذيذ للوصفات القديمة، مما ذكرنى بوقت الشاى الساعة الخامسة عندما كنت طفلاً فى منزل جدتى.

قلت وأنا مسرور: "ياه، إنه مخبوز بالمنزل".

"بالطبع هذا المنزل لا تدخله مخبوزات آلية من الخارج".

"أعلم أن لديك طاهيًا ماهرًا ورائعًا، لكن ألا تجد صعوبة فى الاحتفاظ بخدم فى الريف بعيدًا عن المدينة؟".

هز كتفيه بلا اكتراث وقال: "أصر دومًا على أن أحظى بالأفضل، وبالطبع أدفع ثمن ذلك نقدًا!".

ظهر غروره الطبيعى هنا. قلت له بجفاء: "لو كل الناس يتمتعون بالحظ الوافر ويتمكنون من هذا، سيحل هذا مشاكل كثيرة".

"هذا يعتمد على ما يريده المرء من الحياة، كما تعلم، وإن كانت رغبات المرء قوية بما يكفى ـ فهذا هو المهم. الكثير من الناس يحصلون على المال دون أدنى فكرة عن كيفية إنفاقه! وبالتالى يتحولون لآلات لجلب المال وحسب، ويصيرون عبيداً له، ويذهبون للعمل مبكراً ويغادرون متأخراً، ولا تنتهى متاعبهم. وما المقابل؟ سيارات فارهة ومنازل أكبر وزوجات أو عشيقات يكلفنهم أموالاً طائلة ـ وأيضاً، فى رأيى، صداع أكبر".

مال للأمام وقال:

"مجرد الحصول على المال ـ هذا هو الغرض الوحيد لمعظم الأغنياء، الاستثمار فى أعمال كبرى، وكسب المزيد من المال. لكن لماذا؟ هل يتوقفون ليسألوا أنفسهم لماذا؟ لا يعرفون".

"وأنت؟".

ابتسم وقال: "أنا أعلم ما أريد فى الحياة. وقت لا محدود لكى أتأمل كل ما هو جميل فى الحياة، الفن، والطبيعة. لكن فى سنواتى الأخيرة حرمت من رؤية كل هذا فى محيطه الطبيعى، وبيئته الطبيعية فجلبت كل العالم إلى قصرى".

"لكن يجب الحصول على المال أولاً قبل حدوث ذلك".

"نعم، ويجب أن يخطط المرء لضربات ضخمة تجلب له المال الوفير، وهذا يستلزم تخطيطاً كثيراً ـ لكن لا داعى فى هذه الأيام أن يتبع أحدهم طريقاً غير مستقيم ويتعلم حرفة غير شريفة".

"لا أفهمك جيداً".

"إنه عالم متغير يا سيد ايستربروك، وهو كذلك دائماً ـ لكنه يتغير الآن بإيقاع أسرع، ويجب استغلال ذلك".

قلت وأنا أفكر: "عالم متغير".

"إنه يفتح آفاقاً جديدة".

قلت معتذراً: "أخشى أنك تتحدث لرجل يتجه نحو الاتجاه المعاكس ـ نحو الماضى ـ وليس المستقبل".

هز فينابلز كتفيه وقال:

"من يتحدث عن المستقبل؟ من منا يمكنه التنبؤ به؟ أنا أتحدث عن اليوم والحاضر، واللحظة الراهنة! ولا أهتم بسواها. لدينا العلوم الحديثة مسخرة فى خدمتنا ولدينا ماكينات بالفعل تمدنا بإجابات الأسئلة فى ثوان معدودة ـــ مقارنة بساعات أو أيام من

الجهد والعمل البشرى".

"تقصد الحاسب الآلى؟ المخ الإلكترونى؟".

"نعم، أشياء من هذا القبيل".

"هل ستحل الآلات محل الإنسان فى النهاية؟".

"تحل محله فى العمل كقوة عاملة فقط، لكن لن تحل محله فى الحياة بالطبع، يجب أن يكون الإنسان هو المتحكم والمفكر، ويتوصل للأوامر التى يلقيها على الآلة".

هززت رأسى بشك وقلت له بنبرة سخرية خافتة:

"الإنسان سيصبح الرجل الخارق؟".

"لم لا يا سيد ايستربروك؟ لم لا؟ تذكر أننا عرفنا ـ أو بدأنا نعرف ـ أموراً كثيرة عن الإنسان كحيوان ناطق

مفكر. والممارسة التى كانت تسمى خطأ "غسيل المخ "فتحت المجال لاحتمالات كثيرة مثيرة فى هذا الاتجاه. ليس جسم الإنسان فقط، بل عقله أيضًا يستجيب لمثيرات محددة".

"نظرية خطيرة".

"خطيرة؟".

"خطيرة للأطباء".

هز فينابلز كتفيه بلا اكتراث وقال:

"الحياة كلها مخاطر، نحن من تناسينا ذلك، نحن من نشأنا فى إحدى البؤر الصغيرة للحضارة الإنسانية. هذه هى الحضارة فعلاً يا سيد ايستربروك، بؤر متناثرة صغيرة من الرجال تجمعوا للحماية المشتركة للتغلب على ذكاء الطبيعة وإخضاعها، وغزوا الغابات ـ لكن هذا النصر كان مؤقتًا، فى أى لحظة ـ تستعيد الغابات سيطرتها على نفسها. المدن الحصينة المستبدة صارت أكواماً من التراب الآن، وغزتها النباتات ولم يعد هناك أثر لبناة هذه الحضارة، سوى أكواخ بسيطة للفقراء الذين بقوا على قيد الحياة، لا أكثر. الحياة دائماً محفوفة بالمخاطر ـ لا يجب أن ننسى ذلك. ربما فى النهاية لن تدمر القوى الكامنة الكبرى للطبيعة حضارتنا، بل عمل يدنا هو ما سيدمرنا ويدمر حضارتنا. نحن نقترب من هذه اللحظة أكثر وأكثر".

"بالتأكيد لا أحد ينكر ذلك، لكنى مهتم أكثر بنظريتك عن القوة ـ والسيطرة على العقل".

قال بإحراج مفاجئ: "أوه، نظريتى؟ ربما كنت أبالغ فى قولى".

أثار اهتمامى شعوره بالحرج وانسحابه وتراجعه عن رأيه السابق. فينابلز رجل عاش وحده لفترات طويلة، ومن مثله يحب التحدث مع أى شخص، وربما تحدث معى بدون حكمة.

قلت له: "الإنسان سيصبح الرجل الخارق، هل هذه نسخة حديثة من الفكرة؟".

قال لى: "لا يوجد بها أى شىء جديد بالتأكيد، والصيغة أو المعادلة للرجل الخارق ترجع لفترة زمنية طويلة، وبنيت عليها نظريات فلسفية كبيرة".

"بالطبع، لكن نظريتك عن الرجل الخارق بها اختلاف... يمكن للرجل الخارق أن يتحكم فى القوى كما يريد ويجلس فى مقعده ويحرك خيوط الآلات".

نظرت نحوه عندما قلت ذلك ووجدته يبتسم وقال:

"أتظننى جديراً بهذا الدور يا سيد ايستربروك؟ أتمنى

لو كنت هكذا فعلاً، فأنا بحاجة لتعويض عن ـ عجزى!".

ثم ضرب بيده الغطاء الذى على ركبتيه ولاحظت مرارة فى كلامه وصوته.

قلت له: "لن أعرض عليك تعاطفى معك، التعاطف والشفقة لن تفيدا رجلاً فى مركزك. لكن دعنى أقل إننا نتخيل وجود رجل بمثل هذه الشخصية ـ يمكنه تحويل الكوارث غير المتنبأ بها إلى انتصارات ـ وأنت من نوع هؤلاء الرجال بالضبط".

ضحك وقال:

"أنت تمدحنى وتداهننى".

لكنى لاحظت أنه مسرور بذلك.

قلت له: "كلا، لقد قابلت كثيراً من الناس فى حياتى، ويمكننى معرفة الرجل غير العادى الموهوب عندما أقابله".

خشيت أن أتمادى وأكشف نفسى، لكن هل للتملق والمديح حدود؟ يا لها من فكرة كئيبة! يجب أن يتشجع المرء ويتجنب الوقوع فى الفخ.

قال وهو يفكر: "أتساءل ما الذى يجعلك تقول لى هذا الكلام؟ كل هذا؟". ثم لوّح بذراعه فى أرجاء القاعة.

قلت له: "كل ما حولنا دليل على أنك ثرى يعرف كيفية حُسن الشراء وإنفاق المال، ولديك ذوق رفيع وليست مجرد رغبة الامتلاك، بل سعيت لامتلاك مقتنيات جميلة ومثيرة ـ وألمحت بالفعل أنك لم تبذل جهداً فى امتلاك كل هذا".

"حقًا يا سيد ايستربروك، كما قلت، الحمقى فقط هم من يتعبون لجنى المال، ويجب على المرء أن يفكر ويخطط لكل التفاصيل، وسر كل نجاح بسيط جداً ـ لكن يجب التفكير به! إنه شيء بسيط، يفكر المرء فى الأمر ويسعى فى تنفيذه ـ ثم ينجح!".

حدقت إليه فى ذهول ـ شيء بسيط ـ مثل التخلص من أناس غير مرغوب فيهم؟ إشباع الحاجات. طقس يؤدى ولا يؤذى أحداً سوى الضحية، والعقل المدبر المخطط لكل هذا هو فينابلز المشلول على مقعد متحرك بأنفه الكبير المعقوف كطائر من الطيور الجارحة، وتفاحة آدم فى حلقه تتحرك لأعلى ولأسفل. والعقل المنفذ ـ من؟ ثيرزا جراى؟

راقبته وأنا أقول: "كل هذا الحوار عن التحكم عن بعد يذكرنى بشيء غريب قالته الآنسة جراى".

قال: "أوه! ثيرزا العزيزة! "كانت نبرة صوته ناعمة ومتساهلة (لكن كانت هناك حركة خافتة لجفنيه) ثم قال:

"يا لها من حماقات يتفوه بها هؤلاء النسوة! ويصدقنها حقًا كما تعلم. هل حضرت جلسة تحضير أرواح معهن، بالتأكيد أصررت على أن تحضر جلسة سخيفة كهذه، أليس كذلك؟".

ترددت قليلاً لأقرر بسرعة كيف سيكون اتجاهى.

"بلى، ذهبت وحضرت جلسة تحضير أرواح".

"وهل انبهرت بها أم وجدتها هراء؟".

تجنبت النظر فى عينيه ومثلت بكل قدرتى دور الرجل القلق:

"أوه... حسنًا... بالطبع لم أصدق كل ما حدث، لكن كان هؤلاء السيدات صادقات جداً لكن... نظرت لساعتى وقلت: "لم أعرف أن الوقت تأخر هكذا، يجب أن أعود حتى لا تقلق رودا على".

"لقد أسعدت رجلاً مشلولاً يمضى وقتًا مملاً. أرسل تحياتى إلى رودا. يجب أن نتفق على موعد لوليمة غداء بسرعة. غداً سأذهب إلى لندن لمزاد مثير فى سوثبى ؛ حيث يعرضون تحفًا فرنسية من العاج ترجع للعصور الوسطى. شيء بديع! ستقدرها حقًا، أنا متأكد إن نجحت فى شرائها".

ثم غادرته بعد الوداع بشكل ودى.

تساءلت هل كان فى عينيه لمعان خبيث يدل على الاستمتاع عندما سجل ترددى فى

الحديث عن جلسة تحضير الأرواح؟ شعرت بذلك لكنى لم أكن متأكداً، وشعرت أننى غالباً كنت أتخيل أشياء غريبة.

الفصل التاسع عشر

رواية مارك ايستربروك

خرجت وقد أوشكت الشمس على المغيب، وبسبب الضوء القليل سرت متعثر الخطى عبر الممر الملتوى نحو البوابة. نظرت خلفى لمرة واحدة إلى النوافذ المضاءة للمنزل وأثناء ذلك تعثرت قدماى فى الحصى، ووقعت على العشب واصطدمت بمن يتحرك فى الاتجاه المعاكس.

كان رجلاً قصيراً قوى البنية وممتلئ الجسم. تبادلنا الاعتذارات وكان صوته عميقًا ومنخفضًا لكنه أيضًا به نبرة متحذلقة وقوية وجذابة.

"أنا آسف...".

"لا عليك، كان هذا خطئى، وأؤكد لك ذلك...".

شرحت له: "هذه أول زيارة لى هنا، ولا أعرف الطريق جيداً، كان يجب أن أحضر بطارية".

"دعنى أساعدك".

أحضر هذا الشخص الغريب بطارية من جيبه وأنارها وأعطاها لى، وعلى ضوئها رأيت رجلاً فى منتصف العمر له وجه ممتلئ وملائكى وشارب أسود ونظارة. كان يرتدى معطف أمطار من نوعية جيدة ويتصرف بقمة الاحترام. على أية حال تساءلت لماذا لا يستخدم البطارية لنفسه طالما أنها معه.

قلت بحماقة: "ياه، فهمت لقد ابتعدت عن الممر".

عدت للمر ثم مددت يدى له بالبطارية وقلت:

"يمكننى معرفة طريقى الآن".

"كلا، كلا، احتفظ بها حتى البوابة".

"وأنت؟ ألن تدخل للمنزل؟".

"كلا سأسير معك على الممر، ثم سأذهب لمحطة الحافلات لأستقل حافلة للعودة إلى بورنماوث".

قلت له: "فهمت "، ثم سرنا متجاورين على الممر، وكان يبدو على رفيقى القلق، وسألنى هل سأذهب إلى محطة الحافلات، فقلت له إننى نازل لدى أقاربى فى الحى هنا.

ساد الصمت لبرهة ثم شعرت أن رفيقى محرج ويزداد إحراجه. كان من الرجال الذين لا يحبون الشعور أنهم فى موقف خاطئ.

قال وهو يتنحنح: "هل كنت تزور السيد فينابلز؟".

قلت له إننى كنت أزوره، ثم أضفت قائلاً: "وأنت كنت فى طريقك لمنزله أيضاً؟".

صمت لبرهة وقال: "كلا، كلا... فى الواقع أنا أعيش بالقرب من بورنماوث، وانتقلت منذ فترة قصيرة لكوخ صغير هناك".

شعرت بالدوار قليلاً فى رأسى. ترى ما الذى سمعته مؤخراً عن كوخ صغير فى بورنماوث؟ بينما أحاول

التذكر، بدأ القلق يزيد لدى رفيقى، ثم شعر بالضرورة الملحة للتحدث معى فى النهاية:

"قد تجد من الغريب ـ بالطبع أعترف أنه أمر غريب ـ أن تجد من يتجول فى حديقة منزل ـ ولا يعرف صاحبه من الصعب شرح أسباب ذلك، لكنى أؤكد لك أن لدى أسبابى، وكل ما يمكننى قوله إننى وافد جديد فى بورنماوث لكنى كنت معروفًا هناك، واكتسبت احترام الجميع شخصياً، وكلهم يشهدون على نزاهتى وأمانتى. أنا صيدلى كان لدى صيدلية قديمة فى لندن، ثم تقاعدت وذهبت إلى هذه المنطقة الجميلة جداً حقًا...".

فهمت على الفور الآن من يكون هذا الرجل قصير القامة، لكنه واصل حديثه على الفور وبسرعة.

"اسمى أوزبورن، زكريا أوزبورن ـ وصيدليتى القديمة كانت فى لندن فى شارع بارتون فى منطقة بادينجتون جرين، وهى شهيرة فى الحى منذ أيام والدى لكن الأمور للأسف تغيرت الآن جداً، والعالم كله اختلف".

تنهد وهز رأسه فى أسى.

ثم قال:

"هذا منزل السيد فينابلز، أليس كذلك؟ لعلك صديقه؟".

قلت متعمداً وببطء:

"بالكاد أنا صديقه، لم أقابله سوى مرة قبل اليوم، عندما اصطحبنى صديق إلى منزله

للغداء عنده".

"آه، فهمت... بالضبط ".

وصلنا للمدخل الكبير الآن واجتزناه، وصمت أوزبورن وظل مصراً على الصمت وأعطيته بطاريته وشكرته قائلاً:

"شكراً لك".

"العفو، أنا... "، صمت لبرهة، ثم قال بسرعة:

"لا أريك أن تفكر.... أعنى، بالطبع أنت تظن أننى أتطفل، ودخلت دون استئذان فى ملكية الغير، لكنى فعلت ذلك بدون دافع دنئ أو خسيس، قد أبدو لك غريباً ـ وموقفى غريب ـ وقد يسئ الناس فهمى، لكنى أحب أن أوضح موقفى".

انتظرت أن يواصل حديثه، وكان هذا أفضل خيار متاح لى، وازداد فضولى لدرجة كبيرة بكل تأكيد، سواء كان ذلك وقاحة أم لا، ولقد أردت إشباع هذا الفضول.

صمت أوزبورن لبرهة ثم قال وقد عقد العزم:

"أحب أن أشرح لك يا سيد ـــ".

"ايستربروك، مارك ايستربروك".

"حسنًا يا سيد ايستربروك، كما ذكرت، أريد أن تسمح لى بفرصة لأوضح سلوكى الغريب، إن كان وقتك يسمح، مجرد خمس دقائق فقط من السير من هنا حتى الطريق الرئيسى، وهناك مقهى محترم وصغير بجوار محطة البنزين ومحطة الحافلات. لن تأتى حافلتى إلا بعد أكثر من عشرين دقيقة. فهلا قبلت دعوتى على كوب من القهوة؟".

قبلت دعوته وسرنا عبر الطريق معًا. هدأ كبرياؤه الجريح، وبعد ذلك أخذ يثرثر بحميمية وحماس عن مزايا بورنماوث، ومناخها الرائع وحفلاتها الموسيقية وأهلها الظرفاء.

اقتربنا من الطريق الرئيسى وكانت محطة البنزين على قارعة الطريق ومحطة الحافلات بعده مباشرة. كان مقهى صغيراً ونظيفًا، وخالياً من الزبائن فيما عدا رجل وامرأة. فى الركن البعيد من المقهى. دخلنا وطلب أوزبورن قهوة وبسكويتًا لشخصين.

مال إلى الأمام عبر المائدة وقال وهو يبوح بما بداخله: "كل ما أفعله هنا أننى أتحرى عن قضية ذكرت فى الجرائد منذ شهور، لكنها ليست قضية رأى عام ولم تثر أى ضجة، وبالتالى لم يكتب عنها مانشيت كبير ـ على حد تعبير لغة الصحافة، كانت قضية رجل دين فى حى بلندن حيث تقع صيدليتى القديمة، تعرض للهجوم والقتل ذات ليلة. وللأسف، فقد صارت هذه الأمور متكررة جداً هذه الأيام. أعلم أنه رجل طيب ونقى

السريرة ـ لكنى سأشرح لك سبب اهتمامى بقضيته ؛ لقد أعلنت الشرطة أن كل من لديه معلومات عن السيد جورمان أو رآه ليلة الحادث فليتقدم. وكنت واقفاً بالصدفة خارج باب الصيدلية عندما مر السيد جورمان فى حوالى الساعة الثامنة، وكان يتبعه رجل شكله غريب لفت انتباهى. وقتها لم أعر الأمر أى اهتمام ـ لكنى رجل قوى الملاحظة سيد ايستربروك وأسجل ذهنياً كعادتى وجوه من أراهم. إنها حقاً إحدى هواياتى ويندهش زبائن الصيدلية عندما أقول لهم مثلاً: "نعم، أتيت إلى هنا بنفس الروشتة فى مارس الماضى؟ "، وهذا يسرهم لأننى تذكرتهم. كان الأمر مفيداً لى فى العمل، وعلى أية حال وصفت شكل الرجل للشرطة وشكرونى.

بعد ذلك يأتى جزء عجيب من قصتى ؛ منذ 10 أيام ذهبت لحفل خيرى فى القرية ـ ولدهشتى وجدت الرجل الذى كان يسعى خلف السيد جورمان، وظننت أنه مصاب فى حادث لأنه كان يتحرك بمقعد ذى عجلات. سألت عنه وعلمت أنه رجل ثرى يقطن هنا يدعى فينابلز. بعد التحرى عن الأمر لمدة يومين كتبت للشرطة رسالة أطلعهم فيها على ما حدث. جاء المحقق الذى أرسلت له الرسالة إلى بورنماوث ـ وهو المحقق لوجون، وتشكك فى كلامى بأن هذا الرجل هو من رأيته قبل الحادث ؛ حيث قال لى إن فينابلز مشلول منذ سنوات، وإن الأمر قد اختلط على بسبب الضباب الكثيف.

توقف فجأة عن الحوار. قلبت القهوة الخفيفة أمامى وارتشفت بحذر. أضاف أوزبورن ثلاث ملاعق سكر لقهوته.

قلت له: "حسنًا هذا يحسم الأمر".

قال: "نعم... نعم...". كان صوته يدل على عدم الرضا، ثم مال للأمام مرة أخرى لاحظت رأسه الأصلع المستدير اللامع فى ضوء المصباح الكهربى وعيناه اللامع كان من شدة الغضب خلف نظارته...

قال لى: "أريد أن أشرح لك المزيد يا سيد ايستربروك، كطفل علمت أن صديق والدى وهو صيدلى قد استدعى للشهادة فى قضية "جان بول ماريجو". إنها قضية شهيرة، حيث إن هذا الشخص الفرنسى قد دس سم الزرنيج لزوجته الإنجليزية. وقد تعرف صديق والدى عليه فى المحكمة، وشهد أنه وقع باسم غير اسمه فى سجل من اشتروا السم. بالتالى تمت إدانته وأعدم. كل هذا كان له انطباع كبير على ـ كنت فى التاسعة من عمرى حينها ـ وهى سن يتأثر فيه المرء بمن حوله. وتمنيت بشدة أننى فى يوم من الأيام أشهد فى قضية شهيرة وأكون أداة تفيد العدالة وأشهد على قاتل! منذ ذلك الحين بدأت أدرس وأحفظ الوجوه. هذا سيحيرك يا سيد ايستربروك وقد تعتبره سخفاً، لكن لسنوات طويلة خمنت أن رجلاً ما قد يشترى منى السم ليدسه لزوجته ويقتلها".

قلت له: "ربما "مادلين سميث "الثانية مثلاً".

تنهد وقال: "بالضبط، لكن للأسف، لم يحدث هذا أبداً، ولم أساعد العدالة بمهارتى. وفقدت الأمل لكن قلت ربما تتاح لى فرصة أخرى لأكون شاهداً فى جريمة قتل!".

كان وجهه يلمع بفرحة طفولية.

قلت له بتعاطف: "كم هذا محبط لك".

قال بأسى وإحباط: "نعم، حقًا".

"لكنى رجل عنيد يا سيد ايستربروك، وبمرور الأيام شعرت أننى على حق. فمن رأيته كل فينابلز وليس أحداً غيره أو يشبهه". هممت بالكلام فرفع يده معترضاً لكى أصمت ثم قال: "أعلم أن الجو كان ملبداً بالضباب، وكنت على مسافة من القاتل ـ لكن الشرطة لم تنتبه أننى تفحصت فى وجه القاتل جيداً ؛ لقد ذكرت ملامحه وأنفه الكبير وتفاحة آدم وطريقة حركة رأسه وحجم رأسه وزاوية ميل رأسه على كتفيه. قلت لنفسى: هيا اعترف أنك كنت مخطئًا لكنى شعرت أكثر وأكثر أننى لست مخطئًا. قالت الشرطة إن هذا مستحيل، لكن ما هو المستحيل؟ هذا ما سألته لنفسى".

"بالتأكيد إعاقة من هذا النوع... "

أوقفنى بحركة عصبية من أصبعه السبابة.

"نعم، لكن من واقع خبراتى فى وزارة الصحة القومية ـ قد يدهشك مدى استعداد الناس لفعل أى شىء ـ والهروب بفعلتهم! لن إن أقول إن كل الأطباء ساذجون ـ لكنهم لا يدركون بسهولة حالات التظاهر بالمرض. بيد أن هناك طرقًا ـ يقدرها الصيدلى لا الطبيب. هناك أدوية محددة تبدو بلا ضرر وتسبب مظاهر وأعراض الحمى والطفح الجلدى بأنواعه وجفاف الحلق وزيادة إفرازات ـــ".

"لكن بالتأكيد ليس ضمور الأطراف".

"بالتأكيد، لكن من قال إن أطراف فينابلز ضامرة؟".

"طبيبه بالطبع على ما أظن؟".

"بالتأكيد، لكنى حاولت معرفة المزيد عن هذه النقطة. طبيب فينابلز فى لندن فى شارع "هارلى "المرموق ـ حقًا، وفحص حالته أطباء هنا عند وصوله لأول مرة. لكن الطبيب الآن تقاعد وسافر ليعيش فى الخارج. أما الرجل الحالى فى نفس العيادة فلم يكشف قط على فينابلز، وفينابلز يذهب مرة كل شهر لشارع هارلى".

نظرت إليه بفضول وقلت:

"لا توجد ثغرة هنا بالنسبة لى و ـــ".

قال أوزبورن: "أنت لا تعرف ما أعرفه أنا. يكفينا هنا مثال صغير متواضع: السيدة (هـ) تستفيد من أرباح التأمين لأكثر من عام، وتستثمر فى ثلاثة أماكن منفصلة ـ فى مكان منها تسمى نفسها السيدة (ك) وفى مكان آخر السيدة (س) واستولت على الأموال بثلاثة أضعاف".

"لا أفهمك".

أشار بأصبعه بسرعة: "لنفترض جدلاً فقط أن السيد (ف) كان لديه شهادة حقيقية تفيد إصابته بشلل أطفال فى ظروف فقره الماضية، وهناك من يشبهه ويقترح عليه اقتراحًا سخيًا ؛ بأن يذهب هذا الشخص، (ف)، للعيادة بنفس الاسم، ويوقع عليه الكشف الطبى ويكون تاريخه المرضى سليمًا وكذلك شهاداته. ثم يذهب فينابلز الفعلى لمنزل فى الريف ويتقاعد، ويذهب المريض الفعلى بنفس الاسم للطبيب وهكذا تنجح الحيلة! فينابلز لديه وثائق أكيدة بأنه يعانى من الشلل بسبب ضمور الأطراف، ويراه الناس بمقعده المتحرك... إلخ".

قلت معترضًا: "لكن لو كان الأمر كذلك، لعرف به الخدم، أو حتى خادمه الشخصى".

"ربما كانوا كلهم من أفراد عصابة واحدة ـ وخاصة خادمه الشخصى. لا يوجد ما هو أبسط من هذا، وربما كل الخدم من أفراد العصابة".

"لكن لماذا؟".

قال أوزبورن: "تلك مسألة أخرى، أليس كذلك؟ لن أخبرك بتخمينى ـ قد تسخر منه ـ لكن ربما كان كل هذا عبارة عن حجة تبطل قانونًا ارتكابه لأى جرائم. قد يتحرك فى أى مكان ولن يعرف أحد بذلك. هل رآه أحد فى بادينجتون، مستحيل! إنه مشلول لا حول له ولا قوة ويعيش فى الريف... إلخ". صمت ونظر إلى ساعته وقال: "أوشكت الحافلة على المجئ، يجب أن أتحرك بسرعة. أخذنى التفكير فى ذلك، كما ترى. لكن كل هذا بلا دليل يثبته كما ترى. فكرت فى التسلل لمنزله (لدى وقت فراغ كبير وأحيانًا أشتاق للعمل) وأتجسس عليه. قد تقول إن هذا سلوك مشين، وأنا متفق معك، لكنها حالة مهمة للوصول إلى الحقيقة ـ لكى يتم إدانة مجرم وتسليمه للعدالة... إن رأيت فينابلز مثلاً يسير بهدوء فى الحديقة سأحصل على الدليل! ثم فكرت لو لم يسدلوا الستائر مبكرًا

(ربما لاحظت أن الناس لا يفعلون ذلك إلا قبل حلول المساء بقليل ـ وبالتالى يعتادون على الظلام قبل حلوله بساعة) ـ لاختلست النظر لداخل المنزل، ربما وجدته يسير فى مكتبته، ولا يفطن أن هناك من يتجسس عليه، فلماذا يفعل أحد هذا، لأنه لا يشك فيه أحد على حد علمه!"

"لكن لماذا أنت متأكد هكذا من أن قاتل السيد جورمان هو فينابلز؟".

"أنا أعلم أنه هو!".

ثم نهض وقال:

"اقتربت الحافلة، سررت بمقابلتك يا سيد ايستربروك، لقد ارتحت من حمل كان على كاهلى عندما فسرت لك كل شىء، وما أفعله فى منزل برايرز كورت. بالتأكيد قد تعتبر كل ما قلته لك محض هراء".

قلت له: "كلا ألبتة، لكنك لم تخبرنى، ما ينوى عليه فينابلز".

بدا عليه الإحراج والغباء وقال:

"ستضحك على تخمينى، لكن الجميع يعلمون أنه ثرى، ولا أحد يعرف ما مصدر ثروته. سأخبرك

بتخمين. كما تعلم، فهو يخطط لكل شىء، ولديه عصابة تطيع أوامره، وكل ما سأقوله قد يبدو سخيفًا لك لكن أنا ـــ".

وقفت الحافلة وركض أوزبورن ليلحق بها.

سرت باقى الطريق وأنا مستغرق فى التفكير.... يا لها من قصة مثيرة من نتاج خيال أوزبورن، لكنى أعترف أنها مقبولة، وقد يكون لها صدى من الحقيقة.

الفصل العشرون

رواية مارك ايستربروك

1

باتصالى بجنجر فى صباح اليوم التالى، أخبرتها عن اعتزامى الانتقال إلى بورنماوث فى اليوم التالى:

"وجدت فندقًا صغيرًا لطيف وهادئ يدعى (لا أعلم لماذا) "حديقة الغزلان "، والمكان به مخارج جانبية غير ملحوظة، وقد أستغل ذلك لأتسلل وأذهب إلى لندن خلسة لأراك".

"لا داعى لذلك على ما أظن، لكنى سأكون سعيدة إن أتيت، فأنا أشعر بملل قاتل ؛ لا تتخيل السأم الذى أعانيه! إن لم تتمكن من الحضور إلى هنا قد أتسلل وأقابلك فى مكان آخر".

فجأة انتبهت لشىء خطير.

"جنجر!... صوتك... لقد تغير قليلاً... "

"كلا! أنا بخير لا داعى للقلق".

"لكن صوتك".

"غالبًا لدى احتقان فى الحنجرة، لا بأس".

"جنجر!".

"لا داعى للقلق يا مارك، هذا شىء عادى، وأنا أتوقع أن أصاب بالبرد أو الأنفلونزا".

"أنفلونزا، لا تتهربى ولا تراوغى عن النقطة المهمة، هل أنت بخير أم لا".

"لا داعى للخوف، أنا بخير".

"أخبرينى بما تشعرين به بالضبط، هل لديك أعراض وبوادر أنفلونزا!".

"حسنًا... ربما... أشعر ببعض أعراضها...".

"ودرجة الحرارة".

"حسنًا، ربما ارتفعت قليلاً".

جلست وتسلل إلى شعور بالخوف والبرودة الشديدة. كنت خائفًا للغاية، ومهما قالت جنجر ومهما رفضت الاعتراف بالأمر، لكنها كانت خائفة أيضًا.

قالت: "لا تفزع يا مارك ـ لا داعى للفزع!".

"ربما، لكن اتخذى كل الاحتياطات واتصلى بالطبيب ليراك على الفور".

"حسنًا... لكن قد يظن أنى أشكو من لا شىء".

"لا تعارضينى، وافعلى ذلك! وعندما يأتى اتصلى بى".

ثم وضعت السماعة وجلست أحك فى خيال الهاتف الأسود، وقلت يجب ألا أستسلم للذعر والفزع... الأنفلونزا تهاجم الجميع فى هذا الوقت من العام... سيطمئنها الطبيب... ربما برد بسيط...

تخيلت سيبل فى زى ألوان الطاووس المرصع برموز شيطانية شريرة وسمعت صوت ثيرزا بلهجة آمرة... وعلى الأرض المليئة برسوم الطبشور تجلس بيلا متمتمة بتعاويذ الشر، وتذبح الديك الذى يحاول التملص منها...

هراء! كل هذا هراء!... بالطبع كله هراء وخرافات...

لكن لم يكن من السهل إغفال موضوع الصندوق، فهو ليس من الخرافات البشرية بل من الاحتمالات العلمية... لكن من المستحيل أن...

جاءت السيدة كالثروب ووجدتنى أحدق جالسًا فى الهاتف وقالت على الفور:

"ماذا حدث".

"جنجر ليست بخير صحيًا". أردت منها أن تقول

إن هذا هراء، لكنها لم تطمئنى كما أردت، بل قالت:

"يا للأسف، هذه علامة سيئة".

قلت لها باستماتة: "مستحيل للحظة أن أصدق أن باستطاعتهن تنفيذ ما يدعونه!".

"أليس كذلك".

"أنت لا تصدقينهن، أليس كذلك".

"يا عزيزى مارك، أنت وجنجر اعترفتما بالفعل باحتمال حدوث شىء كهذا وإلا لما

أقدمتما على تنفيذ الخطة".

"اعتقادنا فى ذلك يزيد الأمر سوءاً ـ ويجعل الخطر قائماً".

"لم تتماد إلى الاعتقاد اليقينى ـ بل اعترفت بالأدلة أن هناك مجازفة ""أى أدلة".

"الأدلة هى مرض جنجر".

شعرت أننى أكرهها فى هذه اللحظة وارتفع صوتى فى غضب: "لماذا أنت متشائمة هكذا؟ إنه برد بسيط فقط ـ أو شىء من هذا القبيل. لماذا تصرين على توقع أسوأ الاحتمالات".

"لأن الأسوأ سنضطر لمواجهته ـ ولن ندفن رؤوسنا فى الرمال كالنعام حتى فوات الأوان".

"أتظنين هذا الهراء السخيف من الطقوس البدائية سينجح؟ كل هذه الطقوس المزيفة والتعاويذ وجلسات تحضير الأرواح والعلامات وذبح القرابين، كلها مجرد حيل وأكاذيب!".

قالت: "الأمر نجح قبل ذلك، وهذا ما يجب أن نواجهه، ومعظمه هراء، وأنا أعلم ذلك، وقد فعلنه لخلق الجو والإيحاء المطلوبين، لكن الشىء الفعلى المؤثر مستتر وسط كل هذه الحيل ـ وهو الخطر الحقيقى الذى يؤدى إلى وقوع الجرائم".

"أتظنين أنه شعاع ونشاط إشعاعى عن بعد".

"شىء من هذا القبيل، فالعلماء يكتشفون الكثير هذه الأيام ـ ويكتشفون أشياء مرعبة، ويمكن استخدام تقنيات العلوم الجديدة بواسطة عديمى الأخلاق لتحقيق أغراض دنيئة. كان والد ثيرزا عالم فيزياء و ـــ".

"ماذا؟ ماذا! الصندوق اللعين! هل يمكن للشرطة أن تفحصه ـــ".

"لن يستخرج رجال الشرطة إذن بالتفتيش ومصادرة الممتلكات دون أدلة واضحة".

"هل أذهب إلى هناك وأدمره".

هزت رأسها بالنفى وقالت: "لقد حدثت المشكلة ـ إن كانت هناك مشكلة من الأساس ـ فى تلك الليلة كما ذكرت أنت لى".

ملت برأسى بين يدىّ وصحت فى ضجر: "يا ليتنى لم أقم بهذه المغامرة الملعونة".

قالت بحزم: "كان دافعك شريفاً وما حدث قد حدث، وستعرف المزيد بعد فحص الطبيب لجنجر واتصالها بك، وغالباً ستتصل برودا...".

فهمت مقصدها الذى لمحت إليه وقلت:

"إذن سأعود إلى هناك".

وفجأة قالت: "أعلم أننى أحيانًا أقول أمورًا غبية. نحن نسمح لأنفسنا أن تخدعنا الحيل الدنيئة! لا يمكننى مقاومة التفكير فى أننا نفكر فيما يريدون منا أن نفكر فيه".

ربما كانت على حق، لكنى لا أرى طريقة تفكير أخرى. اتصلت بى جنجر بعد ساعتين.

"زارنى الطبيب ووقع الكشف، وبدا حائرًا وقال ربما أننى مصابة بالأنفلونزا مثل معظم الناس، وأمرنى أن ألزم فراشى، وسيرسل لى بعض الأدوية. حرارتى مرتفعة

الآن، لكن هذا بسبب الأنفلونزا، أليس كذلك".

لاحظت نبرة الأسى فى سؤالها وصوتها الأجش يخترق تظاهرها بالشجاعة.

قلت لها وأنا حزين: "ستكونين بخير،

أتسمعيننى، ستكونين بخير، هل تشعرين أنك بهذا

السوء".

"حسنًا ـ الحمى والألم وقدمى وجلدى تؤلمنى، وأكره أن يلمسنى أى شىء... كما أن درجة حرارتى

مرتفعة".

"إنها أعراض الحمى فقط يا عزيزتى، أنصتى لى جيدًا سآتى لك الآن! سأرحل متوجهًا إليك ولا داعى للاعتراض".

"حسنًا، أنا سعيدة لأنك ستأتى يا مارك ـ فأنا لست شجاعة بما يكفى كما كنت أظن...".

2

اتصلت بالمفتش لوجون:

"الآنسة كوريجان مريضة".

"ماذا".

"سمعتنى، إنها مريضة، واتصلت بالطبيب، وقال إنها ربما مصابة بالأنفلونزا، وربما لا، ولا أعلم ما الذى يمكنك أن تفعله. الفكرة الوحيدة التى خطرت على بالى هى اللجوء لمتخصص".

"أى نوع من المتخصصين".

"طبيب نفسى أو محلل نفسى، أى شخص من هذا النوع الذى يعلم المزيد عن الإيحاء والتنويم المغناطيسى وغسيل المخ وكل هذه الأمور، أليسوا يعلمون الكثير عن هذه الأمور".

"بالطبع، نعم، وهناك رجلان متخصصان فى هذا فى وزارة الداخلية، وأعتقد أنك محق تماماً، ربما أنفلونزا ـ أو نوع من المرض النفسى المعروف عنه القليل. ربما يا سيد ايستربروك هذا ما كنا نتمناه لمواصلة

التحقيق!".

أغلقت السماعة بعنف. هل سنتعلم شيئًا جديداً عن الأسلحة النفسية؟ هذا كل ما يهم لوجون ـ إننى مهتم فقط بجنجر الشجاعة، لكنها الآن خائفة. كلانا لم يصدق هذا الهراء، بل كانت مجرد لعبة عسكر وحرامية. لكنها الآن ليست لعبة.

الجواد الأشهب يثبت وجوده كحقيقة.

أسقطت رأسى بين يدى وصحت فى ضجر.

الفصل الحادى والعشرون

رواية مارك ايستربروك

1

أشك أننى سأنسى الأيام القليلة التالية. شعرت أن توالى وتتابع الأحداث يتم بلا شكل واضح، وأن الأمور قد تداخلت بشكل غريب يدعو للحيرة والدهشة. انتقلت جنجر من المنزل، ونزلت بمستشفى خاص وكان مسموحاً لى بزيارتها فى مواعيد الزيارة فقط.

أصر طبيبها على المكابرة ولم يفهم سر القلق والجلبة، وكان تشخيصه واضحاً ـ التهاب رئوى فى الشعب الهوائية، نتيجة الإصابة الأنفلونزا، وله أعراض معقدة. غير عادية وقال: "هذا يحدث فى كل مرة، لا توجد حالتان متشابهتان، وبعض الناس لا تستجيب للمضادات الحيوية".

بالطبع، كل ما قاله صحيح. فقد كانت جنجر تعانى من التهاب رئوى فى الشعب الهوائية، ولا يوجد شىء غامض فى مرضها ـ سوى أن حالتها كانت سيئة للغاية.

تحاورت فى زيارة واحدة مع طبيب نفسى فى وزارة الداخلية، وكان رجلاً غريباً متحذلقاً، ويرتفع وينخفض فى سيره على أطراف أصابعه وعيناه تلمعان من وراء نظارة سميكة جداً.

سألنى أسئلة لا حصر لها ونصفها بلا أهمية فى رأيى، لكن ربما كان يهدف لأمور لم أعرفها، لأنه كان يؤمن لى بحكمة وعقل العلماء كلما أجبته عن أى سؤال. رفض تماماً أن يلزم نفسه بعلاج الحالة، وكان حكيماً فى ذلك على ما أظن. كان يتلفظ كل فترة بعبارات غير مفهومة فى صميم تخصصه المهنى. حاول أن يجرب أنواعاً مختلفة من التنويم المغناطيسى لجنجر، وكلها طرق يوافق عليها معظم علماء العالم، لكن لم يحدث أى تأثير ولم يعد لديه ما يقوله لى.

تجنبت كل معارفى وأصدقائى، لكن وحدتى فى هذه الظروف كانت غير محتملة.

فى النهاية، وفى خضم اليأس، اتصلت بـ "بوبى "فى محل الزهور ودعوتها على العشاء ووافقت فى سعادة.

اصطحبتها إلى مطعم الفانتازيا، وظلت بوبى تثرثر فى سعادة، ووجدت متعة وراحة

فى صحبتها، لكنى لم أصحبها من أجل الحصول على الراحة فى صحبتها فقط، فبدأت، بعد أن فرغنا من العشاء اللذيذ من الطعام والشراب الفاخر، أسعى لطرح تساؤلاتى لها بحرص، فربما تعرف بوبى أى شىء بدون أن تدرى. سألتها هل تذكر جنجر، وقالت بالطبع إنها تذكرها وفتحت عينيها الزرقاوين الكبيرتين وسألتنى عن أحوالها.

قلت: "إنها مريضة جداً".

"يا للأسى "، بدا عليها القلق لكن ليس للغاية.

قلت: "لقد تورطت جنجر فى مسألة الجواد الأشهب وخسرت أموالاً كثيرة عندما سألتك عنه".

قالت واتسعت حدقتها من الدهشة:"ياه، هل كان أنت؟!".

للحظة لم أفهم ماذا تعنى، ثم فهمت فجأة أن بوبى كانت تقصد أننى "الرجل "الذى له زوجة قعيدة وبالتالى لن يتمكن من الزواج من جنجر. لم تفزع من ذكر الجواد الأشهب لانشغالها بمدى روعة وإثارة قصة حبنا المزعومة.

قالت بحماس وإثارة: "هل أفلح الأمر؟".

"كلا، بل ساءت الأمور، وانقلبت الأمور رأساً على عقب".

قالت ولم تفهم: "عقب؟ ماذا تعنى؟".

فهمت أن مستوى ذكائها محدود ويجب أن أبسط لغتى:

"أعنى أن الأمر انقلب بالعكس على جنجر، وسقطت مريضة دون سبب واضح، ألم تسمعى عن حالات مشابهة لهذا؟".

قالت إنها لم تسمع عن حالة كهذه أبداً.

قلت لها: "بالطبع تعلمين ما يحدث فى الجواد الأشهب فى قرية ماتش ديبنج، أليس كذلك؟".

"لا أعرف مكانه، ربما فى مكان ما فى الريف ولم أتمكن من أن أفهم من جنجر ماذا يفعلونه بالضبط".

انتظرت بحرص حتى تثرثر لى بالمزيد.

قالت بشكل مبهم: "ربما يستخدمون الإشعاع، أليس كذلك؟ شىء من هذا القبيل، إشعاع من الفضاء الخارجى، مثل الروس!".

خمنت أن بوبى الآن تعتمد على خيالها المحدود.

قلت لها: "نعم، شىء من هذا القبيل، لكن الأمر قد يكون خطيراً، وجنجر سقطت مريضة بعده".

"وكان يجب أن تمرض زوجتك وتموت، أليس كذلك؟".

رضيت بالأدوار التى خلعتها علينا وقلت لها: "نعم لكن الموضوع ساء ـ وانقلب السحر علينا".

بذلت بوبى جهداً ذهنياً كبيراً لتفهم وقالت: "أتعنى ـ أن ما حدث يشبه وضع أسلاك الكهرباء بطريقة خاطئة فتحدث صدمة كهربية؟".

"بالضبط، شىء مثل ذلك، هل علمت عن حادث مشابه من قبل؟".

"حسنًا ليس بهذه الطريقة ـــ".

"بأى طريقة إذن؟".

"أعتقد أن لم يدفع أحد النقود المتفق عليها ـ لاحقًا، وكان هناك رجل أعرفه لم يتمكن من السداد "، بدا صوتها الآن ممتلئًا بالرهبة وقالت: "وقتلوه فى المترو، وجعلوه يسقط أمام قطار المترو".

"ربما كان حادثًا".

قالت بوبى بفزع وصدمة: "كلا، بل كان بسببهم!".

صببت المزيد من العصير فى كأسها، وشعرت أنها ستساعدنى إذا استطعت استخلاص الحقائق غير المترابطة منها، والتى تلقيها كل فترة فى الحوار بسبب مخها المشوش الذى يستجمع بعض المعلومات المتناثرة عن الأمر. ربما سمعت أموراً مهمة ولم تستوعب إلا نصفها ثم بعثرتها فى مخها ولن يهتم أحد لأنها تافهة وفارغة العقل.

إن ما كاد يدفعنى للجنون هو أننى لم أعرف ما نوع الأسئلة التى أوجهها لها لأحفزها على الحديث. إن قلت شيئًا خطأ ستفزع وتغلق فمها كالمحار وتتظاهر بالجهل.

قلت لها: "زوجتى مازالت قعيدة ومعاقة لكنها لم تمرض".

قالت وهى متعاطفة معى وترتشف العصير: "يا لسوء الحظ "

"ماذا أفعل بعد ذلك؟".

لم يبد عليها أنها تعرف.

قلت لها: "بالطبع، جنجر هى التى مرضت ـ ولم أقم أنا بأى ترتيبات، هل يوجد شخص ما ألجأ إليه؟".

قالت بشك: "هناك مكان فى برمنجهام".

"أعلم ذلك، ألا تعرفين شخصًا آخر؟".

"قد تعرف "إيلين براندون "شيئًا عن هذا ـ لكن لا أعتقد ذلك "حينما أتت على ذكر شخصية "إيلين براندون "فجأة شعرت بالفزع وسألتها عنها.

قالت: "إنها شخصية بشعة وكئيبة وطريقة تصفيف شعرها قديمة، ولا ترتدى الكعب العالى أبدًا "وأضافت قائلة: "كنت معها فى المدرسة ـ كانت كئيبة جدًا، وماهرة للغاية فى الجغرافيا".

"لكن ما دخل هذا بالجواد الأشهب؟".

"لا شىء، لكنها جاءتها فكرة ثم استقالت من عملها".

قلت لها بحيرة: "أى عمل؟".

"عملها مع شركة س. ر. س".

"ما هى س. ر. س؟".

"لا أعلم بالضبط، لكنها شركة استطلاع رأى ومعلومات عن المستهلكين وهى شركة صغيرة".

"وكانت تعمل لديهم، ماذا كانت طبيعة عملها؟".

"تذهب من منزل لآخر وتسأل أسئلة عن المنتجات ـ كالبوتاجاز ومعجون الأسنان، والأسفنج، عمل ممل وكئيب، فمن سيهتم بهذا؟".

شعرت بالإثارة: "ربما شركة س. ر. س".

فهمت أنها الشركة التى كانت تعمل بها السيدة التى اعترفت للسيد جورمان بخطاياها، وباحت له بأسرارها قبل وفاتها ليلة مقتله ـ وبالطبع جاء شخص ما من هذا النوع لمنزل جنجر...

هذه حلقة وصل مهمة إلى حدٍ ما.

"لماذا تركت عملها؟ هل شعرت بالملل؟".

"لا أظن، فمرتبها كان مرتفعًا، لكنها توصلت لفكرة ما عن الشركة ـ لقد عرفت أنهم يعملون فى أمور مريبة، وربما هم متورطون مع ساكنى الجواد الأشهب على ما أظن، أليس كذلك؟ لا أعرف، ربما شىء من هذا القبيل، وتعمل حاليًا فى مقهى فى شارع توتنهام كورت".

"أعطنى عنوانها".

"لكنها ليست من نوع الفتيات الذى تحبه".

قلت لها بقسوة: "لا أريد صداقتها، بل أريد معلومات عن إحصائيات المستهلكين، وأريد شراء أسهم فى الشركة".

قالت وهى راضية عن تفسيرى: "نعم، فهمت".

لم أتمكن من معرفة المزيد منها، وأوصلتها لمنزلها، ثم شكرتها على تلك الأمسية الرائعة.

2

حاولت الاتصال بالمحقق لوجون فى صباح اليوم التالى ـ لكنى فشلت فى ذلك، غير أننى توصلت بصعوبة لجيم كوريجان.

"ما الذى توصلت إليه مع الطبيب النفسى الأحمق يا كوريجان بشأن جنجر؟".

"قال لى متشدقًا بكلمات صعبة عدة تفاسير، لكنى أظنه يا مارك حائرًا جدًا ولا يعرف تفسيرًا لما حدث. كما تعلم، من العادى أن يصاب الناس بالتهاب رئوى، ولا يوجد شىء غامض فى هذا".

قلت له: "نعم، لكن الناس فى القائمة ممن نعرفهم ماتوا بأمراض كالالتهاب الرئوى والتهاب الأمعاء والشلل الرباعى وورم فى المخ والصرع ونشاط زائد فى الغدة الدرقية، وكلها أمراض شائعة".

"أعلم ما تشعر به... لكن ماذا نفعل؟".

"لقد ساءت حالتها، أليس كذلك؟".

"حسنًا ـ نعم...".

"إذن يجب أن نفعل شيئًا".

"مثل ماذا؟".

"لدى فكرة، نذهب لثيرزا جراى فى قرية ماتش ديبنج، ونجبرهم بالقوة لكى تعكس مفعول سحرها ونخيفها ونروعها...".

"حسنًا قد تنجح".

"أو اذهب إلى فينابلز و ـــ".

قال بحدة: "لكنه خارج دائرة الشبهات، ما علاقته بهذا الأمر؟ إنه معاق".

"أتساءل هل يمكن أن أزيح الغطاء من على قدمه لأعلم هل هى ضامرة أم لا؟!".

"هل فحصت كل الزوايا...؟".

"انتظر، هناك الصيدلى القصير أوزبورن، قابلته بالصدفة فى قرية ماتش ديبنج، وسأكرر لك ما قاله لى".

ولخصت له نظرية أوزبورن عن التظاهر بالشلل.

قال كوريجان: "إنه رجل مخرف، ويظن أنه على صواب دومًا".

"لكن هناك احتمالاً أنه يقول الصواب؟ محتمل، أليس كذلك؟".

قال ببطء بعد برهة:"ربما، أعترف باحتمال حدوث ذلك ـ ولكن بذلك عليه أن يعرف عددًا كبيرًا من الناس ويدفع لهم رشاوى ضخمة حتى يصمتوا".

"لن يضره ذلك ـ فهو ثرى ثراء فاحشًا، أليس كذلك؟ هل عرف لوجون مصدر أمواله؟".

"كلا، ليس بالضبط... سأعترف لك بهذا، هناك خطأ ما متعلق به، لديه ماضٍ من نوع ما، لأن الأموال كلها متعلقة بمشروعات كثيرة ومن الصعب ملاحقة مصدرها وسيستغرق هذا سنوات. كان يجب أن تقوم الشرطة بذلك ـ فهو نصاب غطى كل آثار جرائمه جيدًا بشبكة معقدة للغاية. وأعتقد أن الضرائب تقتفى آثار ثروته منذ فترة من الزمن، لكنه ماهر وحاذق. هل تراه كالرأس المدبر للأمر كله؟".

"نعم، وهو المخطط لكل شىء".

"ربما، فهو يبدو كالعقل المدبر وأوافق على ذلك، لكنه لن يفعل شيئًا فظيعًا كأن يقتل السيد جورمان بنفسه!".

"ربما فعل ذلك تحت ضغط ظروف مُلحة، ربما كان يجب القضاء على السيد جورمان قبل أن ينقل المعلومات التى عرفها من السيدة التى كانت تحتضر عن أنشطة الجواد الأشهب، و...".

ثم لذت بالصمت فجأة.

"هل مازلت على الخط؟".

"نعم كنت أفكر... جاءتنى فكرة".

"ما هى؟".

"لم تتبلور بعد... ربما هناك طريقة لتحقيق الأمان ولم تكتمل الفكرة بعد... على أية حال يجب أن أرحل الآن فلدى موعد فى المقهى".

"لم أعرف أنك تحب الذهاب لمقاهى تشيلسى!".

"لست كذلك، لكنى سأذهب لمقهى فى توتنهام كورت".

أغلقت السماعة ونظرت إلى الساعة.

عندما اقتربت من الباب دق جرس الهاتف.

ترددت قليلاً، وغالباً هذا جيم كوريجان مرة أخرى يريد معرفة فكرتى.

لم أرغب فى أن أخبره بها.

هممت بالذهاب نحو الباب وأتجاهل الهاتف الذى يرن باستمرار. قد تكون المستشفى ليطلعونى على حال جنجر.

لم أرد المجازفة، وسرت بخطى واسعة ونفاد صبر نحو الهاتف ورفعت السماعة بسرعة:

"آلو!".

"أهذا أنت يا مارك؟".

"نعم، من معى؟".

قال الصوت بعتاب: "إنه أنا يا مارك، اسمع أريد أن أقول لك شيئًا مهمًا".

عرفت أنه صوت السيدة أوليفر فقلت لها: "أهذا أنتِ؟ أنا مستعجل ولدى موعد وسأتصل بك لاحقًا".

قالت بحزم: "لن ينفع هذا، والأمر مهم جداً أنصت لى الآن!".

"يجب أن تسرعى لأن لدى موعداً".

قالت: "لا يهم، يمكنك أن تتأخر عن أى موعد كما يفعل كل الناس، وسيحترمونك ويقدرونك".

"لكن حقًا أنا مستعجل و ـــ "

"أنصت يا مارك الأمر مهم وخطير، أنا متأكدة ـــ".

كظمت غيظى وقلت لها وأنا أنظر للساعة:

"ماذا هناك؟".

""ميلى قريبتى أصابها التهاب اللوزتين وذهبت لأختها فى الريف و ـــ".

ضغطت على أسنانى من الغيظ وقلت لها: "أنا آسف لكن حقًا ـــ".

"أنصت لى، لم أبدأ الأمر الخطير بعد، أين كنت؟ نعم، ذهبت هى إلى الريف واتصلت بالوكالة التى أتعامل معها، وتسمى "ريجنسى "ـــ يا له من اسم سخيف يصلح للسينما و ـــ".

"يجب أن أرحل الآن و ـــ".

"وأخبرتهم أن يرسلوا أى شخص، وقالوا هذا من الصعب الآن ـ وهذا ما يقولونه كل مرة فى الحقيقة ـ وسيبذلون كل ما فى وسعهم ـــ".

لم أجدها من قبل فى حياتى بهذا الإزعاج والسخف.

"وهكذا جاءت امرأة هذا الصباح ولن تخمن من هى؟".

"لا يمكننى التخيل الآن ويجب أن أنصرف و ـــ".

"إنها امرأة تدعى "إديث بينز "، اسم مضحك، ألا تعرفها؟".

"كلا لم أسمع عنها".

"لكنك تعرفها ورأيتها من قبل منذ سنوات مع أمك بالكفالة السيدة هيسكيث ـ دوبوا".

"رأيتها معها حقًا!".

"نعم ورأتك هى يوم حضورك لاستلام اللوحات الفنية".

"حسنًا كان ذلك رائعًا وحظك ممتاز، وهى سيدة رائعة ومحل ثقة ويعتمد عليها، وقالت لى أمى بالكفالة هذا، لكن الآن يجب أن أرحل و ـــ".

"انتظر، ألا يمكنك الانتظار؟ لم أبلغك بالنقطة المهمة بعد. لقد تحدثت عن السيدة الراحلة بإسهاب شديد وعن مرضها الأخير وما إلى ذلك؛ لأنها كانت مهتمة بالوفيات والأمراض، وقالت شيئًا مهمًا لك".

"ما هو؟".

"جذب انتباهى ما قالته: "يا للمسكينة، لقد عانت بشدة من ورم بالمخ، وكانت قبلها بصحة ممتازة، كان من السيئ رؤيتها فى المستشفى، وشعرها يقع بكميات كبيرة، وظلت تبكى على ذلك لأسبوعين وتنعى فقدان شعرها الأبيض الثقيل الجميل وهو يسقط بكميات كبيرة على الوسادة". عندما قالت ذلك فكرت فى مارى دولافونتين صديقتى، فقد حدث لها نفس الشىء، وقلت أنت لى هذا عن فتاة مقهى تشيلسى التى

تشاجرت مع فتاة أخرى. الشعر لا يخرج من الرأس بهذه السهولة يا مارك، جرب وانزع شعرك من جذوره! لن تنجح! جرب! إنه شيء غير طبيعي يا مارك. إنه مرض جديد ـ وهذا يعني الكثير في قضيتك!".

أمسكت السماعة ودارت في رأسي آلاف الأفكار وقطع من المعلومات المتناثرة واجتمعت معًا. مرض كلاب رودا في حديقتها ـ مقال في الجريدة الطبية في نيويورك... نعم بالطبع! وجدت الحل!

فجأة انتبهت إلى أن السيدة أوليفر مازالت تتحدث في سعادة وقلت لها: "فليباركك الله، أنت رائعة!".

أغلقت السماعة فجأة بعنف ثم رفعتها واتصلت ولحسن الحظ عثرت على لوجون مباشرة هذه المرة.

"أنصت لي جيداً هل شعرت جنجر بتساقط بكميات كبيرة من جذوره؟".

"نعم، من أثر الحمى على ما أظن".

"كلا، مستحيل، هراء! ما تعاني منه جنجر، وباقي الناس الذين وردت أسماؤهم في القائمة، هو التسمم بمادة الثاليوم، يا إلهي! أتمنى أن يسعفنا الوقت لإنقاذها...".

الفصل الثانى والعشرون

رواية مارك ايستربروك

1

"هل جئنا فى الوقت المناسب؟ هل ستعيش؟".

ذرعت المكان جيئة وذهاباً ولم أتمكن من الجلوس بلا حراك.

جلس لوجون يراقبنى وكان يتحلى بالصبر والهدوء وقال: "تأكد من أنه يتم اتخاذ اللازم بجميع الإمكانيات المتاحة الآن".

نفس الإجابة القديمة، ولم تهدئنى أبداً.

"هل يعرفون علاج التسمم بمادة الثاليوم؟".

"إنها حالات نادرة، لكن سنجرب كل ما هو متاح، وإن سألتنى رأيى، أعتقد أنها ستعيش".

نظرت نحوه، وأنا لا أصدق أنه يصدق ويعى ما يقول؟ هل يحاول تهدئتى؟.

"على أية، لقد تأكدوا من تشخيصك للمرض بأنه تسمم بمادة الثاليوم".

"نعم تحققوا من ذلك".

"هذه هى الحقيقة البسيطة وراء سر الجواد الأشهب: "التسمم "لا سحر ولا تنويم مغناطيسى ولا أشعة للموت عن بعد. مجرد سم للضحايا! يا للعنة! كانت ثيرزا الملعونة تسخر منى، وتقوم بعرضها لتخدعنى على ما أظن".

"عمن تتحدث؟".

"ثيرزا جراى، عندما ذهبت لتناول الشاى فى منزل الجواد الأشهب تحدثت معى عن عائلة بورجيا الشهيرة فى إيطاليا. كانوا يسممون الناس بسم ليس له أثر. وفى النهاية اتضح أنه سم الزرنيخ العادى الذي كان يوضع فى القفاز وأى ملابس لقتل الضحية. وقالت لى إن الأمر بسيط للغاية. كله هراء! جلسة تحضير الأرواح وذبح القرابين من الديوك وسحر الفودو والعلامات الشيطانية والمجمرة وغصن الزيتون المقلوب ـ كل

هذا خرافات تافهة حتى الصندوق الآلى كان جزءاً من الحيل لخداع المتحضرين المثقفين، نحن لا نؤمن بالخرافات والأرواح الآن، لكننا ساذجون، وقد نصدق أمر الإشعاع والموجات والظواهر النفسية. من المؤكد أن هذا الصندوق عبارة عن آلة كهربية تظهر الألوان كجزء من العرض، وتصدر أصواتًا لإحداث تأثير ما على الزبائن. نحن نخاف دومًا من خطر الإشعاع والمادة المشعة (سترنيتوم 90) وما شابه. كل ما يفعله أهل الجواد الأشهب مجرد هراء! الجواد الأشهب كان جوادًا مزيفًا أعجف لا أكثر ولا أقل، هدفه أن ينصب التركيز عليه حتى لا نرى ما يحدث فى الاتجاه الآخر، لتحويل الانتباه لأمور أخرى. والأمر كله يمثل لهم عنصر أمان، ولتتمكن ثيرزا من التفاخر بصوت عالٍ عن قواها السحرية وقدراتها. لن يحاكمها أحد عن محاولة القتل، يمكن فحص الصندوق وتجده الشرطة غير قادر على إحداث أى ضرر. أى محكمة ستقول إن الأمر مستحيل وهراء! وبالطبع من المؤكد أنه هراء الآن!".

قال لوجون: "هل تظن أن الثلاثة مشتركون معًا فى الجريمة؟ "كلا، بيلا تؤمن بالسحر حقًا، وتستمتع بقواها وتصدقها، وكذلك سيبل. لديها حقًا مقدرة حقيقية وموهبة كوسيطة روحانية، وتذهب فى غيبوبة ولا تعى ما يحدث، وتصدق كل ما تقوله ثيرزا".

"وثيرزا هى قائدتهم؟".

قلت ببطء: "نعم، فى منزل الجواد الأشهب فقط، لكنها ليست العقل المدبر للعرض. بل إن العقل المدبر يعمل من وراء الستار، يخطط وينظم. كل العناصر متشابكة بشكل رائع كما تعلم، وكل واحد له دوره ولا يرتبط بالآخر. حيث يتولى برادلى الجانب المادى والقانونى، ولا يعلم ما يحدث بعد ذلك، وبالطبع يحصل على راتب مجزٍ، وكذلك ثيرزا جراى".

قال لوجون بجفاء: "كل شىء مرتب بطريقة ترضيك".

"كلا، لم أجمع كل الخيوط بعد، لكننا نعرف الحقيقة الأساسية المهمة، والتى ظلت هكذا عبر القرون الماضية بكل بساطتها، مجرد الموت بالسم!".

"ما الذى جعلك تفكر فى الثاليوم؟".

أمور جاءت كلها فجأة إلى رأسى؛ فى البداية رأيت فتاة تتشاجر فى تشيلسى وجذبت فتاة أخرى شعرها من جذوره وقالت: "لم يكن الأمر مؤلمًا حقًا "ولم يكن هذا من باب التظاهر بالشجاعة، بل إنها قد قالت الحقيقة؛ فهى لم تتألم من ذلك حقًا.

فى مقال قرأته عن التسمم بالثاليوم عندما كنت فى أمريكا، مات عدد كبير من عمال أحد المصانع واحدًا تلو الآخر، جراء أمراض متنوعة مثل نشاط زائد فى الغدة الدرقية والفالج والتهاب الأعصاب والشلل الرباعى، والصرع والتهاب الأمعاء وغيرها من

الأمراض. ثم اتضح أن امرأة سممت سبعة رجال وبينهم حالات التهاب وورم فى المخ والتهاب رئوى فى فصى الرئة. كانت الأعراض مختلفة جداً، وتبدأ بإسهال أو بآلام فى الأطراف، حتى التهاب الأعصاب المركب أو الحمى الروماتزمية أو الشلل ـ وفى إحدى الحالات تم تركيب رئة صناعية لمريض لكى يتمكن من التنفس، وأحياناً يتغير لون صبغة الجلد".

"تتحدث كقاموس طبى".

"بالطبع، لقد درست الأمر طبياً، ولكن ثمة عرضاً واحداً يحدث دائماً بعد التسمم إن عاجلاً أم آجلاً؛ ألا وهو تساقط الشعر. وغالباً ما كان يستخدم عنصر الثاليوم لإزالة الشعر من الأطفال الذين يعانون من الديدان الحلقية. ثم اكتشف العلماء خطورته، وصارت جرعاته مخففة حسب وزن المريض. ويستخدم الثاليوم اليوم للقضاء على الفئران، فهو بلا رائحة وقابل للذوبان وسهل الشراء، فيما عدا أنه يجب التأكد من أنه لن يشترى لدس السم للبشر".

أومأ لوجون وقال:

"بالضبط، وبالتالى أصر أهل الجواد الأشهب على ابتعاد القاتل عن مكان الضحية. حتى لا يتم إثارة شبهة التسمم، ولماذا تثار؟ لا يوجد مشتبه فيه اقترب من الطعام والشراب، ولم يقم المستفيد من الوفاة بشراء أى سم وهذا سر نجاح الخطة. من يقوم بالجريمة شخص لا علاقة له بالضحية، ولا يظهر سوى مرة واحدة".

ثم صمت لبرهة وقال:

"هل لديك فكرة عن ذلك؟".

"فكرة واحدة. هناك عامل مشترك: فى منزل كل ضحية كانت تأتى امرأة لا تبدو مؤذية، وتسأل

عن المنتجات التى يستخدمها كجزء من بحث عن الاستهلاك".

"إذن هل تظن أن تلك المرأة تدس السم بهذه الطريقة فى داخل العينات من المنتجات أو ما يشبه ذلك؟".

قلت له ببطء: "الأمر ليس بهذه البساطة؛ فقد عرفت أن السيدة غير مؤذية فعلاً، لكنها توفر معلومات مهمة للجانى. هناك امرأة ستخبرنى بالمزيد تدعى "إيلين براندون "تعمل فى مقهى فى شارع توتنهام كورت".

كانت إيلين براندون بنفس الشكل الذى وصفته بوبى بالضبط ـ أى من وجهة نظر بوبى. كان شعرها كعش عصافير مبعثر ملفوف فى خصلات حول رأسها ولا تضع من المساحيق سوى القليل وقدمها بها حذاء عادى بلا كعب ولا ألوان. كانت قد أخبرتنا أن زوجها توفى فى حادث سيارة وترك لها طفلين وقبل عملها الحالى ظلت تعمل لأكثر من عام فى شركة "س. ر. س "التى "تهتم بجمع آراء الناس عن المنتجات الاستهلاكية، وتركت العمل من تلقاء نفسها لأنه ممل.

قال لوجون: "لماذا لم تهتمى بالعمل معهم يا سيد براندون؟".

نظرت نحوه وقالت: "ألست محققًا لدى الشرطة؟".

"نعم".

"هل تظن أن الشركة تمارس عملاً غير قانونى؟".

"بل أنا أتحرى عنها فقط، هل شككت فى هذا ولذلك تركت العمل؟".

"لا يوجد شىء محدد أقوله لك".

"بالطبع نفهم ذلك، وهذا استعلام سرى".

"فهمت، لكن لا يوجد لدى الكثير لأقوله لك".

"أخبرينا لماذا تركت العمل معهم؟".

"شعرت بأمور تثير الريبة ولم أعرف ما هى".

"أتظنين أن شعورك كان حقيقيًا؟".

"نعم، إلى حد ما، إذ لا يبدو أن الشركة تدار كأى شركة عادية، وشعرت بأن لها هدفًا خطيرًا لكنى لم أتوصل إليه".

سألها عن طبيعة عملها، وأعطته قائمة بأسماء أهل الحى الذى زاولت عملها فيه، وأخبرته أن مهمتها كانت زيارتهم، وسؤالهم عدة أسئلة محددة وكتابتها.

"وما الخطأ الذى شعرت به فى هذا؟".

"الأسئلة لا تتبع أى خط بحثى محدد، بل بدت عشوائية مبعثرة وكأنها غطاء يخفى شيئًا آخر".

"أليس لديك فكرة عن هذا الشىء الآخر؟".

"كلا، وهو الأمر الذى حيرنى جدًا".

ثم صمتت لبرهة وقالت بشك:

"تساءلت ذات مرة، هل الهدف هو سرقة المنازل أم التجسس؟ لكنى لم أكن أسأل الناس بالطبع عن وصف منازلهم وحجراتهم وأقفالهم... إلخ، ولا متى سيسافرون ويغادرون منازلهم".

"وما كانت السلع التى تسألين عنها؟".

"كانت متنوعة، غالبًا أنواع الطعام، مثل رقائق الحبوب وخلطات الكعك وأحيانًا الصابون ومساحيق الغسيل، وأدوات التجميل ومساحيق الوجه وأحمر الشفاه والكريمات ـ إلخ، العلاج والأدوية للأمراض وأنواع الأسبرين وحبوب السعال وحبوب النوم وحبوب منع الحمل والغرغرة ووسائل غسيل الفم وعلاج عسر الهضم وما شابه".

"هل طُلب منك إعطاء بيانات لسلع محددة؟".

"كلا، أبدًا لم يحدث ذلك".

"كنت فقط تطرحين الأسئلة وتدونين الإجابات؟".

"نعم".

"ما هو الهدف المعلن من الأسئلة؟".

"هذا ما بدا لى غريبًا، ولم يطلعونا على الهدف الحقيقى بالضبط، وإنما زعموا أن هدف الشركة هو إعطاء المعلومات للمصانع ـ ولكن الأمر كان يتم بطريقة الهواة وليس بشكل احترافى".

"هل تظنين أنه كان هناك مجموعة من الأسئلة المهمة والباقى أسئلة غير مهمة للتمويه؟".

فكرت قليلاً ثم أومأت بالإيجاب وقالت:

"نعم، هذا يفسر مسألة العشوائية ـ لكنى لم أعلم أهم الأسئلة منها".

نظر إليها لوجون بحدة وقال برقة: "يبدو أن فى الأمر أكثر مما أخبرتنا به".

"هذا هو كل ما أعرفه، حقًا، كل ما هنالك أننى شعرت بالتلاعب، وأن الأمر كله مزيف وتحدثت لسيدة أخرى تدعى السيدة ديفيز".

"نعم تحدثت مع السيدة ديفيز، ثم؟".

ظل صوت لوجون لا يتغير.

"لم تكن سعيدة بعملها أيضًا".

"لماذا؟".

"لقد ترامى إلى مسامعها شيء مريب".

"ما هو؟".

"قلت لك شيئًا غير محدد ولم تخبرنى بالكثير، لكنها فهمت مما سمعته أن الشركة كلها مجرد ستار يخفى شيئًا إجراميًا وقالت لى: "الأمور ليست كما تبدو فى الظاهر، ونحن لا غبار علينا والمرتب مجز ولا نفعل أى شيء ضد القانون. لا داعى للقلق".

"كان هذا كل شيء؟".

"بل قالت شيئًا آخر لم أفهم معناه: "أنا أشبه

"تيفود مارى "، ولم أفهم مقصدها فى حينها".

أخرج لوجون قائمة الأسماء وقال لها وهو يعطيها

إياها: "هل تعرفين أى اسم من هؤلاء؟ هل ذهبت إليهم فى منازلهم؟".

قالت بعد أن أخذت الورقة: "بالطبع لن أتذكر، فلقد ذهبت لمئات الناس و ـــــــــ". فجأة نظرت لاسم ما فى القائمة وقالت "أورمرود".

"هل تعرفينه؟".

"بل ذكرته لى السيدة ديفيز، مات فجأة بنزيف فى المخ مما أحزنها بشدة وقالت: "كان فى قائمتى منذ أسبوعين، وكانت صحته ممتازة". وقالت لى ذلك بعد تعليقها عن أنها تشبه "تيفود مارى "وقالت أيضًا:

"بعض من زرتهم انكمشوا وماتوا بعد زيارتى لهم "وضحكت وقالت إنها صدفة، لكنها كانت مستاءة جدًا وقالت إنها ستكف عن القلق".

"هل كان هذا كل شيء؟".

"حسنًا ـــــــــــ".

"أخبرينى".

"لم أرها لاحقًا لفترة طويلة، ثم تقابلنا فى مطعم فى حى سوهو وأخبرتها بأنى تركت العمل وحصلت على عمل فى مكان آخر. سألتنى عن السبب وأخبرتها بمخاوفى وشكوكى فيما يجرى، فقالت لى: "ربما كنت محقة، لكننا نتقاضى أجرًا كبيرًا، إضافة إلى أننا نعمل لساعات أقل، ويجب أن نغتنم كل فرصة ممتازة فى الحياة! لم يكن حظى وافرًا فى الحياة، وتساءلت لماذا أهتم بالآخرين وما يحدث لهم؟". قلت لها: "لا أفهم ما تقولينه، ما الذي يحدث فى الشركة؟ قالت لى:

"لست متأكدة، لكنى لاحظت شخصًا أول أمس يخرج من منزل ما ومعه حقيبة

أدوات، ولا أعلم ماذا كان يفعل". ثم سألتنى هل أعرف مكانًا يدعى الجواد الأشهب وتديره سيدة، فسألتها ما علاقة الجواد الأشهب بكل ما يحدث".

"ماذا كانت رد فعلها؟".

ضحكت وقالت: "اقرئى أكثر فى كتب السحر ولم أفهم مقصدها، وكانت آخر مرة أراها فيها ولا أعلم أين ذهبت وهل تركت الشركة أم لا".

قال لوجون: "لقد ماتت".

بدا الفزع عليها وقالت: "ماتت! لكن كيف؟".

"بالالتهاب الرئوى منذ شهرين".

"فهمت، يا للأسى!".

"هل لديك أقوال أخرى يا سيدة براندون؟".

"أخشى أنه ليس لدى المزيد من المعلومات، سمعت الكثير من الناس يذكرون اسم الجواد الأشهب عدة مرات لكن إن سألتهم عنه يصمتون بإصرار ويبدو عليهم الخوف".

بدا عليها القلق.

وقالت: "لا أريد أن أتعرض للخطر يا سيد لوجون فلدى طفلان صغيران، وأؤكد لكم أننى لا أعلم أى شىء أكثر مما ذكرته لك".

نظر إليها بحدة ثم أومأ لها وتركها تنصرف.

عندما رحلت قال لوجون لى: "هذا يؤكد لنا ما نعرفه، وربما كانت السيدة ديفيز تعلم الكثير وحاولت غض الطرف عما يحدث، وكانت فى الغالب تشك بشدة فى أن ثمة شيئًا مريبًا يحدث، ثم عندما مرضت وأوشكت على الموت، أرسلت لجورمان وأخبرته بكل ما تعرفه والسؤال الآن: ما الذى كانت تعرفه؟ وما حكاية قائمة الأسماء؟ ربما كانت لأناس مرت بهم فى عملها، وماتوا كلهم، وبالتالى قالت إنها تشبه "تيفود مارى "كل من يمر بها ويراها يموت. السؤال الأهم: من الذى رأته يخرج من المنزل بدون سبب واضح ويدعى أنه فنى من نوع ما؟ ربما كانت المعلومات هى التى جعلتها مصدر خطر وربما عرفها وعرفته، وبما إنها باحت بهذا السر للسيد جورمان فيجب أن يصمت للأبد قبل أن يبوح بما كان يعرفه".

نظر نحوى وقال:

"أتوافقنى فيما أرى أنه طريقة سير الأمور؟".

"نعم".

"ألديك فكرة عن الرجل، من هو؟".

"نعم، لكن...".

"أعلم، نحتاج لأدلة، وليس لدينا أى دليل".

صمت لبرهة وقال عندما قام من مقعده:

"لكننا سنلقى القبض عليه، ولا تتصرف بمفردك

وتخطئ، فبمجرد أن نتأكد من أنه هو سنجد طرقًا لإلقاء القبض عليه، وسنجرب كل الطرق الممكنة!".

الفصل الثالث والعشرون

رواية مارك ايستربروك

بعد ثلاثة أسابيع تحركت السيارة نحو منزل برايرز كورت. خرج أربعة رجال من السيارة أنا ولوجون وأوزبورن ومفتش آخر يدعى "لى". كان أوزبورن بالكاد يتمكن من إخفاء سعادته وإثارته لأنه يصطحبنا إلى منزل فينابلز.

قال له لوجون محذرًا: "أمسك لسانك بالداخل ولا تتكلم".

"نعم سيدى المفتش، يمكنك أن تثق بى فلن أتفوه بكلمة واحدة".

"يجدر بك أن تلزم الصمت".

"أشعر أننى سأنال شرفًا رفيعًا بحضورى موقف

كهذا، ولا أفهم....".

لكن لم يكن لدينا وقت لشرح ما ننوى القيام به.

دق لوجون جرس الباب وسأل عن السيد فينابلز.

كنا نبدو كوفد رسمى وسمحوا لنا بالدخول.

إن كان فينابلز قد فوجئ بزيارتنا، فهو لم يظهر ذلك. كان سلوكه فى قمة الأدب والكياسة. فكرت فى مظهره المميز عندما حرك مقعده المتحرك ليقترب منا. كانت تفاحة آدم تتحرك لأعلى ولأسفل بين ياقة زيه القديم، وبدا وجهه النحيل وأنفه المعقوف كطائر جارح.

قال: "يسرنى رؤيتك مرة أخرى يا سيد ايستربروك. لقد قضيت فترة طويلة فى لندن هذه الأيام".

كان صوته يوحى بالخبث قليلاً. واصل كلامه وقال: "وأنت المفتش لوجون، أليس كذلك؟ أنت تثير فضولى لمجيئك إلى هنا، نحن نعيش فى سعادة وهدوء ولا تحدث عندنا جرائم، ومع ذلك هناك الآن مفتش

شرطة! هل من خدمة أقوم بها من أجلك يا سيدى المفتش؟".

بدا لوجون هادئًا جدًا وماهرًا ولبقًا:

"نعم، هناك أمر أريد منك مساعدتنا فيه يا سيد فينابلز".

"هذا مألوف لى، لكن فى أى شىء تريد مساعدتى؟".

"فى السابع من أكتوبر قتل رجل يدعى جورمان فى شارع ويست فى بادينجتون، وعلمت أنك كنت فى الحى فى هذا الوقت ليلاً ما بين الساعة 7:45 إلى 8:15، هل رأيت شيئًا له علاقة بالأمر؟ "

"هل كنت حقًا فى هذه المنطقة فى هذا الوقت، أشك فى ذلك جداً، لا أذكر أننى كنت فى هذا الحى فى لندن، وعلى حسب ما أتذكر؛ فإننى لم أكن فى لندن فى الوقت المذكور، لأننى لا أذهب إليها إلا فى حالة وجود مزاد علنى وأيضًا لإجراء الكشف الطبى".

"عند السير ويليام دوجيل فى شارع هارى على ما أظن".

حدق فينابلز ببرود نحوه وقال: "تعرف عنى الكثير يا سيدى المفتش".

"ليس كما أحب، لكنى محبط لأنك لم تتمكن من مساعدتنا كما تمنيت، ولذلك سأشرح لك ملابسات مقتل السيد جورمان".

"كما تريد، لكن لم أسمع بهذا الاسم قبل الآن".

قال لوجون: "تم استدعاء السيد جورمان فى ليلة ملبدة بالغيوم والضباب بناءً على طلب امرأة تحتضر وكانت متورطة مع مؤسسة إجرامية بدون أن تعرف، لكن حدث ما جعلها تشك فى أن هناك أموراً خطيرة تحدث، وكانت المؤسسة متخصصة فى قتل الناس غير المرغوب فيهم لقاء ثمن باهظ بالطبع".

همس فينابلز: "يا لها من فكرة قديمة، فى أمريكا ـــــــ".

قاطعه لوجون قائلاً: "لكن المؤسسة كان لها سمات جديدة، كانت فى الظاهر تدعى قتل الناس نفسيًا بما يسمى بتنشيط رغبة الموت فى أى ضحية".

"فينتحر الشخص المطلوب؟ إنها فكرة يصعب على العقل تصديقها".

"ليس انتحاراً يا سيد فينابلز بل يموت موتًا طبيعيًا".

"هل معقول أن من يعمل فى الشرطة مثلك يصدق هذا؟!".

"وكان مقر المؤسسة مكانًا يسمى الجواد الأشهب".

"فهمت الآن، هذا ما جعلكم تأتون للريف، صديقتى ثيرزا جراى والهراء الخاص بها! سواء كانت تصدق نفسها أم لا، لم أعرف أبدًا، لكن كله هراء! وصديقتها الوسيطة الروحانية المزعومة والساحرة التى تطهو لها (لا أعلم كيف تأكل ما تطهيه لهم، فقد

تدس لهم السم فى الحساء فى أية لحظة! "لكن الثلاثة لهم سمعة كبيرة فى الحى، قد يكون ما أقوله هراء لكن لا تقل لى إن الشرطة تصدق هذه الخرافات؟".

"بل نحن نأخذ الأمر مأخذ الجد يا سيد فينابلز".

"أتصدق ما تقوله ثيرزا من هراء، وغيبوبة سيبل وبيلا وسحرها الأسود، وأن كل هذا يؤدى لموت أحد؟".

"كلا، الوفاة لها سبب أبسط من هذا".

ثم صمت لوجون لبرهة وقال: "سببه التسمم بمادة الثاليوم".

ثم صمت لبرهة.

قال فينابلز: "ماذا قلت؟ ".

"التسمم بمادة الثاليوم، بشكل بسيط وواضح، لكن يجب إخفاؤه ـ ولا يوجد أفضل من التمويه بالسحرة والمشعوذين وأشباه العلماء ـ مع كلمات متخصصة وخرافات قديمة، وكلها لتحويل الانتباه عن الموت بدس السم".

قال فينابلز عابسًا: "ثاليوم، لم أسمع بهذا الشىء من قبل؟".

"كلا، رغم أنه سم فئران شهير ويخفف شعر الأطفال من المصابين بديدان حلقية، ويمكن شراؤه بسهولة، وبالمناسبة رأينا عبوة من هذا السم فى كوخ أدوات حديقتك".

"فى كوخ حديقتى أنا؟ هذا غير محتمل بالطبع".

"لكنه صحيح وفحصنا بعضه فى معاملنا و ـــــــ".

قال فينابلز وهو مستثار من الغضب: "ربما وضعه أحد هنا وأنا لا أعلم عنه شيئًا ألبتة!".

"لكنك رجل ثرى، أليس كذلك يا سيد فينابلز؟".

"ماذا تقصد بكلامك هذا وما علاقته بما تقوله؟".

"الضرائب تسأل أسئلة محرجة على ما أظن عن مصدر دخلك، أليس كذلك؟".

"هذه هى لعنة العيش فى إنجلترا، إنها لعنة نظام الضرائب، فكرت جديًا فى الانتقال إلى برمودا

بأمريكا".

"لا أظنك ستسافر لأى مكان حتى فترة طويلة يا سيد فينابلز "

"هل هذا تهديد أيها المفتش؟".

"كلا يا سيد فينابلز بل مجرد تعبير عن الرأى، هل تحب أن تعرف باقى حكاية المؤامرة التى بدأت فى سردها؟".

"حسنًا إن كنت مصراً".

"إنها جريمة منظمة، الأمور المالية موكل بها محام موقوف عن المهنة يسمى برادلى ومكتبه فى برمنجهام، ويأتى إليه الزبائن هناك، فيراهنهم على وفاة شخص ما فى خلال مدة محددة... وهو متفائل فى تنبؤاته ومراهناته والزبون يأمل التخلص من شخص ما، ولوفاز برادلى يحصل على المال على الفور، وإلا سيلاقى مصيراً سيئًا. هذا كل شىء يفعله برادلى، وهو بسيط، أليس كذلك؟

ثم يأتى الزبون لزيارة الجواد الأشهب وتبهره ثيرزا جراى وصاحباتها بعرض سحرى مبهر كله هراء.

والآن هيا للحقائق الكامنة خلف الستار:

هناك نساء يعملن فى جميع الإحصائيات بالمرور على الأحياء لملء استبيان عن استهلاك السلع: أى نوع من المساحيق وأدوات التجميل تستخدمين؟ وأى نوع من الملينات والمقويات والمنومات وعقاقير سوء الهضم ... إلخ، والناس نادراً ما لا يستجيبون للرد على

الاستبيانات، بل اعتادوا على ذلك.

وهكذا ـ تحين اللحظة الأخيرة، البسيطة الجريئة، الناجحة حينما يفعلها صاحب الفكرة بنفسه، حيث يتظاهر بزى العمال ليفحص منزلك أو يقرأ عداد الغاز أو يكون السباك أو الكهربائى أو أى فنى من أى نوع. مهما كان، يكون معه أوراق تثبت شخصيته إن سأله أحد عن هويته والمعظم لا يسأل. مهما كان دوره يكون هدفه محدداً ـ استبدال سلعة يستخدمها الضحية بشىء يشبهها (بعد أن يعرفه من الاستبيان) ويكون بها السم. وقد يتظاهر بفحص الأنابيب والعداد وضغط الماء، المهم أنه يحقق هدفه ثم يغادر المكان ولا أحد يراه فى الحى بعد ذلك.

بعد بضعة أيام لا يحدث أى شىء لكن سرعان ما تظهر على الضحية أعراض المرض ويتم استدعاء الطبيب الذى لا يرى أى شىء غامض، ويسأل عما تناوله المريض من طعام وشراب... إلخ، لكنه لا يشك فى سلعة يتناولها، أو يستخدمها المريض منذ سنوات.

ألا ترى براعة الخطة يا فينابلز؟ يقوم بهذا رئيس المؤسسة بنفسه، ولن يشى به أحد لأنهم لا يعرفونه.

قال فينابلز برقة: "كيف عرفت كل هذا؟".

"عندما نشك فى شخص ما نتأكد بوسائلنا الخاصة".

"حقًا؟ مثل ماذا؟".

"لن نستعرض كل الوسائل، هناك الكاميرا مثلا، وأجهزة أخرى غريبة وعبقرية هذه الأيام، ويمكنك التقاط صورة لأى شخص دون أن يدرى. وقد التقطنا صوراً ممتازة لبواب الغاز مثلاً. كانت هناك إكسسوارات تنكر فى كل مرة مثل الشارب وطقم الأسنان؛ لكنه من الواضح أنه نفس الرجل من ملامحه، قد تعرف عليه كل من السيد مارك ايستربروك وزوجته المزعومة الآنسة كاثرين كوريجان، وامرأة تدعى أديث بينز. إدراك الأشخاص والتعرف عليهم شىء مثير يا سيد فينابلز. عندك مثلاً السيد أوزبورن يقسم إنه رآك تتبع السيد جورمان ليلة مقتله فى شارع بارتون 7 أكتوبر الساعة الثامنة مساءً".

مال أوزبون وهو يهتز من الإثارة: "ولقد رأيتك! لقد وصفتك بدقة!".

قال لوجون: "ربما رأيته بدقة أكثر من اللازم، لأنك لم تر فينابلز فى تلك الليلة عندما كنت خارج متجرك. بل لم تقف أمامه أساسًا وإنما عبرت الشارع وتبعت السيد جورمان حتى شارع ويست وهاجمته وقتلته...".

صاح زكريا أوزبورن:

"ماذا؟!".

بدا الأمر سخيفًا! كلنا فتحنا فمنا فى دهشة وحملقنا فى لوجون.

قال لوجون: "أقدم لك يا سيد فينابلز زكريا أوزبورن صاحب صيدلية فى شارع بارتون فى بادنجتون، وستهتم به عندما تعرف أنه كان تحت المراقبة لفترة طويلة، ورأيناه يضع عبوة ثاليوم فى كوخ أدوات حديقتك، ولم يعرف أنك معاق وكان يسره كثيراً أن يظهرك لنا كأنك شرير المسرحية التى يريد أن يوهمنا بها. كان مصراً وعنيداً وغبياً ورفض أن يعترف أنه أخفق".

"غبيًا، كيف تجرؤ على القول بأننى غبى؟ إن عرفت ما فعلته وما يمكن أن أفعله ـــــ".

انتفض أوزبورن من فرط الغضب وصاح فى حدة بكلمات كثيرة غير مفهومة.

قبض عليه لوجون وحاول أوزبورن أن يتملص منه كالسمكة.

قال لوجون معاتبًا له: "ليتك لم تحاول إثبات أنك ماهر. لو ظللت فى متجرك ولزت بالصمت لما كنت أنا هنا ألقى القبض عليك، لكنك كشفت نفسك بنفسك".

وعندها بدأ أوزبورن الصراخ.

الفصل الرابع والعشرون

رواية مارك ايستربروك

قلت له: "أريد معرفة أمور كثيرة منك يا لوجون".

بعد إنهاء الإجراءات الرسمية جلست أنا ولوجون نثرثر معًا.

"نعم يا سيد ايستربروك، أعلم أنها كانت مفاجأة لك".

"بالطبع، وكان عقلى يصر على أن فينابلز هو المجرم، ولم تلمح لى أنت بالعكس".

"لم يكن من الممكن التلميح بأى شىء يا سيد ايستربروك، بل يجب تدبير كل شىء فى الخفاء وسرًا، ولأن الأمور خداعة، وفى الحقيقة لم يكن لديك الكثير لتفعله، لكننا ابتكرنا تمثيلية بمساعدة فينابلز وتعاون معنا حتى نقود أوزبورن لطريق الحديقة، ثم نحطم آماله فى إلصاق التهمة بفينابلز، ونجحت الحيلة واعترف أوزبورن بجرائمه".

"هل هو مختل عقليًا؟".

"ربما أصابه الجنون بعد انكشافه، لكنه بالطبع لم يكن مجنونًا قبل ذلك، بل كان يقتل الناس بدم بارد. هذا يعطيه شعورًا بالعظمة وكأنه عبقرى، لكنه حقير وأحط شأنًا من أى إنسان عندما انكشف أمره وهذا ما لم يتحمله غروره وجعله يعترف، ويتفاخر بما فعله وبمهاراته كما رأيته".

أومأت له وقلت: "إذن فينابلز كان يشترك فى تمثيلية عليه، هل كان يحب التعاون مع الشرطة؟".

"لقد استمتع بذلك، كما أنه كان وقحًا، وقال إنه سيساعد الشرطة التى ضللها فى الماضى".

"ماذا كان يقصد بهذا التعليق الغريب؟".

قال لوجون: "بالطبع من المفترض ألا أخبرك لكن هذا ليس كلامه رسميًا. منذ ثمانى سنوات حدثت سلسلة جرائم لسرقة البنوك، بنفس الطريقة فى كل مرة، وأفلت الفاعل دون عقاب! كان يخطط لها شخص بدون أن يقوم بها بنفسه، وهرب بالمال وحامت حوله الشكوك ولم نثبت عليه أى شىء، وكان ماهرًا جدًا فى الأمور المالية بشكل خاص، وكان يتحلى بالعقل ولم يكرر نجاحه فى سرقات أخرى، ولن أبوح لك

بالمزيد، لقد كان نصاباً ماهراً لكنه ليس قاتلاً، ولم يقتل من قبل".

فكرت فى أوزبورن وقلت له: "هل كنت تشك فى أوزبورن منذ البداية؟".

قال لوجون: "هو من جذب الانتباه إليه، وكما قلت له؛ لو أنه ظل قابعاً فى صيدليته، ولم يحاول التحاذق والتذاكى، لما شككنا لحظة أن الصيدلى المحترم هو القاتل والعقل المدبر لكل هذا. هكذا تجد القتلة مصابين بجنون الارتياب، لا يجلسون فى منزلهم فى أمان بل يحومون حول الجريمة، ويحاولون معرفة كل أخبارها وتحقيقات الشرطة بها، ولا أعرف لماذا".

قلت له: "وماذا عن رغبة الموت وحركات ثيرزا جراى؟".

قال لى بحدة: "كلما أسرعت بنسيان خزعبلاتها كان ذلك أفضل". ثم أضاف بعد تفكير: "أعتقد أنها الوحدة، فحينها تشعر أنك إنسان بارع؛ ولكن لا يسمع بك أحد، فإنك تلجأ لعمل شىء غريب للفت الأنظار".

"لم تخبرنى متى تشككت فيه".

"حسناً، منذ البداية وهو يكذب، طلبنا أن يأتى لنا من شاهد السيد جورمان ليلة مقتله، وجاء لنا أوزبورن وكذب بشكل واضح، بقوله إنه رأى من اتبع قاتل السيد جورمان وبالتأكيد من المستحيل أن يكون رآه فى الضباب، ربما رأى الأنف المعقوف لكن ليس تفاحة آدم من كل هذه المسافة. بالطبع قد لا تثير كذبته أى اتهام موجه له، فمعظم الناس تصف الآخرين بشكل خاطئ، لكن كذبته جعلتنى أركز عليه وعلمت كم هو مثير للشبهات. بدأ يقول لى الكثير عن نفسه وكانت تلك حماقة منه، وأعطى عن نفسه صورة رجل يحب أن يكون أهم مما هو عليه الآن. لم يكتف بعمل الصيدلى كأبيه، بل جرب حظه فى المسرح وفشل ولم يحب أبداً أن يتحكم أحد فى الدور الذى يقوم به! وربما أخبرنى بصدق عن حلمه فى أن يشهد فى قضية قتل بالسم، وعقله كان يفكر فى هذا كثيراً. خطر فى بالى أنه ربما قد تحول لمجرم ماهر لا يكشف أحد سره.

لكن كل هذا كان مجرد تخمينات. لنعد للقصة، كان وصف أوزبورن للجانى المزعوم ليلة الجريمة مثيراً للدهشة، كأنه وصف شخص رآه حقيقة، ومن الصعب أن تبتكر وصفاً حقيقياً لأى شخص: عيناه وذقنه وأذنه وقامته وما إلى ذلك، وإن حدث ستجد نفسك لا إرادياً تصف من رأيته بالفعل فى القطار أو الحافلة أو العربة. ربما كان يصف شخصاً رآه بالفعل له صفات غير عادية وغير مألوفة ـ لكن لم يدرك أنه مشلول عندما رآه فى سيارته فى بورنماوث، وأعجبه شكله غير العادى.

السبب الآخر لاهتمامى بأوزبورن هو أنه صيدلى وقد يعلم كل شىء عن تجارة المخدرات مثلاً، لكنه لم يكن كذلك فى الواقع، وربما كنت سأنسى أمره لولا إصراره على أن يتواجد فى الصورة. كان يريد معرفة ما يفعله رجال الشرطة وبالتالى كتب

عن أنه رأى الشخص فى حفل خيرى فى قرية ماتش ديبنج. لم يعرف بالطبع أن فينابلز مشلول، ولو عرف لتحلى بالعقل ولاذ بالصمت، لكن هذا الغرور معتاد لدى المجرمين، ولم يكن ليعترف للحظة أنه على خطأ، وكالأحمق كتب كل ما عنده من نظريات سخيفة وافتراضيات غبية. قمت بزيارة مثيرة فى منزله فى بورنماوث واسمه كان يوحى بالكثير:

"إيفريست". ثم كانت تسميته للمنزل وقد علق صورة جبل إيفريست فى قاعة الزوار، وقال إنه مهتم ببعثات تسلق جبل إيفريست وأخبرنى بالنكتة التى يحبها عن أنه منزل الراحة الأبدية (إيفريست بمعنى الراحة الأبدية). هذا كان عمله؛ أن يعطى الناس راحة أبدية بالموت ويتقاضى أجراً باهظًا على ذلك. كان كل التخطيط ماهراً، برادلى فى برمنجهام، وثيرزا فى ماتش ديبنج تعقد جلسات تحضير الأرواح، ولا أحد يشك فى علاقة بينهما وبين أوزبورن، ولا علاقة بينهم وبين الضحايا. كل هذا بمثابة لعب أطفال من خيال الصيدلى.

"ولم يكن لينكشف لو كان عاقلاً والتزم الصمت".

"لكن ماذا فعل بالمال؟ هل كان يقتل من أجل المال؟".

"بالطبع وكان لديه آمال كبرى بالسفر والمتعة وأن يحيا حياة الترف والثراء، وأن يكون شخصاً مهما، لكنه ليس الشخص الذى يتمنى أن يكونه، لذا أراد أن يشعر بقوته عن طريق القتل باستمتاع، والهروب من العقاب مرات ومرات، وقد أسكرته الانتصارات واللذة الأثيمة، وأخذ يستمتع بهذا، وأراد أن يكون محط أنظار الجميع".

قلت له: "وماذا فعل بالمال؟".

"شىء بسيط، لاحظت أن أثاث كوخه فى الريف من النوع الرخيص فهو بخيل بالطبع، وكان محباً للمال ولكن ليس للإنفاق، فكان كوخه قليل الأثاث واشترى أثاثًا مستعملاً من المزادات. لم يكن يحب إنفاق المال بل الحصول عليه فقط".

"هل وضعه فى البنك؟".

"كلا، ربما تحت خشب الكوخ مثلاً".

صمت كلانا لبرهة ثم فكرت فى الشخصية الغريبة؛ زكريا أوزبورن.

قال لوجون ببطء: "يظن كوريجان أنه صار مجرماً بسبب نشاط زائد أو ناقص لغدة ما فى الطحال أو البنكرياس، لا أتذكر، فأنا رجل بسيط ولا شأن لى بالنظريات؛ لكن لا أعرف كيف يصبح رجل عبقرى فى الإجرام مثله بهذه الحماقة، هذا ما يحيرنى".

قلت له: "نحن نتخيل العقل المدبر وكأنه رجل كبير وعظيم الهيئة وشرير".

هز لوجون رأسه بالنفى وقال:

"ليس هكذا. الشر ليس شيئًا خارقًا. الشرير ليس إنسانًا بل أحط من البشر، والمجرم شخص يريد أن يشعر بأنه مهم، لكنه لن يحقق ذلك لأنه أحط من الإنسان دائمًا".

الفصل الخامس والعشرون

رواية مارك ايستربروك

1

كل شيء كان عادياً فى قرية ماتش ديبنج، مما جدد طاقتى ونشاطى.

ظلت رودا مشغولة برعاية كلابها طبيًا، وهذه المرة لتخلصها من الديدان ونظرت لى لأعلى عندما دخلت وسألتنى هل يمكننى أن أساعدها فرفضت وقلت لها أين جنجر.

"ذهبت للجواد الأشهب".

"ماذا؟".

قالت لديها عمل تنجزه هناك".

"لكن المنزل فارغ وخالٍ".

"أعلم ذلك".

"سترهق نفسها ولم تتعاف بالكامل بعد ــــــــ".

"كف عن التذمر يا مارك فهى بخير. هل رأيت رواية السيدة أوليفر الجديدة؟ تسمى "الكوكاتو الأبيض "وهى على المائدة".

"فليباركها الله هى وإديث بينز أيضًا".

"من هى إديث بينز؟".

"سيدة تعرفت على لوحات أمى بالكفالة، وقامت برعايتها قبل وفاتها".

"لا أفهمك، ما خطبك؟".

لم أرد عليها وسرت نحو الجواد الأشهب.

قبل أن أصل إليه وجدت السيدة كالثروب وحيتنى بكل حماس، قائلة: "أعلم أننى تفوهت بحماقات؛ لكنى لم أدرك ذلك إلا الآن أن حيلهن قد انطلت علىّ".

ثم أشارت بذراعها نحو الفندق الفارغ الهادئ الذى تغمره أشعة الشمس فى أواخر

الخريف.

قالت: "لم يكن الشر هناك أبداً ـ ليس بالمعنى المفهوم، لم يكن هناك سحر واتفاق مع الشيطان ولا سحر أسود، بل خدع تتم لقاء أجر مالى ـ دون أدنى اعتبار لحرمة الحياة. هذا هو الشر بالفعل ـ ليس شيئًا عظيمًا أو كبيراً بل صغيراً وحقيراً".

"أنت والمفتش لوجون لكما نفس الرأى".

قالت: "أنا أحب هذا الرجل، هيا نر جنجر فى الجواد الأشهب".

"ماذا تفعل هناك؟".

"تنظف لوحة ما".

دخلنا الممر وأبوابه وشممت رائحة قوية لمادة التربنتين المنظفة، وكانت جنجر منهمكة فى عملها مع الزجاجات والخرق البالية ونظرت نحونا عندما دخلنا. كانت ماتزال شاحبة ونحيلة وترتدى غطاء للرأس لإخفاء شعرها الذى لم ينم بالكامل بعد، وكأنها شبح لشخصيتها السابقة.

قالت السيدة كالثروب وكأنها قرأت أفكارى: "إنها بخير".

قالت جنجر بحماس: "انظرا!".

أشارت إلى اللافتة القديمة للمقهى.

بعد إزالة التراب العالق عن اللوحة التى كانت تصور الجواد وراكبه بشكل واضح، وكان راكبه هيكلاً عظمياً يضحك وعظامه لامعة.

قالت السيدة كالثروب بصوت عميق وله رنين رخيم وهادئ:

"إن من يمتطى صهوته هو الموت والجحيم يأتى من خلفه...".

صمتنا لبرهة ثم قالت السيدة كالثروب والتى لا تخشى رد الفعل من حولها: "هذا ينهى كل شىء".

قالت ذلك بلهجة من يلقى ورقًا فى القمامة.

ثم أضافت: "سأذهب لاجتماع الأمهات الآن".

أومأت لجنجر وهى تمشى عبر البوابة وقالت لها فجأة:

"بالمناسبة، ستكونين أمًا رائعة وممتازة".

احمر وجه جنجر من الخجل، لا أعرف لماذا

قلت لها: "يا جنجر هل تقبلين ـــــــ؟".

"ماذا؟ أن أكون أمًا ممتازة؟".

"بل تعرفين ماذا أريد منك؟".

"ربما... لكنى أريد أن تعرض الأمر رسميًا".

وعرضت عليها الزواج رسميًا...

2

بعد فترة قالت جنجر: "هل أنت متأكد من أنك لا تريد الزواج ممن تسمى هرميا؟".

قلت لها: "يا إلهى! لقد نسيت!".

ثم أخرجت الخطاب من جيبى وقلت:

"هذا خطاب منها منذ ثلاثة أيام تسألنى هل سأحضر معها عرضًا فى مسرح فيكتوريا القديم لشكسبير يسمى:

خاب سعى العشاق".

أخذت منى الخطاب ومزقته إربًا وقالت:

"إن أردت الذهاب لمسرح فيكتوريا القديم فى المستقبل فسوف تذهب معى أنا".

نبذة عن المؤلفة

تُعرف أجاثا كريستى فى كل أنحاء العالم باسم "ملكة الغموض "، ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية، وهى تعد أكثر كاتبة نشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات، ولم يفُقها فى المبيعات إلا كتب شكسبير، وقد قامت بتأليف ثمانين كتابا، ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة فى الجريمة، كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية، وست روايات تحت اسم مارى ويستماكوت.

ولقد كتبت أجاثا كريستى روايتها الأولى "السر الغامض فى ستايلز "قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، والتى كانت تعمل خلالها فى الجيش كممرضة. وقد قامت فى هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو، ذلك المحقق البلجيكى ضئيل الجسم الذى صار أشهر محقق فى روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز ـ وقد نشرت الرواية أخيرًا بواسطة دار نشر Bodley Head فى عام 1920.

وفى عام 1926، وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام، قامت أجاثا كريستى بتأليف روايتها العظيمة "من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟ "، تلك الرواية التى كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر"Collins " والتى أسست علاقة ربطت بين الكاتب والناشر دامت لخمسين عامًا ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية، كما كانت رواية "من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟ " هى أولى رواياتها التى يتم تمثيلها مسرحيًا ـ تحت عنوان "Alibi "ـ واستمر عرضها بنجاح على مسرح "ويست إند "فى "لندن "لمدة طويلة. وقد تم افتتاح مسرحية ـ "مصيدة الفئران "ـ أشهر مسرحياتها على الإطلاق فى عام 1952 وهى المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض فى التاريخ.

وقد منحت أجاثا كريستى لقب "فارسة صاحبة مقام رفيع "فى عام 1971، وتوفيت فى عام 1976. ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التى حققت أعلى المبيعات "Sleeping Murder " وظهرت لاحقًا فى نفس عام وفاتها. بعد ذلك نُشرَت السيرة الذاتية لها، ثم مجموعة القصص القصيرة "Miss Marple›s Final Cases " و "Problem at Pollensa Bay " و "While the Light Lasts " وفى عام 1998 تم تحويل أول مسرحية لها وهى "Black Coffee " إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو "تشارلز أوزبورن".

جدول المحتويات

إهداء

مقدمة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

نبذة عن المؤلفة